

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَحْيَىٰ وَسِرْقُ رَاط

مُتَمِّدٌ بِحَرْقِ

الْجَنَّةِ الثَّالِثِ

دَارُ مَكْتَبَةِ
صَعْبُوعَةِ

الإمام علي عليه السلام
صَوْتُ الْعَدَالَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ

حاشيَّ ومقررات

الجزء الثالث

تأليف
الأستاذ الكبير جورج جرداق

دار ومكتبة
صعصعة
جدة حفص - مملكة البحرين

حسب الی و مر قراط

حقوقه الطبع محفوظة

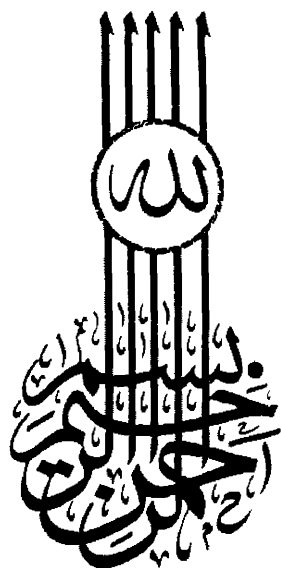
الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

دار ومكتبة

صاعدة

جدة حفص - مملكة البحرين



وثيقة إعلان حقوق الإنسان الدولية

« لقد مزق ابنُ أبي طالبِ صورَ الاستبدادِ حيثُ حطَّتْ له
قدَمٌ ، وحيثُ سُمِعَ له قولٌ ، وحيثُ أشرقَ سيفُهُ مع نور
الشمس ، وسَوَى بها الأرضَ ومشَى عليها الأقدام !

لقد تَكَوَّنَتْ لدى القارئِ صورةٌ واضحةٌ عن الحقوق التي أدركها عليّ بن
أبي طالبٍ للإنسان ، وأعلنها صريحةً لا لبهامَ فيها ولا غموض . وإنّا لنكفي
أنفسنا عناءَ إيجازها في هذا الفصل ، ونكفي القارئَ أن نُعيدَها عليه بعَرَضٍ
وتقسيمٍ جديدين .

ولكي نُبرزَ القيمةَ الجليلةَ التي نراها للمذهبِ ابنِ أبي طالبٍ في هذه الحقوق ،
ولكي نستجلي ، على صورةٍ أوضح وأنتمّ ، عبقريةَ عليٍّ في دستوره ، رأينا
من المستحسن أن نُثبتَ في هذا الكتابِ أهمّ ما جاء في « الوثيقة الدولية لإعلان
حقوق الإنسان » فيرى القارئُ بنفسه إذا كان هنالك من فرقٍ أساسيٍّ بين
المذهبِ العلويِّ في الحقوق العامة ، وهذه الوثيقة . ثم يدرك أين يستقرّ هذا
الفرق وما هي أسبابه !

أمّا نحن ، فإذا جازَ لنا أن نقولَ قولاً موجزاً بهذا الصدد ، فإنّا نشير
إلى أنّه يصعبُ على المرء أن يجدَ اختلافاً بين المذهبِ العلويِّ والوثيقة الدولية

هذه من حيث الروح . أمّا الفوارق في الفروع ، ثم في الصيغ ، فمحتومه مع اختلاف الزمان . أمّا الأسُس ، فليس من أساسِ بوثيقة حقوق الانسان ، التي نشرتها هيئة الأمم المتحدة إلاّ وتجده له مثيلاً في دستور ابن أبي طالب . ثم تجده في دستوره ما يعلو ويزيد !

أمّا إذا كان هنالك من فرقٍ صحيحٍ فارقٍ فهو إنتما بتعلقٍ بواضعي الوثيقتين ، ويتلخّص في نظرنا بنقاطٍ أربع :

الفرق الأول هو أنّ الوثيقة الدولية لإعلان حقوق الانسان وضعتها ألوف من المفكرين . ينتمون لمعظم دول الأرض ، أو لها جميعاً ، فيما وضعت الدستور العلوي عبقرتي واحد هو عليّ بن أبي طالب !

والفرق الثاني هو أنّ عليّ بن أبي طالب يسبق واضعي هذه الوثيقة ببضعة عشر قرناً !

والفرق الثالث هو أنّ واضعي هذه الوثيقة ، أو جامعي شروطها والقولُ أصح . قد ملأوا الدنيا عجباً فارغاً حول ما صنعوا وما يصنعون . وأكثرُوا من الدعاوة لأنفسهم على صورةٍ ينفر منها الصدقُ والذوقُ جميعاً . وأزعجوا الانسان بمظاهر غرورهم وما إليه . وحملوه ألف منّةٍ وألف حملٍ ثقیل . فيما تواضع ابنُ أبي طالبٍ للناس وربّ العالمين فلم يستعلِ ولم يستكبر بل رجا الله والناس في أن يغفروا له ما عمل وما لم يعمل !

أمّا الفرق الرابع ، والاهمّ ، فهو أنّ معظم هذه الدول المتحدة التي أسهمت في وضع وثيقة حقوق الانسان ، واعترفت بها ، هي التي تسلب الانسان حقوقه ، فينتشر جنودها في كل ميدانٍ تمزيقاً لهذه الوثيقة وهذا راء هذه الحقوق ، فيما مزّق ابن أبي طالب صورَ الاستبداد والاستئثار حيث

حطّت له قدم ، وحيث سُمع له قول ، وحيث أشرق سيفه مع نور الشمس .
وسوى بها الارضَ ومشى عليها الأقدام . ثم قضى شهيدَ الدفاع عن حقوق
الأفراد والجماعات بعد أن استشهد ، في حياته ، ألف مرة !

وإلى القارئ الآن أجلّ ما في وثيقة الأمم المتحدة ^(١) :

١ - يولد الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق ، مزوّدين بالعقل
والضمير ، وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الأخوة .

٢ - لكلّ إنسان أن يتمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذه الوثيقة .
وذلك بدون أي تمييز وخاصة ما كان بسبب الجنس واللون والذكورة أو
الأنوثة واللغة والدين والرأي السياسي أو أي رأي خلافه . والأصل الوطني
النازح منه الفرد ، أو الأصل الاجتماعي وحالة الغنى والفقر ^(٢) . والمركز
العائلي أو أي مركز خلافه .

٣ - تمتدّ الحقوق الواردة في هذه الوثيقة إلى جميع سكان الأراضي الموضوعة
تحت الوصاية ، والأراضي غير المتمتعة بالحكم الذاتي . وذلك على قدم المساواة
مع سكان البلاد ذات السيادة .

٤ - لكلّ فرد الحقّ في الحياة وفي الحرية وفي العيش آمناً مطمئناً .

٥ - لا يجوز أن يعيش إنسانٌ في الرقّ أو الاستعباد . والرقّ والنخاسة ،
في كافّة صورهما ، محظوران .

٦ - لا يجوز أن يُعذّب إنسانٌ أو أن توقع عليه عقوباتٌ قاسية غير إنسانية
أو مُزرية بالكرامة .

(١) اخذنا سبدي هذه الوثيقة من كتاب « تاريخ اعلان حقوق الانسان » الذي وضعه
الكاتب الفرنسي البير بايه ونقله إلى العربية الدكتور محمد مندور ونشرته جامعة الدول العربية .
(٢) لم يعترف علي بن أبي طالب بـ « ضرورة » وجود الفقر في المجتمع .

- ٧ - لكل إنسان الحق في أن يُعترف له في كل مكان بشخصيته القانونية .
- ٨ - الجميع منساوون أمام القانون ، ولكل فرد - دون أي تمييز وعلى قدم المساواة - الحق في أن يحتمي به . وللجميع الحق في الحماية ضد كل تمييز يُعتبر خروجاً على هذه الوثيقة وضد كل تحريض على هذا التمييز .
- ٩ - لكل إنسان الحق في اللجوء الفعلي إلى القضاء الوطني المختص بالنظر في كل اعتداء على الحقوق الأساسية المعترف له بها في الدستور والقوانين .
- ١٠ - لا يجوز القبض على أحد أو حبسه أو نفيه بإجراء تحكيمي .
- ١١ - لا يجوز أن يتعرض أحد لتدخل تحكيمي في حياته الخاصة ، أو في أسرته أو منزله أو مراسلاته ، ولا أن يُعتدى على شرفه وسمعته . لكل إنسان الحق في حماية القانون ضد مثل هذا التدخل وذلك الاعتداء .
- ١٢ - لكل فرد الحق في التنقل بحرية وفي اختيار مسكنه داخل الدولة . لكل إنسان الحق في أن يغادر أي بلد بما في ذلك بلده ، وأن يعود إليه .
- ١٣ - لكل إنسان الحق إزاء الاضطهاد في أن يبحث عن ملجأ وأن يستفيد من وجود هذا الملجأ في بلاد أخرى .
- ١٤ - لكل فرد الحق في الملكية سواء بصفة فردية أو إجماعية . لا يجوز حرمان أحد من ممتلكاته بإجراء تحكيمي .
- ١٥ - لكل إنسان الحق في حرية التفكير والاعتقاد والديانة .
- ١٦ - لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير ، بما يتضمنه ذلك الحق في أن لا يزعم بسبب آرائه .
- ١٧ - لكل إنسان الحق في أن يساهم في إدارة شؤون بلاده العامة ، وذلك سواء بصفة مباشرة أو بواسطة ممثلين منتخبتين انتخاباً حراً .

لكل شخص الحقّ في تولّي الوظائف العامّة في بلده على أساس المساواة .
إرادة الشعب هي مصدر السلطات العامة .

٢٠ - لكل إنسان الحقّ في الضمان الاجتماعي ، بأن يحصل على الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية اللازمة لكرامته ولتنمية شخصيته تنميةً طبقية ، وذلك بفضل الجهود القومي والتعاون الدولي .

٢١ - لكل شخص الحقّ في العمل والحرية في اختياره بشروط عادلة مجزية ، كما أن له الحقّ في الحماية من البطالة .

للجميع الحقّ ، دون أي تمييز ، في الحصول على أجرٍ متساوٍ عن عمل متساوٍ .

لكلّ من يعمل الحقّ في أجرٍ عادلٍ مُجزٍ يضمن له ولأسرته حياةً تنفق مع الكرامة البشرية ، ويكمل عند الضرورة هذا الأجر بأية وسيلةٍ من وسائل الحماية الاجتماعية .

٢٢ - لكلّ فرد الحقّ في مستوى من الحياة يضمن له ولأسرته الصحة والرخاء ، وبخاصّة فيما يتعلق بالمأكل والملبس والسكن والخدمات الصحية والخدمات الاجتماعية الضرورية . كما أن له حقّ الضمان في حالة البطالة والعجز عن العمل والتملّ والشيخوخة ، وفي الحالات الأخرى التي يفقد فيها وسائل كسب قوته نتيجة لظروف لا دخل لإرادته فيها .

٢٣ - لكل إنسان الحقّ في التعليم ، ويجب أن يكون التعليم مجانيّاً . والتعليم الأوّلي إجباري .

يجب أن يهدف التعليم إلى تنمية الشخصية البشرية وتقوية احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ، ومن الواجب أن يناصّر الفهم المتبادل والتسامح

والصداقة بين كافة الأمم وكافة الجماعات ، كما يعمل على تعزيز مجهودات الأمم المتحدة للمحافظة على السلام .

٢٤ - على الفرد واجبات نحو الهيئة الاجتماعية التي من الممكن أن تنمو فيها وحدها شخصيته نمواً حراً كاملاً .

٢٥ - لا يخضع الفرد عند مزاوله حقوقه والتمتع بحرياته إلاً للقيود التي ينصّ عليها القانون لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياتهم واحترامها .
ثم لحماية مقتضيات الاخلاق الدقيقة والنظام العام والرفاهية العامة في مجتمع ديمقراطي .

لا يمكن في أية حالة : مزاوله هذه الحقوق والحريات على نحو يتعارض مع أهداف ومبادئ الأمم المتحدة .

٢٦ - لا يجوز أن يفتر أي نصّ من نصوص هذه الوثيقة على أنه يتضمن بالنسبة لأية دولة أو أية هيئة أو أي فرد الحقّ في أن يزاوّل أي نشاط أو أن يقوم بأيّ عمل يرمي إلى تحطيم الحقوق والحريات الواردة فيها .

*

هذا أهمّ ما جاء في وثيقة الأمم المتحدة لإعلان حقوق الإنسان وحرياته ، هذه الحقوق والحريات التي ما تزال دول الأمم المتحدة تحطمها فيما ندّعي المحافظة عليها والعمل من أجلها . وأظن أن القارئ أدرك ما بين مبادئ هذه الوثيقة ومبادئ وثيقة حقوق الإنسان الفرنسية من علاقةٍ وقربى ، ثم ما بينها وبين دستور عليّ بن أبي طالب من صلةٍ جوهرية ، إلا ما ارتبط منها بالزمان وتطوّراته . هذا بالإضافة إلى إطارٍ من الحنان الإنساني العميق يحيط به عليّ دستوره في المجتمع ، ولا تحيط الأمم المتحدة وثقتها بمثله !

مَا وَرَاءَ الْوُثِيقَتَيْنِ

• وكأنّ عليّاً قد سجّل قصّة عصور الانسانية القديمة كلّها ،

وما زال يسجّلُ قصّة العصور الحديثة !

• وعلّق صاحبُ المال رأسه بأرجل الأخطبوط وأيديه ، فإذا هو

بهم "آدمي" وليس بآدمي سلّخت قسّامات وجهه عن الدينار ،

وتعطلّت فيه خصائص الأحياء ، فلا حرارة ولا ضوء ولا

دفء ولا حياة !

بعد هذا العرض الذي أوجزنا فيه مبادئ الوثيقتين الفرنسية والدولية لحقوق الانسان ، ووضعناها جميعاً موضعَ المقابلة مع مبادئ علي بن أبي طالب ، فإذا هي تماشيها نصوصاً وتنزّع عن مِثْلِ أصلها وتؤول إلى معناها . لا بدّ أن نذكر القارئ العربيّ بأنّ عملاق تاريخنا لم تقف به أصالته الأصيلّة في النظر والتفكير عند هذا الحدّ الذي صوّرناه ، بل تجاوزتْ به إلى ما هو أبعد من هاتين الوثيقتين ، من تقرير حقائق اجتماعية ظلّ المفكّرون بعبيدين عن إدراكها حتى أواسط القرن التاسع عشر ، أو قلّ حتى أوائل القرن العشرين . كما ظلّ كثيرٌ من البشر بعبيدين عن أن ينظروا فيها كحقائق صحيحة حتى يومنا هذا .

وهذه الحقائق التي نعني ، والتي جاوز بها ابنُ أبي طالب ما تتضمنه الوثيقتان الفرنسية والدولية من أصولٍ في معنى البناء الاجتماعي ، والتي لم يُشرْ إليها كاتبٌ ممن كتبوا عن عليٍّ كما أنتهم لم يُشيروا إلى سواها من الأصول العميقة في منهجه كمفكرٍ وكناسان . كثيرة الفروع مختلفة الاتجاهات . غير أنيها تعود جميعاً على أصولٍ ثلاثةٍ عليها تنبت ومنها تنفرع .

أما الأصل الأول ، فطبيعة المال ذات الشكل الأخطبوطي الذي يرغب لنفسه في أن يمدَّ أيديه للزوجة الكثيرة إلى كل شيء فيضمه إليه ويبتلعه ، ويتنفخ بما ابتلع . ثم يطلب المزيد .

وأما الأصل الثاني ، فطبيعة صاحب المال الذي يندمج بهذا الأخطبوط اندماج « الشيء » بذاته ، فيصِل به نفسه ، ويربط غايته بأرجله وأيديه ، ويعلق مصيره ، بمصيره ، فإذا هو بهم "آدمي وليس بآدمي" سلخت عواطفه وأمانيه وافكاره وقسمات وجهه عن الدينار ولو شيئاً من الأشياء قدراً ، وقدر نشاطه بكثرة الدنانير وقتلتها ، وقيس وجوده بوجودها ، وتعطل فيه كل فكرٍ وجمدت كل عاطفة وخمدت كل إحساس ، ومُسخت فيه الطبيعة الإنسانية كأفبح ما يكون المسخُ والتشويه ، وتحولت خصائصه الحية إلى خصائص آلية لا حرارة فيها ولا دفء ولا ضوء ولا حياة !

وأما الأصل الثالث ، فطبيعة الأحوال العامة التي تتأثر تأثراً عظيماً بنوع الحكم ، إذ تتقدم الجماعات أو تتأخر تبعاً للنظام السائد إذا توخى السير بالناس إلى الأمام ، أو أهملهم واتجه شطرافة قليلة من الخلق يتعهدها وحدها ويرعاها . وهذا الأصل الثالث مشترك بين المبادئ العلوية ومبادئ الثورة الفرنسية الكبرى . ولكن علياً جاوز مبادئ الثورة الفرنسية في بعض التفاصيل الأساسية التي ترتب على هذا الأصل ، بالتفاتات عميقة سندكرها بعد حين .

ولتحدثت عن طبيعة المال كما أدركها عليّ ، وعن طبيعة صاحبه .

دلّ ابن أبي طالب العقل ، كما دلّته التجربة الواسعة والملاحظة الدقيقة ، على أن للمال شخصية قائمة بذاتها ، من شأنها أن تتسع وتمتد وتنفتح ، وألاّ تشيع من التمدّد والانتفاخ مهما تباعدت أطرافها في الجهات الستّ ومهما تراكم في جوفها ممّا ابتلعت . بل إنها تطلب المزيد أبداً حتى إذا زاد اتساعها وانتفاخها زادت حاجتها إلى غذاء جديد .

ولما كانت طبيعة المال وطبيعة صاحب المال وحدة متعاونة ، فإنّ عليّاً يتحدث عن شخصية المال متّحدة ، أكثر الأحيان ، بشخصية صاحبها بوصفه الآلة التي تُسيّرُها أصابعُ المال عندما يسعى في الامتداد والانتفاخ . يقول في معنى طبيعة المال المتّحدة بطبيعة صاحبه :

« ... فإنّ الدنيا مشغلةٌ عن غيرها . ولم يُصَبْ صاحبُها شيئاً إلاّ فتحت له حرصاً عليها ، ولَهَجاً بها ^(١) . ولن يستغني صاحبُها بما نال فيها عمّا لم يبلغه منها ! »

وأظنّ أنّ القارئ قد أدرك تمام الإدراك أنّ هذا المبدأ العلويّ في وصف طبيعة المال التي تأبى عليه أن يقف في امتداده عند حدّ ، أو أن يتقيّد بشرط ، لا يختلف في شيء ، إجمالاً وتفصيلاً ، عن القواعد العلمية الحديثة التي تتناول مسلك المال بالبحث فإذا هو ساعٍ سعيّاً جَموحاً في توسيع دائرته وتكثير عدده وتثمير نفسه .

وتثمير المال نفسه حقيقة لم يفت ابن أبي طالب أن يدركها بعقله وبراهها بعينه ، فيصوغها نصّاً يعبر عنها تعبيراً صريحاً يقول :

(١) لهجاً : ولوماً وشدة حرص . يقال : لهج بالشئ ، إذا أفرغ به فئار قلب .

« وبعضهم يحب تجميع المال » .

وهذا التجميع يعني : إتمام المال بالربح ، إذ تكون القاعدة أن يدفع المال نفسه في الأسواق المختلفة ، فيعمل حيث لا ينفع إلاّ هو ، وحيث تتضاءل لديه جهودُ الإنسان الحيّ ، فتتحاز إلى خدمته ، فينمو ويكثر حيث يبقى الناس الأحياء كما هم أو حيث يزدادون تضاضاً . ثم يُعيد المالُ القديم والجديد مجتمعين الكثرة ، فينمو نمواً جديداً ويصبح السيّد الأمر المطاع حيث تُغتصّب جهودُ الجماعات لإنمائه أيضاً . ويتابع المال دوراته على هذا الأسلوب ، ويتابع الناس جهودهم ، فإذا بواقع الحال ينكشف عن شيء تافه جامد اسمه « المال » يعلو سلطانه حتى يستبدّ بالدماء والأرواح ، وعن بشرٍ أحياء لهم نفوسٌ وقلوبٌ وأجسادٌ وعقول ، ولهم أعينٌ ترى وآذانٌ تسمع وعمرٌ قصيرٌ محدود ، ينكمشون ويذوون وتضيع عليهم فرصة الوجود !

وهكذا يأكل الجهاد الأحياء ويلتهم الموتُ الحياة !

وفي « نهج البلاغة » أيضاً هذا القول الذي وصف به عليّ طغاةَ المال أو أقزامَ الفكر والحياة : « ومن جمعَ المال على المال فأكثر ! »

وهذا المال في نهج عليّ يتداوله أصحابه من الأغنياء والاقطاعيين ويشترونه - حسب تعبيره - ليلغوا به إلى الملك والولاية على غير جهدٍ وعلى غير جدارة . وفي هذا الواقع ما فيه من غبنٍ كبير يلحق بالمجتمع ويؤذي الناس ويجمّد الحياة ويقضي على عوامل التقدم في الأحوال العامة جميعاً . يقول : « تربّت يده هذا المشتري نُصرةً غادرٍ فاسقٍ بأموال الناس ! » أمّا كيف يكون هذا المال « مال الناس » في مذهب عليّ ، فهذا ما درسناه في فصول سابقة .

وهذا المال في نهج علي يتداوله أصحابه من الأغنياء والاقطاعيين ،
ويشترونه ، ليقتنوا به المزارع والضياع التي تزيد ما لهم مالا . من جديد .
أو ليذهبوا به في ما يروق لهم من مذاهب ، وينعمون به وحدهم دون الأكثرية
الساحقة من الناس . فإذا هم يشترون به الخلق عبيداً وإماء ، ويبتنون الدور
والقصور حيث يُعوزون أو لا يُعوزون .

ما فات علينا أن هذه القصور المزهوة بما ابتلت من جهود المستضعفين .
وبما اغتصب أصحابها من حقوق الآخرين ، وبما قامت عليه من دعائم متينة
بين أكواخٍ تتداعى وتنهار ، إنما هي مظهر من مظاهر هذا المال المتمر .
المأخوذ « من غير حيلة » - أي عن طريق الاغتصاب والاستثمار - كما يقول
صادقاً . فإذا هو نظر إلى بناء فخم بناه رجل من عماله . هز رأسه وقال :

« أطلعت الورق رؤوسها ! إن البناء بصف لك الغنى (١) »

وهكذا أدرك ابن أبي طالب خاصة المال الهادفة إلى التمييز والتكثير .
سواء أكان هذا المال نقداً خالصاً أو امتلاكاً أرضٍ ومزارع وضياعٍ وقصور .
وأدرك أن هذا المال - بمظاهرة جميعاً - يدفع صاحبه دفعاً إلى أن ينهالك على
جمع كميات منه أوفر ، وإلى الاستثمار بما يجمع . لأن « من استأثر ملك »
في نهجه ، ومن ملك استأثر . وطالب المال . كما يقول علي . منهموم لا
يشبع ؛ فهو من ثم مستبر بالية عمياء من طبيعة ماله . و « إن من أعاد
مالاً - من غير حيلة - أطفاه الغنى ... فعص على ما في يديه .
وتعصب له ! »

ولا حاجة بنا الآن لأن نعود بالتفصيل على ما ذكرناه فيما سبق من إدراك

(١) الورق : الفضة .

على النتيجة المحتومة المترتبة على هذه الطبيعة الموحدة التي تجمع المال وصاحبه في دائرة من « الاستثثار والاحتكار » ، والتي سبق إليها مفكّري العالم جميعاً حتى أواسط القرن التاسع عشر ، وهي أن الاستثثار بالمال وتثميّره ، يخلقان مجتمعاً لا مساواة فيه بين الناس في الحقوق والواجبات ، فلا يُمتنع غنيّه إلا بما جاع به فقيرُه ، وما تكون فيه نعمةٌ موفورة إلاّ وإلى جانبها حقّ مضيق (١) .

ورفعاً لهذا الغبن يلحق المجتمع عن طريق الاحتكار والاستثثار وتثميّر المال ، قرّر ابن أبي طالب « أنّ الناس متساوون في الحقوق » على ما بيّناه بإسهاب ، وأنّ العمل وحده هو الأساس في تفضيل إنسانٍ على إنسان ، بكلّ مكافأة وكلّ جزاء ، و « لن يضيع أجر من أحسن عملاً » و « من يعط باليد القصيرة يُعط باليد الطويلة ! » لأنّ المجتمع خيرٌ مع أبنائه العاملين المنتجين . أمّا من يقتصب باليد القصيرة ، فيُنتزع منه ما اغتصبه بيد من حديد في مذهب عليّ . واستناداً إلى هذا المذهب الكريم كان عليّ يأخذ كلّ مالٍ وكلّ ملكٍ حصل عليه « الوجهاء » عن طرقٍ غير مشروعة ، ويجعله في بيت مال الأمّة أو يوزّعه على العاملين المنتجين وأهل العوز ممن لا يستطيعون عملاً لعجزٍ أو لعلّةٍ أخرى .

واستناداً إلى هذا المذهب الكريم أيضاً كان عليّ يأمر أصحاب البيوت بألا يأخذوا ، في بعض الحالات ، أجوراً من ساكنيها الذين لا يملكون ما يأوون إليه من مسكنٍ أو مبيت . ذلك لأن صاحب البيت المأجور في غنى عنه كمسكنٍ بدليل تأجيرِه ، والمستأجر أخ له لا يملك مبيتاً ، والمال والملك هما — أصلاً —

(١) راجع هذه الروائع العلوية الخالدة في ص ٢١٢-٢١٣ من هذا الكتاب ، ثم ما تلاه فيها بفصل « رفع الحاجة » ص ١٩٦ .

بجماعة . وعليّ يأبى الاستثمار في كلّ أشكاله ، فلم يَريد أصحاب المال - سواء أكان هذا المال نقداً أو داراً - أن يَثمروه على حساب قومٍ يُعوزُهم سكنٌ يلجأون إليه ؟ ! بعث عليّ إلى قُثم بن العباس وهو عامله على مكة يقول : « ومُرّ أهلَ مكة أن لا يأخذوا من ساكني أجرة » .

•

وأما الأصل الثالث ، وهو طبيعة الأحوال العامة المتأثرة تأثراً عظيماً بنوع الحكم ، فلا بُدَّ أني طالب أحكامٍ تؤكده وتجعله همّاً أساسياً من هموم بُناة المجتمعات القويمة السليمة .

لقد درجَ أكثرُ المشرعين القدامى ، وأكثرُ حكماء الانسانيات المتوسطة ، على تحميل الجماعات من المسؤولية فوق ما يمكنها أن تحمل في الواقع . ومما نسبوه إلى الجماعات وحدها : أحوال العمران وتفاوتها بين التقدّم والتأخر بمقياسٍ ما تنشط هذه الجماعات أو تكسل ، وبمقدار ما تُقبل على الأعمال المنتجة أو تهمل . فقالوا إنّ أهل هذا البلد ذوو كفاءاتٍ في التفكير والابداع ، وذوو نشاطٍ في العمل والانتاج ، وأصحابُ خيرٍ ومؤانسة ووداعة ، إذا هم شاهدوا فيه ما يدلّ على العمل المنتج والمبدع ، وإذا هم آنسوا لدى أهله ميلاً إلى حسن المعاشرة ورغبةً في الطمأنينة وجنوحاً إلى الأمن والسلام . وقالوا إنّ أهل ذلك البلد خاملون لا يمكنهم أن يفكروا ويُبَدعوا ، كسالى لا يعملون ولا ينتجون ، أشرارٌ لا يتحابّون ولا يُوادعون ولا رغبة لهم في العافية ، إذا هم شاهدوا فيه آثار الخمول والكسل وانعدام الكفاءات ، وأحسّوا ميلاً إلى الشرّ والمشاكسة ما بين أبنائه ! .

وعلى أساسٍ من هذه النظرة راح كثيرٌ من المفكرين ينسبون كل شرّ في المجتمعات القديمة والمتوسطة والحديثة أيضاً ، إلى الجماعة وحدها دونما

التفات إلى نوع الحكم القائم في هذه المجتمعات ، وإلى طبيعة النظام وشخصية الحاكم نفسه .

ومن الذين صوروا لنا تصويراً صادقاً هذه النظرة إلى الأحوال العامة وكيف كانوا ينسبون كل ما يؤخذ على الناس إلى الناس وحدهم دون الحكم ودون الحاكم ، الشاعر الفرنسي العظيم لافونتين الذي سخر سخريّة قاسية بأصحاب هذه النظرة ، ونسب كل قسط من المسؤولية إلى المسؤول الحقيقي ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ولا سيما في قصيدته التي يتحدث بها عن المؤتمر الذي عقدته الحيوانات للنظر في أسباب نكبة عامّة حصلت في مملكة الحيوانات .

« وقد يقرأ قارىء أمثال لافونتين فلا يتنبّه إلى ما فيها من المغازي الاجتماعية والسياسية . ثم يقرأ كتاب « هيبوليت تين » عن لافونتين فينشقّ له حجاب عالم الحيوان ، الذي يسبح فيه الشاعر ، عن عالم الانسان ، بل عن المجتمع الفرنسي في زمانه — أي في القرن السابع عشر . ويمشي القارىء في بهو مليء بالصور سمّاه « تين » معرض لافونتين ، أو متحف لافونتين ، فيرى لوحات من المجتمع الفرنسي وسياسته معروضة في أشكال من عالم الحيوان ، ووقائع رمزيّة بين طيور وبهائم . وحكاية المؤتمر العجيب الذي اجتمعت فيه الحيوانات في وقت من أوقات الوباء لتبحث سبب النكبة ، ليست إلاّ نقداً ثورياً لاذعاً سدّه الشاعر إلى الحالة الراهنة في فرنسا . وقد أسفر « المؤتمر » عن أن جميع الذنوب والآثام التي اقترفتها المخلوقات الصاعدة في سلم العجاومات كالأسد وجماعته — أي الملك لويس الرابع عشر والهيئات البلاطية — لم تكن السبب الذي جرّ النكبة ، ولكنّ قضم الحمار لبعض الحشيش من ساحة لإحدى الكنائس هو الذي جلب الويل والثبور وعظائم الأمور . وواضح أن ما عناه الشاعر بالحمار الكادح الساذج ، هو هيئات الشعب التي

عليها الغُرم ولغيرها الغُثم^(١) .

ففي هذا المثل يُظهر لنا الشاعر ، بصورةٍ غير مباشرة ، أن فساد الحُكم والحاكم قد تؤدّي إلى شرّ الأمور تصيب البلاد وتنوء على كواهل الناس ، فإذا الناسبون يعزّون أسبابها إلى غير المسؤول الحقيقي ، إلى الجماعة نفسها .

ومثّل هذه النظرة السليمة إلى بعض الوقائع وإلى المتسبّين الحقيقيين فيها ، أدركها الأديب العباسي الكبير عبدالله بن المقفع الذي راح يسطو جلود العُتاة من الحاكمين بلواذع نقده في كتابه المشهور « كلیلة ودمنة » . ففي أمثال هذا الكتاب كثيرٌ من النقد السياسي والاجتماعي الصادق الذي يرفع فيه الكاتبُ عن كاهل الجماعة كثيراً من ضروب الفساد ويعزوه إلى الحُكم الفاسد والحاكم الجائر البطير ، ولا سيما في أمثال « الفيل والقبرة » و « الأرنب والأسد » و « الملك والطائر فترة » وغيرها .

ومما لا ريب فيه أنَ قطعاً عظيماً من المسؤولية عن كلِّ خيرٍ وشرٍّ ، يقع على عاتق الجماعة . فهي قد ترضى من الأنظمة عادةً بما يؤذيها إن كانت جاهلةً ساذجة . وهي قد تدعن من الحُكّام إلى الفاسد الغيِّ إن كانت غشيمة غبية . وهذا الرضا وهذا الإذعان ليسا طبيعة مركبةٍ فيها ، وإنما هما امتدادٌ لحالةٍ من الجهل والغباء تجعل الناس أحياناً لا يعون مصلحتهم الحقيقية ولا يستشعرون خيراً بأنهم عن هذه الطريق ، أو شرّاً . وهنا بالضبط تكون مسؤولية النظام السائد ومسؤولية الحاكم متفدّ شروط هذا النظام . ومن ثمّ يكون مثلاً النظام والحاكم والجماعة . مثلاً الدواء والطبيب والمريض . فالجماعة المريضة يجهلها وعدم إدراكها ما يعالج أحوالها ، لا بدّ لها من طبيبٍ

(١) بيمض التصرف من كتاب « الفكر العربي الحديث » لرؤف خوري .

عالمٍ شريفٍ يحمل لها دواءً ناجماً لا غشٍّ في تركيبه ولا دجل في طريقة استعماله .

والذي يقع على كاهل النظام والسلطة من المسؤولية في صَوْنِ الأحوال العامة وفي توجيهها ناحية الخير ، أدركه عليّ بن أبي طالب إدراكاً مباشراً ، فعبّر عن إدراكه هذا تعبيراً مباشراً كذلك . فبالإضافة إلى ما ذكرناه في الفصول السابقة من آرائه في أن صلاح كلٍّ من الحاكم والمحكوم يرتب ، ضمن شروطٍ وحدود ، على صلاح الآخر ، نراه يخصّ ما نحن بصددّه الآن من الحديث ، بأقوالٍ كثيرةٍ يُبيّن فيها قوّة السلطة الحاكمة والنظام القائم في توجيه الناس ناحية البناء العمراني والاجتماعي والخلقي . فعليّ لا يربط كلّ أعمال الفرد بأخلاقه الخاصة ، ويمدّ تصوّره ، وبمحدود إرادته . بل يردّ منها على الفرد ما يجب ردّه عليه ، ويردّ على النظام والسلطة ما هو منبثق عنهما . وما مشورته على عمر بن الخطّاب برفع الحدّ عن الزانية المضطّرة إلا اعترافٌ صريحٌ منه بأنّ أعمال الفرد لا تُفَرِّز دائماً بناءً على إرادته الآمرة أو الناهية ، وكذلك أخلاقه . وإنّما هي مزيجٌ من هذه الإرادة والأوضاع العامة التي يوجّهها نظامٌ معيّن وتسيّرُها سلطة معيّنة .

وقد رأينا في الفصول السابقة كيف يربط عليّ بين استقامة الحكم وصلاح الناس ربطاً وثيقاً ، وكيف يجعل الكثير من وجوه الحياة العامة بكافة جوانبها المادية والمعنوية ، والكثير من وجوه الحياة الخاصة ، مشروطةً بعدل الحاكم ، وبغير القواعد التي يسير بموجبها هذا الحاكم .

بعد ذلك يعود ليقول نصّاً : « عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان » .

ولما كان السلطان ، أي صاحب السلطة ، لا معنى لوجوده في مذهب عليّ

إلا بوجود القوانين التي ينفذها عادلاً أميناً ، ولما كانت هذه القوانين ، في مذهب عليّ ، لا معنى لها هي أيضاً إلا إذا كانت لإحياء الحق وإزهاق الباطل ، وللتسوية بين الناس جميعاً في الحقوق والواجبات ، ثم للسعي من أجل خير العامة في كل سبيل ، فإن معنى العبارة العلوية يوضح لك المبدأ الذي نحن بصددّه الآن ، وهو أثر النظام وطريقة تنفيذه ، في توجيه المجتمع ناحية الخير أو ناحية الشر ، ثم المسؤولية الكبرى التي تلقى على عاتق النظام ومنفذه في كل ما يصيب المجتمع من أسباب الانحدار وفي كل ما يحويه من أسباب التقدم .

وتأكيداً لهذه القاعدة التي نراها ، بأعماقها ، قاعدة ثورية تنسجم مع سائر المبادئ العلوية المنبثقة عن العقل الصائب والنظر الحكيم ، يعود ابن أبي طالب ليُفرغ في أسماع الناس وأذهانهم هذا التذييل الذي يزيد آيته السابقة حجةً وثباتاً ، يقول : « إذا تغير السلطان تغير الزمان » . ولست أرى في المبادئ الأصول التي تضع النظام وطريقة تنفيذه موضعهما ، ما يخرج عن نطاق هذين القولين لعليّ بن أبي طالب ، بما فيهما من صراحة ، ومن إيجازٍ ضابطٍ محكمٍ يعطيها صيغة القاعدة العلمية .

•

وتكشف عبقرية ابن أبي طالب عن أصول أبعد من هذه في ما يتعلق بطبيعة الأنظمة الاجتماعية التي عرفها زمانه والأزمة التي تلتها جميعاً . وهي مما جاوز به روح الوثيقتين الفرنسية والدولية في أكثر من ناحية هامة . وفي طبيعة هذه الطابع التي أدرکها ، والتي لا يبلغ إلى تقريرها إلا صاحب عقل فذ وملاحظة دقيقة عميقة ، هذا المبدأ الذي سجل به قصة عصور الانسانية القديمة بكاملها ، وما زال يسجل قصة العصور الحديثة ، إذ قال : « ما جاع

فقيرٌ إلا بما مُتّع به غنيّ ! » وإذ قال مردفاً : « ما رأيتُ نعمةً موفورة إلاّ
والى جانبها حقّ مضيع ! »

أقول إن عليّاً ، بتقريره هذه الحقيقة ، جاوز الوثيقتين حيثُ لا نجد في
نصوصهما ، ولا في الفروع النامية على هذه الأصول ، ما يشير إليها . ولا بدّ
من تذكرك بأنّ مفكّري العصور القديمة جميعاً لم يسبق لهم أن أدركوا هذه
الطبيعة من طبائع مجتمعاتهم ، لذلك لم يذكروا شيئاً عنها لا نصريحاً ولا
تلميحاً .

وإدراك طبيعة المجتمعات التي أعني ، على هذه الصورة الفريدة ، لم يتيسّر
للمفكّرين إلاّ في أواسط القرن التاسع عشر ، على أثر نشوء النظريات العلمية
الجديدة في تفسير أحداث التاريخ وطبائع المجتمعات .

الْعِدَّةُ إِلَى الْكُونِيَّةِ

وَمَا يَمْلِكُ عَلَىٰ مِنْهَا

تَطَوُّرُ الْوُجُودِ

• وأحسَّ عليٌّ أنَّ هذا الكونَ العظيمَ متعاونٌ متكافلٌ فكان من ذلك أنَّ الريحَ إذا اشتدَّتْ حرَّكَتِ الأغصانَ تحريكاً شديداً ، وإذا أجمَلتْ قَلَعَتِ الأشجارَ وهاجَتْ لها العناصرُ ، وأنتها إذا لانتْ وجرَّتْ فَوَيَّتْ الأرضَ جرياً خفيفاً سكرتْ بها صفحاتُ المساءِ وسكنتْ تحتها الأشياءُ !

• وأدرك كذلك أنَّ قوةَ الوجودِ الشاملةِ ترعى هشيمَ النباتِ بقانونٍ ترعى به الورقَ الأخضرَ والزرعَ الذي استوى على على سَوَّيه واهتزَّ للريحِ !

• وأسقط ابنُ أبي طالبٍ نظريةَ التجارِ بقولِ تناوَلَه من روحِ الوجودِ وكأنَّه يشاركُ به الكونَ في التعبيرِ عما في ضميره !

نظرةٌ واحدةٌ يُلقيها المرءُ على الكونِ الخارجيِّ وأحواله : على النجومِ الثابتةِ في سعةِ الوجودِ والكواكبِ السابحةِ في آفاقِ الأبدِ ، وعلى الشمسِ المشرقةِ والسحابِ العارضِ والريحِ ذاتِ الزَفيفِ ، وعلى الجبالِ تَشْمُخُ والبحارِ تَقْصِفُهَا العواصفُ أو يسجو على صفحاتها الليلُ ، تكفيه لأنْ يثق بأنَّ

يكون قانوناً وأنّ لأحواله ناموساً واقعاً كلّ منهما تحت الحواسّ وقائماً بكلّ مقياس .

ونظرةٌ واحدةٌ يُلقيها المرء على ما يحيط به من الطبيعة القريبة وأحوالها : على الصيف إذ يشتدّ حرّه وتسكن ريحُه ، والخريف إذ يكتشُبُ غابُه وتتناوحُ أهواؤه وتعبسُ فيه أقطارُ السماء ، والشتاء إذ ترعد أجواؤه وتضطربُ بالبروق وتندفع أمطاره عُبَاباً يزحمُ عُبَاباً وتختلط غيومُه حتى لتُخفي عليك معالم الأرض والسماء ، والربيع يبسطُ لك الدنيا آفاقاً نديّة وأنهاراً غنيّة وخصباً ورؤاء وجناناً ذات ألوان ، كافيةٌ لأن تجعله يثقُ بأنّ لهذه الطبيعة قانوناً وأنّ لأحوالها ناموساً واقعاً كلّ منهما تحت الحواسّ وقائماً بكلّ مقياس .

ونظرةٌ فاحصةٌ واحدةٌ يُلقيها المرء على هذي وذاك ، كافيةٌ لندّته على أنّ هذه النواميس والقوانين صادقةٌ ثابتةٌ عادلة ، يقومُ منطقها الصارمُ بهذه الصفات : وفيها وحدّتها ما يُبرّر وجودَ هذا الكون العظيم !

ألقى ابنُ أبي طالب تلك النظرةَ على الكون فوعى وعياً مباشراً ما في نواميسه من صدقٍ وثباتٍ وعدل ، فهزّه ما رأى وما وعى ، وجرى في دمه ومشي في كيانه واصطخب فيه إحساساً وفكراً ، فتحرّكت شفتاه تقولان : « ألا وإنه بالحق قامت السماوات والأرض » . ولو حاولت أن تجمع الصدق والثبات والعدل في كلمةٍ واحدة ، لَمّا وجدت لفظةً تحويها جميعاً غير لفظة « الحق » . ذلك لما يتحدّ في مدلولها من جوهر الكلمات الثلاث !

وأدرك ابنُ أبي طالب في أعماقه أنّ المقايسة تصحّ أصلاً وفرعاً بين السماء والأرض اللتين قامتَا بالحقّ واستوتَا بوجوهه المتلازمةِ الثلاثة : الصدق والثبوت والعدل ، وبين الدولة التي لا بدّ لها أن تكون صورةً مصغّرةً عن

هذا الكون القائم على أركان سليمة ثابتة . فإذا به يحيا في عقله وضميره هذه المقايسة على صورة عفوية لا مجال فيها لواغل من الشعور أو لغريب من التفكير ، ثم لا يلبث أن يقول :

«وأعظم ما افترض من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية ، وحق الرعية على الوالي : فريضة فرَضَها الله لكل على كل ، فجعلها نظاماً لألفتهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا يصلح الولاة إلا باستقامة الرعية . فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه ، وأدى الوالي إليها حقها ، عَزَّ الحقَ بينهم ، واعتدلت معالم العدل وجرَّت على اذلالها السنن^(١) فصلح بذلك الزمان وطُمِعَ في بقاء الدولة . وإذا غلبت الرعية واليها ، أو أجحف الوالي برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور وتُركت محتاج السنن فعمِل بالهوى وعُطِلت الأحكام وكثرت علل النفوس ، فلا يُستَوْحَشُ لعظيم حق عُطِل^(٢) ولا لعظيم باطل فُعِل ! فهناك تذلل الأبرار وتعزَّ الأشرار وتعظم تبعات الله عند العباد ! »

وأوصيك خيراً بهذا الإحكام للروابط العامة الكبرى بين عناصر الدولة على لسان علي بن أبي طالب ، ثم بين الأعمال الحسنة المنتجة وبين ثبوت هذه العناصر على أسس من الحق ، أو قل من الصدق والثبوت والعدل : وجوه الحق الثلاثة التي تقوم بها السماوات والأرض .

وأحسن علي أن هذا الكون العظيم متعاون متكافل فكان من ذلك أن

(١) أذلال : جمع ذل - بكر الذال - وذل الطريق : محبته ، وهي جادته أي : وسطه . وجرَّت السنن أذلالها ، أي : جعلت على اذلالها ، أي : جرت كل وجوهها .
(٢) أي ، إذا عطل الحق لا تأخذ النفوس وحشة أو استغراب لتعودها لتطبل الحقوق وأنفال الباطل ولاستهانتها بما تفعل .

الريح إذا اشتدت حركت الأغصان تحريكاً شديداً ، وإذا أجملت قلعت الأشجار وهاجت لها العناصر ، وأنها إذا لانت وجرت فوثق الأرض جرياً خفيفاً سكرت بها صفحات الماء وسكنت تحتها الأشياء .

وأحسن أن الشمس إذا ألقت على الأرض نورها بدت معالم الأرض للعيون والأذهان ، وإذا خلقتها خلّت عليها من الظلمة ستاراً . وأن النبتة تنمو وتزهو وتورق وقد ثمر ، وهي شيء يختلف في شكله وغايته عن أشعة النهار وجسم الهواء وقطرة الماء وتراب الأرض ، ولكنها لا تنمو ولا تورق إلا بهذه الأشعة وهذا الجسم وهذه القطرة وهذا التراب .

وأحسن أن الماء الذي « تلاطم تياره وتراكم زخاره » كما يقول ، إنما « حمل على متن الريح العاصفة والزعرع القاصفة » . وأن الريح التي « أعصف الله مجراها وأبعد منشأها » مأمورة — على بُعد هذا المنشأ — « بتصفيق الماء الزخار وإثارة موج البحار ، تعصف به عصفها بالفضاء وترد أوله إلى آخره ، وساجيه إلى مائره ^(١) حتى يعب عبابه » . ومن زينة الأرض وبهجة القلوب هذه النجوم وهذي الكواكب ، وضياء النواقب ^(٢) والسراج المستطير ^(٣) والقمر المنير !

أحسن ابن أبي طالب من وراء ذلك جميعاً أن هذا الكون القائم بالحق ، إنما ترتبط عناصره بعضها ببعض ارتباط تعاون وتساند ، وأن لقواه حقوقاً افتترضت لبعضها على بعض ، وأنها متكافئة في كل وجوها متلازمة بحكم وجودها واستمرارها .

(١) الساجي : الساكن . والمائر : الذي ينعب ويحي . او المتحرك مطلقاً . وعبابه : ارتفع علاه .

(٢) النواقب : المنيرة المشرقة .

(٣) المستطير : المنتشر الضياء . والسراج المستطير : الشمس .

فأدرك في أعماقه أن المقايضة تصح أصلاً وفرعاً بين هذه العناصر المتعاونة المتكافئة ، وبين البشر الذين لا بدّ لهم أن يكونوا متعاونين متكافئين بحكم وجودهم واستمرارهم ، فهم من أشياء هذا الكون يجري عليهم ما يجري على عناصره جميعاً من عبقرية التكافل الذي يراه عليّ فرضاً عليهم لا يحيون إلاّ به ولا يبقون . فإذا به يلفّ عالم الطبيعة الجامدة وعالم الإنسان بومضة عقل واحدة ، وانتفاضة إحساس واحدة ، ليستشف عدالة الكون القائم على وحدة من الصدق والثبات والعدل ، مطلقاً هذا الدستور الذي يشارك به الكون في التعبير عن ضميره ، قائلاً :

« ثم جعل من حقوقه حقواً افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها متكافئة في وجوها . ويوجب بعضها بعضاً ، ولا يستوجب بعضها إلاّ بعض ! »

ومن هذا المعين أيضاً قول له عظيمٌ يقرّر به أن دوام نعمة من النعم مرهونٌ بما فُرض على صاحبها من واجب طبعي نحو إخوانه البشر . وأن عدم القيام بهذا الواجب كافٍ وحده لأن يزيلها ويُنفيها :

« مَنْ كَثُرَتْ النِّعَمُ عَلَيْهِ كَثُرَتْ الْخَوَائِجُ إِلَيْهِ . فَمَنْ قَامَ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ . وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ . »

ففي هذين القولين من التعبير عن عدالة الكون ، والناس من موجوداته ، ما لا يحتاج إلى كثير من الإيضاح . فحقوق العباد - على لسان عليّ - يكافئ بعضها بعضاً . فهي أشبه ما تكون بحقّ الماء على الريح ، والنبته على الماء ، والماء على الشمس ، والشمس على قانون الوجود . وهذه السّنة التي تفرض على الإنسان ألاّ يستحقّ شيئاً من الحقوق إلاّ بأدائه حقوقاً عليه ، ليست إلاّ

سُنَّة الكون العادلة القائمة بهذا العدل .

ولينظر القارئ في هذا الأمر نظراً سديداً ثم ليقلّ رأيه في ما رأى . فإنه إن فعلَ أدرك لا شكّ أنّ هذه القاعدة التي بلغ ابن أبي طالب بها إلى جذور العدالة الكونية ، ثابتة لا تتغيّر نفسها ولا شذوذ ينقضها .

فناصر هذا الكون لا تأخذ إلاّ بقدر ما تُعطي . ولا يكسب بعضها إلاّ ما يخسر بعضها الآخر . فإذا أخذت الأرض من الشمس نوراً ودفعاً أعطت الوجود من عمرها بقدر ما أخذت . وكذلك إذا أخذت من الليل ظلاً يغمرها . وإذا تناولت الزهرة من عناصر الكون الكثيرة ما يحييها ويُسميها ويُعطيها عبيراً ذكياً ، فلسوف يأخذ النور والهواء من لونها وعطرها بمقدار ما أعطتها ، حتى إذا تكامل انعقادها وبلغت قمة حياتها ، تعاظم مقدار ما تدفعه من عمرها ، فإذا بالحياة والموت يتنازعانها حتى تُسلم إليه أوراقها وجذعها . أمّا الأرض فتبتلع منها كلّ ما كانت قد منحتها إياه .

و البحر لا يستعيد إلى جوفه إلاّ ما أعطى السماء من غيومٍ والبرّ من أمطار .

وكذلك الإنسان في حياته الخاصة . فهو لا يحظى بلذةٍ إلاّ بفراقٍ أخرى يدفعها — قاصداً أو غير قاصد — عوضاً عما أخذ . وهو لا يولد إلاّ وقد تقرّر أنه سيموت . يقول عليّ : « ومالك الموت هو مالك الحياة ! »

وعن هذا التوازن الحكيم في قانون الكون برحابه وأفلاكه ، وارضه وسمائه ، جامداته وأحيائه ، يعبر ابن أبي طالب بهذه الكلمة التي تجمع سداد الفكر إلى عنف الملاحظة إلى عبقرية البساطة : « ولا تُنال نعمة إلاّ بفراق أخرى ! »

ولينظر الناظرون في هذا القول فإنهم إن فعلوا وثقوا بأنه الواقع الذي يرتسم كلماته هي أشبه بالقاعدة الرياضية التي لا يمكن الخروج عليها .

أما في الحياة العامة ، فليس بين شؤون الانسان شأنٌ "وإيجاد" يشذّ عن هذه القاعدة التي انترعها عليّ بن أبي طالب من مادة الكون العظيم . فحقّقك على مجتمعك هو أن يقيم هذا المجتمع ما تعطيه ، كيةً ونوعاً ، ثم أن تأخذ منه بمقدار ما أعطيت . أما إذا حصلت من المكافأة على أقلّ مما أعطيت فإن نصيبك عند ذلك ذاهبٌ إلى سواك ، وإن سواك يتمتع بخير أنت صاحبه ولا شك ، وإنك في النتيجة مغصوبٌ مظلوم . وأما إذا أخذت من المكافأة فوق ما أعطيت ، فإن نصيب غيرك منها ذاهبٌ إليك ، وإن سواك من الخلق يجمع بما أكلت ، وإنك بذلك غاصبٌ ظالم . ووجود المظلوم والظالم في المجتمع مفسّدةٌ له ومنقصةٌ في موازين العدالة الاجتماعية التي لا تستقيم إلا إذا دخلت في نطاقٍ مُريحٍ من العدالة الكونية . والبطل لا يمكن أن يكون قاعدة بل الحق هو القاعدة . و « الحق لا يبطله شيء » في قانون الكون . وهو كذلك في مذهب ابن أبي طالب .

والنظر في الساطع العظيم من مظاهر العدالة الكونية ، لم يكن ليُلهي عليّاً عن النظر في ما خفي منها ودقّ . وشأنه في ذلك شأن عباقرة الشعراء الذين تولّف دقائق الأشياء لديهم ، في المادة والمعنى ، ما تولّفه عظامهم فهم لا يفرقون فيها بين كبيرٍ وصغير . فهي بالمشأ واحدة وهي كذلك بالدلالة .

وليس للذي يبهّر الأنظار حسابٌ في عقولهم وقلوبهم يعلو على حساب ما ينزوي في المخابىء وبين الظلال . ورُبّ نظرة تُجري من الأحاسيس في كيان هؤلاء ما لا تُجره بتأبيح الكلام ! ورُبّ إشارة يُدركون فيها من

التصريح ما لا يروونه بألف إعلان ! ورُبَّ زهرةٍ في كَتَفِ صخرةٍ ينعمون
لديها من الشعور بعظمة الوجود بما لا ينعمون به لدى الدوحة العاتية . بل رُبَّ
صغيرٍ في نظرهم أجلّ من كبير ، وقليلٌ أكثر من كثير ! وأرى من الموافق
أن أذكر في هذا المجال نُتْقَةً من حديثٍ طويلٍ سَقَّته بصدَد الكلام على
موقفٍ صاحب الإحساس العظيم والفكر المحيط من الكون الذي يستوي
خفيتهُ وظاهره في الدلالة على ما فيه من جليلٍ . قلت :

« وكأنّي بهذه الطبيعة تمثل للشاعر جمالَ الحرّية التي يشتهي ، إذ تُرسل
الريحَ حين تشاء وأنتى تشاء وكيف تشاء لا يهتمّها أسخِطَ الناسُ عليها أم
رَضُوا قانعين ! وتُفجّر الينابيعَ من الصخرِ ، حين ترومُ ، ومن رَخي
التراب ، وتُجرّيها هادئةً في السهلِ أو تقذفُ بها من أعالي الجبال . وتبرزُ
من صدرها أشجاراً وصخوراً وقمماً وودياناً على طريقتها التي تريد ، لا يعينها
أن تنبتَ الزنايق إلى جانب الشوك أو تعلقَ لِبرِّ السمِّ ورداً أخضرَ العود
طيبَ الريح . ولا تنقيد بمعرفةٍ تقوم بتحقيق المشيم اليابس وتعظيم الأخضر
الفينان ، وبالسخرية من صفار الهوامِ تَطِيلُ من ثقوب الصخور ، تمجيداً
لشراسة القوي من الوحش يفترسُ الضعيف ^(١) » .

بهذه النظرة وبهذا الشعور واجهَ ابنُ أبي طالب مظاهرَ الوجود الواحد في
الطبيعتين الصامته والحية ، وأحسَّ إحساساً بديهيّاً وعميقاً معاً بأنّ قوّة الوجود
الشاملة ترعى هشيمَ النبت بقانونٍ ترعى به الورقَ الأخضرَ والزرعَ الذي
استوى على سَوّيه واهتزّ للريح . وأنها تُعنى بالفسيل ^(٢) الضئيل من
شجر الأرض كما تُعنى بالعتي من الدوح العظيم . أمّا البهيم والحشرات

(١) باختصار عن كتاب « فاغتر والمرأة » المؤلف صفحة ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) الفسيل : صفار الشجر .

والغوغاء ^(١) وصغار الطير . فإن الطبيعة لم تبذل في رعايتها نصيباً أقل ممّا تبذله في رعاية المائل من الوحش ونشر الفضاء . فلذلك لم يمنع الطودُ الشامخُ عن ابن أبي طالب رؤية الحصة وذرة التراب . ولم يفته وهو ينظر إلى الطاووس « المنضد الألوان الموشى الحُلل الضاحك لجمال سرباله وأصابع وشاحه » ، أن يلتفت إلى النملة المتواضعة الدابة في خفايا الأرض بين حطامها وحصاها ، فإذا هي في الوجود خلقٌ جليلٌ وشيءٌ كثير . وما كان عليّ بن أبي طالب ليرى في الطاووس والنملة اللذين يبسطهما النهار ، شيئاً يزيد في معنى الوجود وفي قيمته عمّا كان يراه في الخفافيش ^(٢) التي جعل لها الليلُ نهاراً وقبضها الضياءُ الباسط لكل شيء . وإنما كان يرى من غوامض الحكمة فيها ما يراه في عظام المخلوقات .

ويكفي هذا المخلوق ، في نهج عليّ ، أن يكون ذا رمتيّ - أي أن يكون حياً - لتكفل له قوة الوجود الشاملة كفلاً أساسياً ما يقبه خطر الموت قبل حينه . فإن العدالة الكونية ما أقامت حياً من الأحياء إلاّ وعدلت وجوده بما يُمسك عليه مدّة بقائه . وهذا ما يعنيه عبقرى الملاحظة الدقيقة الضابطة عليّ بن أبي طالب بقوله : « ولكلّ ذي رمتيّ قوتٌ ، ولكلّ حية آكل » .

أمّا إذا حيل بين ذي الرمتيّ وقوته ، والحبة وآكلها ، فإنّ في هذا المنع اعتداء على موازين العدالة الكونية واقتراء على قيمة الحياة ومعنى الوجود . يقول عليّ : « والله لو أعطيتُ الأقاليم السبعة على أن أعصي الله في نملة أسلبها لب شعيرة ، ما فعلت ! »

(١) البهم : صغار أولاد الضأن والمعز . الغوغاء : صغار الجراد .

(٢) راجع روايع عليّ في وصف الطاووس والخفافيش بفصل آتٍ يحتوي مختارات من أدبه .

أما الاعتداء على موازين العدالة الكونية ، فإنّ العقاب عليه قائمٌ بطبيعته هذه العدالة العامة نفسها التي تقاضي الفاعلَ مقاضاةً لا لينَ فيها ولا قسوةً ، وإنّما عدلٌ ومجازاة . ولتسوّف نعود ببعض التفصيل على هذه العبقريّة الوجودية التي كشف عنها عليّ بن أبي طالب ألفَ غطاء ، وجلّاها وأبرزَ معانيها .

ومن ثمّ كانت النظرة العلوية الجليلة إلى معنى الحياة الواحدة بكثيره وقليلها ، بكبيرها وصغيرها . فالعدالة الكونية التي وازنت بين الأحياء ورعتهم في مختلف حالاتهم وأقامت بينهم أعمالاً مشتركة وحقوقاً متبادلة وواجبات متعادلة ، لم تفرّق بين مظهرٍ من مظاهر الحياة وآخر ، ولم تأمر بأن يعتز قويٌّ على ضعيفٍ بما خُصّ به القويّ من أداة العتوّ ؛ ولم تأذن للكثير بأذى يغبى القليل حقه بما خُصّ به من صفات الكثرة . وهي من ثمّ لا تغتفر ظلم القليل بحجّة مصلحة الكثير . فالذي يغبى كائناتاً حياً في نهج ابن أبي طالب فكأنّما غيبت الكائنات الحيّة جميعاً . ومن قتل نفساً بغير حقّ فكأنّما قتل النفوس جملة . ومن آذى ذا رمقٍ فكأنّما آذى كلّ ذي رمقٍ على وجب الأرض . فالحياة هي الحياة في نهجه واحترامها هو الأصلُ وعليه تنمو الفروع .

ففي نظريات عددٍ كبير من المفكرين والمشرّعين ، وفي « آراء » معظم هذه المخلوقات التي تسمّي نفسها « رجال » سياسة ، يجوز الاعتداء على العدد القليل من الناس في سبيل العدد الكثير . وفي حساب هؤلاء ، لا يقاس الخير إلاّ بسلامة العدد الكثير ، ثم في بلوغه ما يصبو إليه من حال . فاذا قُتل بحادث اعتداء ألفٌ من الخلق ، فالأمر فظيع . وإذا قُتل ألفان فالأمر أفظع . وهكذا دواليك . أمّا إذا قُتل إنسانٌ واحد ، بمثل هذا الحادث ، فالقضية هيّة والأمر

بسيط . فإنّ دقات تجّار الأرواح عند ذاك لا يسقط منها الكثير . أمّا جداول الضرب وعمليات الجمع والقسمة ، فمن الميسور تعديلها بعملية حساب بسيطة .

أمّا ابن أبي طالب فيسحق نظريات هؤلاء التجّار ، بقول يتناوله مباشرة من روح الوجود الذي لا قيمة لديه للأرقام في معنى الحياة ، بل للحياة نفسها :

« فوالله لو لم يُصيِّبوا من الناس إلاّ رجلاً واحداً معتمدين ^(١) لقتله : بلا جرم جرّه ، لتحلّ لي قتلُ ذلك الجيش كله » .

والواضح هنا أنّ الموضوع ليس « قتل الجيش كله » بل تمكين فكرة احترام الحياة في أذهان أصحاب السلطة ، ولفّت أنظارهم إلى أنّ قتل نفسٍ واحدة . قصداً واعتماداً ، إنّما يساوي قتلُ الخلق جميعاً .

ولو أنّنا قسنا نظرة عليّ بن أبي طالب في هذا المجال بنظرات كثير من المفكرين الذين رأوا أنّ موازين العدالة لا تتحرك إلاّ بالقوّة والكثرة ، لبدا لنا كيف يندحدرون حيثُ يسمو ، وكيف يتزمتون ويغلظون حيثُ يرحبُ أفعه وتعلو على يديه قيسُ الحياة . فقيما يطلّ بعض هؤلاء ويزمرون لِمَا « اكتشفوه » من آراء ونظريات تُبيح للفويّ أن يعتزّ بقوته وحسب ، وللكتير أن تتسع آماله بهذه الكثرة وحدها — وفي كلّ ذلك اعتداء على قانون الحياة العادل ، وعلى إرادة الانسان القادرة المطوّرة الخيرة — نرى ابن أبي طالب يكشف عمّا هو أسمى بمقياس الحياة نفسها لأنّه حقيقة ، وبمقياس الارادة

(١) معتمدين : قاصدين .

الانسانية لأنه خير ، فيقول ببساطة العظيم : «رُبَّ يسيرٍ أغنى من كثير !»
ثم يوضح بقولٍ أجمل وأجمل :

« وليس امرؤٌ ، وإنْ عَظُمَتْ في الحقِّ منزلتُهُ ، بفوقِ أنْ يُعانَ على
ما حَمَلَتْهُ الله من حقِّهِ »^(١) ولا امرؤٌ ، وإنْ صَغُرَتْهُ النفوسُ واقتَحَمَتْهُ
العيونُ »^(٢) ، بدوْنِ أنْ يُعَيَّنَ على ذلك أو يُعانَ عليه ! .

وفي هذين القولين ينقل ابنُ أبي طالب للناس مظهراً من مظاهر العدالة
الكونية البادية حيثُ أُمِنَتْ النظر ، ويقرّر حقيقةً طالما خفيتُ عن العقول التي
تحصر نفسها في أضيق نطاق .

يقرّر عليّ أن المظاهر البراقة الفضفاضة ليست في حكم الواقع الوجودي
إلاّ غشّاً من الوجود تافهاً لا قيمة له ولا شأن ؛ وقد يُبهرُ بها العاديّون من
الخلق وأهل الحماقات والأغبياء والمصفتقون لكلِّ لماعٍ تافهٍ فارغ ، ولكنّ
هذا الانهيار لا يلبث أن يتلاشى فجأةً حين تطلّ شمس الحقيقة ، وحين
يكس نورُها العظيمُ ما خالّه العاديّون نوراً وهو غشٌّ للعيون ، وحين
تعصف رياحُ الوجود العادل بعصافه التبن الخفيف . ومن التاريخ والحاضر
دلائل لا تُحصى على هذا الاضطراب في المقاييس لدى الأفراد والجماعات ،
وهو اضطرابٌ يستلزم نتائج تُؤذي الحضارة والحياة والانسان لِمَا فيها من
انحرافٍ عن موازين العدالة الكونية .

فلو كنتَ تعيش في فترةٍ من العصور الوسطى بأوروبا ، مثلاً ، لشاهدتَ
في بعض أيامك مواكبَ من الناس تتلوها مواكبُ بإحدى الساحات العامة من

(١) بفوق أن يعان : أي بأهل من أن يحتاج إلى الاعانة ، أو من كان يفتنى عن المساعدة .

(٢) اقتحمت : حقرت . بدون أن يعين : أي بأهجر من أن يساعد غيره .

هذه المدينة أو تلك ، وذلك قصد التهليل والتصفيق لمخلوق من الناس مزرکش
الألبسة عاصب الرأس بالزمرّد والزبرجد والحجارة الكريمة المنظومة .
ولشاهدت رجلاً يسير على الرصيف وحيداً ، عصبي الخطوة عنيف النظرة ،
لا يعنيه أمر المهلّلين ولا يعينهم أمره . فهم يهتفون بحياة « عظيم » وهو إذ
ذاك « ليس بعظيم » . ثم أشرقت الشمس بعد زمن فطفت على الظلمة وأبرزت
الأشياء في مواضعها الحقيقية . فماذا ترى عند ذلك ؟ ترى أن هؤلاء الناس
المهلّلين المصفّقين - وهم بهذا المقام بمنزلة اللاشيء - إنّما كانوا يهتفون
لمخلوق تافه يدعى لويس الرابع عشر مثلاً . أو لنذل من الأندال يدعى
شارل الخامس ، أو لصغير كل الصغارة يدعى شارل الأول ، أو لغيرهم
ممن يحملون أسماء تليها أرقام ... دلالة على الصغارة . ثم ماذا يتّضح لك بعد
ذلك ؟ يتّضح أن رجل الرصيف الذي لم يهلّل له القوم ولم يهتفوا بحياته ،
إنّما هو عظيم حقّ يدعى مولير ، أو ملتون ، أو غالييو . وتجري الأيام .
فإذا بأصحاب الأسماء التي تليها الأرقام ، ليسوا إلاّ التفاهة كلّها . وإذا
بالمشاة على الرصيف ولا أرقام لأسمائهم . ولا مهلّلين لهم ، ليسوا إلاّ العظمة
كلّها . ويطوي النسيان التافهين ، ويطوي معهم أولئك « اللاشيء » من
المصفّقين الهاتفين . ويبرز هؤلاء على هامة الوجود ، وتُترّ لهم الإنسانية من
نفسها منازل الشمس من الظلمات . ويبرز معهم نفر قليل من الخلق هم
الذين فهموهم ، وقدروهم قدرهم العظيم . وتدقّأوا بحرارهم كما تدقّأ
الأرض بنور الظهيرة ، وأدركوا ما أدركه عليّ بن أبي طالب إذ قال : « ربّ
يسير أنمى من كثير ! »

وقد يكون نموّ هذا « اليسر » على صورة نجمم لك فكرة ابن أبي طالب
تجسيماً تدركه بجواسك الخمس كما تدركه بعقلك . فربّ بائع صحف
« صفرته النفوس واقتحمته العيون » كما يقول عليّ ، يصبح محترع الكهرباء .

ورب خادمٍ في مسرحٍ يصبح مؤلف مكبت وهملت وأوتيللو (١) .

وقد يكون تضاؤل هذا «الكثير» ممّا يدعو إلى الأسف والضحك في وقتٍ ممّا . وأودّ أن أنقل إلى القارئ صورةً تحضرنى الآن أمثل بها تضاؤل هذا «الكثير» ، وما يعني ابنُ أبي طالب بتضاؤله ، وكيف تستقيم موازين العدالة الكونية على النحو الذي يعبر عنه عملاقُ الشخصية العربية والخلق الانساني :

لنفترض* أنّ لويس الرابع عشر بُعث حيّاً في هذا العصر ، وراح بألبسته الفضفاضة في نزهةٍ بشوارع باريس ، أو في جولةٍ بين «رعاياه» . فماذا يرى وماذا يفعل ؟

يرى ، في فسحة هذا الشارع الكبير ، تمثالاً لأحد الناس . يراه من بعيدٍ لضخامته ولوقوفه في ملعب الأنظار . فيقترب منه ، ويتفحصه ، فإذا به لا يعرف صاحبه لأنه جاء بعد زمانه . فيسأل أحد المارة قائلاً : مَنْ يكون صاحب هذا التمثال الضخم ؟ فينظر المارة إلى السائل نظرة فاحصة ، وسرعان ما يعرفه بألبسته المزركشة ، وبصوّلجانه ، ثم بشعره المتدلّي على جانبيه ، فيجيبه على عجلٍ :

— هذا تمثال فولتير !

— ومن يكون فولتير ؟

— إنه أحد آباء الإنسانية العظام ، الذين أصلحوا ما أفسدتموه ، وأطلّت شمسُهم على ما تركتموه في زوايا هذه الأرض من نفاياتٍ فأحرقتموها وخلت مكانها لنبتِ الربيع وغيث السماء !

(١) كان ادسون مخترع الكهرباء ، في أول نشأته ، بائع صحف متجول . وكان شكسبير ملحفاً في مسرح النبلاء الانكليز ... قبل أن تعرف الدنيا بأنه شرف العبقرية الانسانية وقهر الحضارة .

فيطأطأىء صاحبنا رأسه ويتابع خطاه على مهلٍ وهو يرجو محدثه أن يماشيهِ :
حتى إذا بدا له تمثالٌ آخر ، سأله قائلاً :

— وهذا ؟

— هذا تمثال روستو !

— ومن يكون روستو ؟ إني لا أعرفه !

— من حقك أن تعرفه اليوم ! فهو العبقريّ الذي قضى حياته تائهاً شريداً
في مملكة أبنائك المباركة ، وفي خارجها ، حتى إذا أنهى أعماله الفكرية والفنية
العظيمة وفارق الحياة . أخذ صوته يدوي في أنحاء القارة وفي العالم أجمع ،
فيما كانت أصوات بنيك وخلفائك الملوك تضيؤل وتضع في هدبر أعاصيره
وجلجلة عواصفه . ثم ما لبثت أن عمّت فرنسا وأوروبا موجة طاغية من
أفكاره ونظرياته ، فإذا بفرنسا تنفض على حفيدك لويس السادس عشر ،
على ضوء آثار هذا العبقريّ ، وباسمه ، فتجعله هبة مشوراً وتجعل صولجانه
عكازاً في يد راعٍ من رعاة جبال الألب . وإذا بالشعوب الأوروبية جمعاء
تهندي بهدي ثورتنا الكبرى : ابنة هذا العبقري !

ويتابع لويس الرابع عشر سيره من جديد وجدائله تهتز على كتفه سخطاً
على الخلق وتعجباً من أحوال الدنيا الغادرة . فإذا به يصطدم بتمثالٍ لرجلٍ
كأنه قصف الرعد وهدبر البحر وثورة العاصفة وصوت القدر ، فيجفل وهو
الذي لم تعتد عيناه إلا رؤية الوجوه الغيبة الحالية من كلّ تعبير وكلّ قيمة ،
ويزعق بدليله قائلاً :

— وهذا ؟ من هو هذا ؟

— أخو فولتير وروستو !

— ما اسمه ؟

-- لودفيغ فون بتهوفن !

-- أو ألماني هو ؟

-- أجل ، ألماني !

-- أو أصبحتم في أرض الوطن تقيمون التماثيل للألمان ، الأعداء التقليديين

لفرنسا ؟

-- إن عقلك الفذ لا يتسع لفهم الدنيا كما هي الآن . كما أنه لا يستطيع

أن يهضم فكرة الإخاء الإنساني العميق الذي دعا إليه المفكرون الذين كنت
تضطهدهم أنت وأذنابك التافهون وخلفاؤك الأغبياء . وفيهم فولتير وروسو

وبتهوفن !

-- أو تجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة ؟

-- الحياة الصادقة المثقفة المتحضرة علّمتني هذه اللهجة ، ولا يمكنني

غيرها .

-- طيب ، أو ليس لي تماثيل بين هؤلاء ؟

-- ماذا فعلت كي يقام لك تماثيل إلى جانب العبقریات ؟

-- ألا أستحق في نظر الفرنسيين أن يقام لي تماثيل إلى جانب بتهوفن ، الألماني ؟

-- أعود بالله من الرجس !

-- أو يبادلکم الألمان هذه البادرة ؟

-- لروسو وفولتير وهيغو وغيرهم من عباقرة فرنسا ، تماثيل في شوارع

رلين الكبرى وساحاتها العامّة ! قلتُ لك إنك أعجز من أن تدرك الأساس

لجديد لعلاقات الشعوب بعضها ببعض ! والآن ، أتريد أكثر من ذلك ؟

-- أريد أن تتركني وحدي !

ويغلبه الدليل . ويسير لويس الرابع عشر في اتجاه دبر الجزويت الذين

كانوا يده اليمنى في تقبيل غير الكاثوليك من المسيحيين ، فيدخله بوقارٍ وجلال ، ويقول لرئيسه : صلي على روحي لأعود من حيث جئت ! لقد تبدلت الدنيا وتغير الناس ولم يبق لي مكان فوق الأرض .

ويصلي الجزويتي على روحه وهو ينشد نصف بيت من الشعر هو كل ما يحفظه من آثار السابقين ، قائلاً : « يا موت زُرْ ، إن الحياة ذميمة ! » ويموت !

هكذا ينمو « اليسير » الذي تحدّث عنه عليّ بن أبي طالب . وهكذا يقلّ « الكثير » . وهل من نموٍّ لليسير أنمي من هذا ؟ وهل من تضائلٍ للكثير أكثر من هذا ؟

وماذا يكمن وراء إسماء ما كان يسيراً وتقليل ما كان كثيراً ؟ ما الذي جعل من الملك الذي كان « عظيماً » كما يزعمون ، أن يتمنى الموت في أرضٍ كانت « ملكاً » له فإذا بها تضيق عن موطنه لقدميه ، وجعل من قوم آخرين عظماء تقام لهم الأنصاب ويرث اللاحقون عن السابقين شرف الاقتداء بهم وشرف تعظيمهم وتحليلهم ، فيما كانوا من « اليسير » في أنظار جيلهم ؟

إنها العدالة الكونية التي تزن كل شيء بميزانها العظيم ، وتضعه موضعه ، لا غش في ذلك ولا خداع ، ولا مجاملة ! العدالة الكونية التي لا نهون لديها ، قيمة ، ولا نعلو تفاهة !

وإن ابن أبي طالب لم يُسمَّ هذا « اليسير » يسيراً إلا لأنه هكذا كان في أنظار الناس بزمانه وفي آرائهم . ولم يُسمَّ هذا « الكثير » كثيراً إلا للعلّة ذاتها . وهو يعلم أنهم مخطئون ، وأن ما يروونه يسيراً قد لا يكون كذلك . وأن ما يروونه كثيراً قد يخفّ في ميزان الحق . أمّا هو ، فقد كان يستشعر قيمة الحياة

بقوةٍ وجلاء ، ويستشعر إمكاناتها العظيمة في جميع الأحياء ، ويستشعر أنّ
للكون إرادةً عادلة في تقييم الحياة حيث كانت ، وفي احترام الأحياء حيث
هم . فيطلق العبارات الحكيمة التي أشرنا إليها . ويطلق الكثيرات غيرها .
حتى إذا غالى المغالون وأنكروا أنّ للسير مثل هذه القيمة وهذه الإمكانيات
على النمو ، توجّه إليهم يقول : « وإنّ أكثر الحقّ في ما تُنكرون ! »

ثمّ إنّ حقيقةً أخرى يقرّها عليّ بن أبي طالب بكلمته هذه : « ... وليس
امرؤ وإن صغرته النفوس وافتحمته العيون ، بدون أن يُعين على ذلك أن
يُعان عليه » ، هي أنّ كلّ إنسان يمكنه أن ينفع مجتمعه وينتفع به ، أبةً كانت
مواهبه ، وبالغة إمكانياته ما بلغت من الضّالة .

وفي هذه النظرة إلى الانسان الضّئيل الحظّ من المواهب ، توضيحٌ لما في
خاطر عليّ من الإيمان العميق بالعدالة الكونية التي تجعل من قطرات الماء بحراً
خضماً ومن ذُرّيرات الرمال صحارى وفلوات . كما تجعل كلّ قليلٍ داخلًا
في الكثير ، وكلّ صغيرٍ مستنداً للكبير .

وفيها توضيحٌ لطبيعة الحياة الخيرة نحنو على أبنائها وتجعل كلّاً منهم في
إطارٍ من خيرها فلا تغبنه ولا تقسو عليه .

وفيها الدليل على هذا الحنان العميق الذي كان عليّ يغمّر به الأحياء فلا
يرى فيهم إلّا بشراً جديرين بأن يحبوا الحياة كلّها ، ويُفيدوا من خيرها ،
ويُعاونوا ويُعانوا .

وانّك واجدٌ صورةً لهذه النظرة العلوية الواثقة بعدالة الكون وخير
الحياة ، المؤمنة بإمكانات الانسان - أيّاً كان - على أن يكون شيئاً كريماً ،

في أدب جان جالك روسو الذي يدور حول محورٍ من الثقة بعدالة الطبيعة وخير الحياة .

وكانني بابين أبي طالب قد خصّ هؤلاء الذين « تصغرهم النفوس وتقتحمهم العيون » بالسهم الأوفر من اهتمامه ساعة خاطبَ الناس قائلاً : « إن الله لم يخلقكم عبثاً » أو ساعة أبدع في وصف ثقته بالطبيعة البشرية الخيرة مواجهةً الخلق بهذا الرأي الكريم : « وخلاكم ذمّ ما لم تشردوا . أي أنكم ، جميعاً ، خيرون ونافعون أصلاً وفرعاً ، ما لم تميلوا عن الحقّ عامدين .

وتأكيداً لثبوت هذا الجانب من العدالة الكونية في مذهب ابن أبي طالب ، وأعني به التسوية التامة في كلّ حقٍّ وواجبٍ بين من قلّ ومن كثر ، ومن صغر ومن كبر ، يشير إلى أنّ مركز هذه العدالة إنّما يتساوى لديه الجميع لا فرقَ فيهم بين إنسان وإنسان ، فصفتهم الإنسانية واحدة ، وقضيتهم بميزان الوجود واحدة كذلك ، وهم لا يتمايزون إلّا بما يعملون وما ينفعون . أمّا من عمل ونفع فإنّ قانون الوجود نفسه يُثيبه وأمّا من تبطل وبطّر واغتصب ، فإنّ هذا القانون نفسه يعاقبه بما يستحقه . يقول عليّ : « ولا يلوّه شخصٌ عن شخص ، ولا يُلْهيه صوتٌ عن صوت ، ولا يشغله غضبٌ عن رحمة ، ولا تولّه رحمةٌ من عقاب ! » .

•

وبهذا الصّدّ نعود بشيءٍ من التفصيل على ما ذكرناه من أنّ عليّ ابن أبي طالب كشف النقاب عن العبقريّة الوجودية التي تجعل من طبيعة الأشياء ذاتها حاكماً أعلى يُعطي ويمنع ويعاقب ويُثيب ، فإذا الكائنات تحمل ، بطبيعة نكوتها ، القدرة على أن تقاضي نفسها بنفسها امتثالاً لإرادة الكون العادلة :

يرى عليّ بن أبي طالب أنّ الوجود متكافئ ما نقص منه شيء هنا إلاّ
وزاد فيه شيء هناك . وكلا النقص والزيادة متساويان لا زيادة إلاّ بمقدار
النقص ولا نقص إلاّ بقدر الزيادة . وجدير بالقول أنّ النظرية القائلة بهذا
التكافؤ في أشياء الوجود ، إنّما هي إحدى النتائج الكبرى التي بلغ إليها نشاط
الفكر البشري في زحفه العظيم إلى اكتشاف أسرار الكون ، كما أنّها نقطة .
انطلاق في هذا المجال .

وجدير بالقول أيضاً أنّ عدداً من المفكرين الأوائل لم يتمكنوا من الالتفات
إلى هذه الحقيقة ، وأنّ عدداً أنكروها ، وأنّ هنالك فريقاً من هؤلاء المفكرين
رأوها وأدركوا كثيراً من تفاصيلها وآمنوا بها ودعوا إليها . وأبناء هذا الفريق
يتفاوتون هم أيضاً في قوة الملاحظة وقوة التمثيل ثمّ في قوة البيان عمّا شاهدوه
ووثقوا به . فمنهم من لحظ هذا التكافؤ في بعض مظاهر الكائنات فأعلن عن
ذلك إعلاناً فيه بعض البيان عن الحقيقة ، ومنهم من رآه في مظاهر الكون
الصامت جميعاً ولكنه لم يستشعر له نتائج محسوسة في مجرى الوجود ولم يجد
له خطأ موازياً في مظاهر الكون الحيّ . ومنهم من لحظه في الطبيعة الصامتة
واستشعر له نتائج محسوسة في مجرى الوجود ورأى له خطأ موازياً في الكائنات
الحيّة وأعلن عنه بأجلى بيان وأوثق كلام . من هذا الفريق عليّ بن أبي طالب .
بل قلّ إنه في طبيعة هذا الفريق من المفكرين الأوائل لأنه كاد يثبت هذه
النظرية على نهج سليم قويم لا يتعارض ولا يتناقض ولا مهرباً لبعضه من
بعض . بل قلّ إنّته فعل ذلك وأبدع .

ولعلّ موقف ابن أبي طالب ممّا لحظه ورآه من مظاهر التكافؤ في الوجود
أجلّ من مواقف زملائه المفكرين من الناحية العملية . وذلك بما ألح عليه
من تأكيد لهذه الحقيقة ، توصلاً إلى ما يترتب عليها من نتائج في حياة الناس

أفراداً وجماعة . وهذا الواقع ينسجم كل الانسجام مع محور الفلسفة العلوية الذي هو : الانسان .

قلنا إنّ علياً يرى الوجود متكافئاً ما نقص منه شيء هنا إلا وزاد فيه شيء هناك ، وأن هذا النقص وهذه الزيادة يتساويان لا زيادة إلا بمقدار النقص ولا نقص إلا بقدر الزيادة . فيقول أول ما يقول ، منبهاً الانسان إلى هذه الحقيقة عن طريق الصق الأشياء به ، أي عن طريق وجوده ذاته :

« ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله ! »

وهل من خاطرة في ذهن إنسان يمكنها أن تدحض هذه الحقيقة التي تعرض تعادلية الوجود بأبسط ما يراه المرء من حال الوجود ؟ ثم ، هل من قاعدة رياضية من قواعد الهندسة والجبر الصق بالحقائق الثابتة ، وأدلّ على الواقع المطلق ، وأوجز في تبيان الثابت والمطلق ، من هذه الآلة التي يصور بها ابن أبي طالب تعادلية الوجود من خلال الكائن الحي ، ومن أيامه ؟

وإذا قال لي قائل إنّ هذه الفكرة معلومة يعرفها الناس كل الناس ، فعن أية حقيقة جديدة يكشف ابن أبي طالب في زعمك إذن ، قلت : إنّ الكشف عن الحقائق الخافية لا يستلزم السكوت عن الحقائق الظاهرة إذا كانت هذه أصلاً لتلك ، أو تلك أصلاً لهذه ، أو إذا كان المنهج العام يستلزم ضبط التفاصيل سواء ما خفي منها وما ظهر . فإنّ علي بن أبي طالب الذي تتماusk آراؤه في كلّ مذهب ، ثم تتماusk مذاهبه جميعاً في وحدة فكرية رائعة ، لم يقل هذا القول « المعلوم الذي يعرفه الناس كل الناس » ، ولم يقل بمعناه قولاً أروع وهو : « نقس المرء خطاه إلى أجله » ، إلا ليعود ويبيّن على ما قاله بناءً مفصلاً في إثبات نظرية تكافؤ الوجود .

فالذي قال « لا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله » ونفس

المرء خطاه إلى أجله » ، إنما قال ذلك ليعود إلى الكشف عن حقيقة أبعد عن
أذهان الناس وأخفى عن ملاحظتهم ، ولكنها تجري من القولين السابقين :
« ولا ينال الإنسان نعمة إلا بفراق أخرى ! » .

وأراك قد استوضحت ما في هذا القول من قوة الملاحظة ، والقدرة على
الكشف ، وصراحة الفكر ، وجلاء البيان . وضبطاً لمضمون هذه العبارة في
صور وأشكال تختلف مظهراً وتتحد معنى وجوهرأ ، يقول عليّ : « كم من
أكلة منعت أكالات » و « من ضيّعه الأقرب أتيح له الأبعد » و « رب بعيد
هو أقرب من قريب » و « المودة قرابة مستفادة » و « من حمل نفسه ما لا
يُطيق عجز » و « لن يضيع أجر من أحسن عملاً » و « ما كسبت فوق قوتك
فأنت فيه خازن لغبرك » . فإن في هذه العبارات وفي عشرات غيرها ، إيجازاً
واضحاً لتفاصيل نظرية التكافؤ الوجودي كما يراه عليّ بن أبي طالب . فهي
على اختلاف موضوعاتها القريبة ، تدور في مداها ومأخذها القصي على محور
واحد من تعادلية الكون ، فلا نقص هنا إلا وتعده زيادة هناك . والعكس
بالعكس .

أدرك ابن أبي طالب هذه الحقيقة الوجودية بقوة وعمق . وعاشها ،
وأعلن عنها في كل فصل من حياته أو قول من قوله ، سواء أكان ذلك
بالأسلوب المباشر أو غير المباشر . وهو لا يدرك هذا الوجه من وجوه العدالة
الكونية إلا ليدرك وجهاً آخر يعكسه على شكل خاص ، أو قل ينبثق عنه
انبثاقاً ، وهو ما نحن بصدده من الكلام على أن الطبيعة تحمل بذاتها المقياس
فتعاقب أو تثيب ، وليس بين مظاهر العدالة الكونية ما هو أبرز من هذا
المظهر في الدلالة عليها .

رأى عليّ أن شيئاً واحداً من أشياء هذا الكون لم يوجد عبثاً ، بل إن

لوجوده غايةً وهدفاً . ورأى أن لكل من الكائنات وظيفة يقوم بها ، وأن على كل جارحةٍ من جوارح الانسان فريضةً يحتاج بها الكون العادل عليه ، ويسأله عنها ، ويحاسبه عليها . وبناءً على هذا الواقع ، تكون أشياء الوجود متساويةً بحكم وجودها . أمّا الصغيرة والكبيرة فشيئتان بهذا المقياس يقول عليّ : « ويحاسبك على الصغيرة قبل الكبيرة » . وإنما قال ذلك لأن الأكثرية من الناس لا يأبهون لـ « الصغيرة » ، فإذا به يلفت أنظارهم إلى هذه الصغيرة بتقديمها على الكبيرة في ما تستلزم من عقاب أو ثواب ، لكي يطمئن إلى حدوث عملية التسوية بينهما في الأذهان والقلوب .

أمّا إذا احتجّ الكونُ على الانسان بما فرضه على جوارحه ، وسأله عنه . وحاسبه على الصغيرة والكبيرة ، وجازاه بما عمل خيراً كان أو شراً ، فليس من الضروري في ملاحظة عليّ وفي نهجه أن تتم عملية الاحتجاج والمحاسبة والمجازاة هذه خارج نطاق الانسان نفسه . وإنّ هذه العملية المركبة ، الواحدة على ما فيها من تركيب ، لتتمّ أبداً — كما يلحظ عليّ — في حدود الكائن أياً كان . وهكذا تمّ في ما يتعلق بالانسان وهو أحد الكائنات . يقول عليّ : « إنّ عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم » . والرصد الرقيب . وهذا الرقيب لا يألو جهداً في أن يرى ويسجل ويعاقب أو يُثيب .

وفي لحظات فذةٍ من تألّق العقل المكتشف والفكر النافذ ، تبدو لعينيّ ابن أبي طالب ألوانٌ ساطعة من هذا الوجه من وجوه العدالة الكونية ، لا يسمك إزاءها إلّا أن تُعجّب بهذا العقل وهذا الفكر . أفلا ينطق ابن أبي طالب بلسان علماء العصر الحديث كما ينطق بلسان هذه العدالة نفسها ساعة يقرّر هذه الحقيقة : « من أساء خلقه عذب نفسه ! » ثمّ ، ألا ينطق بهذين اللسانين معاً إذ يقول : « يكاد المريب يقول : خذوني » وإذ يقول أيضاً :

« فأكرم نفسك عن كل دنيةٍ وإن ساقطك رغبٌ فإنك تعاض بما ابتذلت
من نفسك ! »

ومثل هذه الآيات كثيرٌ كثير . ومنها هذه الروائع : « موت الانسان
بالذنوب أكثر من موته بالأجل » و « لا مروءة لكذوب ولا راحة مع حسد ،
ولا سؤدد مع انتقام ، ولا صواب مع ترك المشورة » . و « إذا كانت في رجل
خلةٌ رائقةٌ فانظروا أخوانها ! »

•

وهكذا أدرك عليّ بن أبي طالب أن الكون واحدٌ ، عادلٌ ، ثابتٌ في
وحدته وعدله ، جاعلٌ في طبيعة الكائنات ذاتها قوةَ الحساب والقدرةَ على
العقاب والثواب . وهكذا عبّر عما أدركه أروع تعبير .

بيد أن وجوهاً غير هذه من وجوه العدالة الكونية تَفَحَّصها عليّ وضبطَ
أشكالها وألوانها . فما هي هذه الوجوه ؟

الحنانُ العَمِيمُ

• وكان شعورُ ابنِ طالبٍ بالنصر بعد القتال . آلمَ وأوجع
من شعورِ مناوئيه بالهزيمة !

• وأدرك عليّ أنَ منطقَ الحنانِ أرفع من منطقِ القانونِ . وأنَّ
عطفَ الانسانِ على الانسانِ وسائر الكائنات . إنّما هو حجةُ
الحياة على الموت ، والوجودِ على العدم !
• ولم يكن موقفُ عليٍّ من المرأة ذلك الموقف الذي صَوَّروه !

إذا كان من عدالة الكون وتكافؤِ الوجود أنْ تلتقي على صعيدٍ واحدٍ
بوارحُ الصيفِ ومُعصراتُ الشتاء ، وأنْ تَفْتَقِي في حقيقةٍ واحدةٍ السواقي
والأعاصيرُ والنسيماتُ الليناتُ الحنونُ ، وأنْ تحملَ الطبيعةُ بذاتها ، بكلِّ
مظهرٍ من مظاهرها ، قانونَ الثواب والعقاب . فمِن هذه العدالة أيضاً ومِن
هذا التكافؤِ أنْ تتعاطى قوى الطبيعة وتتداخل سواءً في ذلك عناصرُ الجمادِ
وعناصرُ الحياة . وسواءً في ذلك ما انبثقَ عن هذه أو انسلخَ عن تلك .

ولما كانت صفاتُ الانسانِ وأخلاقه وميوله وأحاسيسه مِن منشآت عناصر
الحياة التي تتحد فتؤلف ما نسميه شخصية الانسان ، فهي متعاطية متداخلة

تثبت ذلك الملاحظة الطويلة والموازنة الدقيقة ثم قواعد العلم الحديث الذي لاحظ ووازن وأرسي مكتشفاته على أسس وأركان .

وقد مر معنا أن الانسان في مذهب علي بن أبي طالب هو الصورة المثلى للكون الأمثل . ومما يُعزى إليه هذا القول بخاطب به الانسان :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فمن الطبيعي في مثل هذه الحال أن يلح علي في طلب كل ما يتعلق بالانسان مما يطاله زمانه وإمكانات عصره . ومن الطبيعي كذلك أن يلح في الكشف عما في هذا « الجرم الذي انطوى فيه العالم الأكبر » من مظاهر العدالة الكونية وتكافؤ الوجود ضمن الاطار الذي دارت آراؤه فيه .

أحسن علي إحساساً مباشراً عميقاً أن بين الكائنات روابط لا تزول إلا بزوال هذه الكائنات . وأن كل ما ينقص هذه الروابط ينقص من معنى الوجود ذاته . وإذا كان الانسان أحد هذه الكائنات ، فإنه مرتبط بها ارتباط وجود . وإذا كان ذلك - وهو كائن - فإن ارتباط الكائن بشبيهه أجدر وأولى . أمّا إذا كان هذا الكائن من الأحياء ، فإن ما يشده إلى الأحياء من جنسه أثبت وأقوى . وأمّا الانسان - رأس الكائنات الحية - فإن ارتباطه بأخيه الانسان هي الضرورة الأولى لوجوده فرداً وجماعة .

وحين يقرر علي أن المجتمع الصالح هو المجتمع الذي تسوده العدالة الاجتماعية بأوسع معانيها وأشرف أشكالها ، إنما يسن قانوناً أو ما هو من باب القانون . ولكن هذا القانون لا ينجلي في ذهنه ولا يصبح ضرورة ، إلا لأنه انبثاق طبيعي عما أسمىناه روح العدالة الكونية الشاملة ، التي نفرض وجود هذا القانون . لذلك نرى ابن أبي طالب ملحقاً شديد الالتحاق

على النظر في ما وراء القوانين وعلى رعايتها بما هو أسمى منها : بالحنان الانساني .

وما يكون الحنان إلاّ هذا التزوع الروحيّ والمادّي العميق إلى الاكتمال والسموّ . فهو بذلك ضرورةٌ خلقيةٌ لأنه ضرورةٌ وجودية .

الصفحة الأولى التي ينشرها عليّ من صفحات الحنان تبدأ بأن يذكر الناس بأنهم جميعاً إخوة فينبعثهم بـ « إخواني » نعتاً صريحاً وهو أميرٌ عليهم . ثم يردف ذلك بتذكير الولاة بأنهم إخوان الناس جميع الناس ، وبأنّ هذا الاخاء يستلزم العطف بالضرورة ، قائلاً إلى أمرائه على الجيوش : « فإنّ حقّاً على الوالي أن لا يُغيّره فضلٌ ناله ، ولا طولٌ خُصّ به ، وأنّ يزيد ما قسم الله له من نِعَمه دنوّاً من عباده وعطفاً على إخوانه » . وما يذكره لنفسه وللولاة بأنهم والناس إخوانٌ بالمودّة والحنان ، يعود فيقرّره بحكمةٍ شاملةٍ يتّجه بها إلى البشر جميعاً دون تفرقةٍ أو تمييز ، قائلاً : « وإنّما أنتم إخوانٌ ما فرق بينكم إلاّ خبث السرائر وسوء الضمائر » . وهو بذلك يضع خبث السريرة وسوء الضمير في طرفٍ . وحنان القلب ومودّة النفس في طرفٍ آخر . ولما كان من حقّ الانسان الوجودي أن ينعم بحنان الانسان ، فإنّ الطبيعة التي تحمل بذاتها القيم والمقاييس لا بدّ لها من التعويض على صالح ضيّعه الجيران والأقربون والأهل فما لقوه برداء من حنان ، بعطفٍ وحنانٍ كثيرين يأتيانه من الأبعد ، فيقول عليّ : « من ضيّعه الأقرب أتبع له لأبعد ! »

وهو في سبيل رعاية هذه الأخوة القائمة بالحنان الانساني ، لا يقبل حتى بالهتات الهينات لأنّ فيها انحرافاً مبدئياً عن كرم الحنان : « أمّا بعد . فلولا هتاتٌ كنّ فيك لكتّ المقدّم في هذا الأمر » .

وإذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يحارب
 لثأمرين به ، فإنه لا يفعل إلا بعد أن يراعي كل جوانب الحنان في نفسه
 وقلبه . وبعد أن يستشير كل روابط الاخاء البشري في نفوس مقاتليه وقلوبهم .
 وهو إن فعل في خاتمة الأمر فإنه يفعل مكرهاً لا مختاراً ، حزيناً باكياً لا
 فرحاً ضاحكاً فإذا شعوره بالنصر بعد القتال آلم وأوجع من شعور مناويله
 بالهزيمة .

وإذا كانت القوانين المتعارف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يترك المعتدين
 عليه . بعد موته ، بين أيدي أنصاره وبنيه يقاتلونهم ويقتصون منهم لضلال
 مشوا به وإليه ، فإن الرأفة بالانسان وهي لديه وراء كل قانون ، تحمله
 حملاً على أن يخاطب أنصاره وبنيه بهذا القول العظيم : « لا تقاتلوا الخوارج
 من بعدي ، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » .

وهو بعامل هذا الحنان العميق يربط سعادة المرء بسعادة جاره ، أي بسعادة
 الانسانية كلها ، لأن لجار المرء جيراناً ، وما يجوز عليه بالنسبة له يجوز عليهم
 بالنسبة لسائر الناس . ومن سعادته أيضاً أن يطغى عليه هذا الحنان فإذا بأبناء
 الآخرين يحطون منه بالعطف الذي يحظى به أبناؤه : « أدب اليتيم بما تؤدب
 به ولدك » . وأن يستشعر الجميع روح العدالة الأساسية التي تفوق القوانين
 لوضعية قيمة وجمالاً لأنها تحمل الدفء الانساني وتصل الخلق بمنطق القلب
 لا بمنطق الخضوع لقانون : « ليتأس صغيركم بكبيركم ، وليرأف كبيركم
 بصغيركم » .

وإذا كان العجز عن إتيان المكرمات نقصاً ، فإن منطق الحنان على لسان
 علي يجعل العاجز عن اكتساب أخوة الناس أكثرهم نقصاً : « أعجز الناس
 من عجز عن اكتساب الاخوان » . ويضيف علي إلى هذا العجز عجزاً آخر

هو الميل إلى المراء والخصومة قائلاً : « إياكم والمراء والخصومة » بل إن الأولى هو لين الكلام لِمَا فيه من شدّة الأواصر بين القلب : منبع الختان ، والقلب : « وإنّ من الكرم لين الكلام » . وليس بين نزعات القلب ما هو أدعى إلى الراحة من شعور المراء بأنّ له في جميع الناس إخواناً أحبّاء . فإذا تألّم ابنُ أبي طالب من سيئات زمانه ، جعلَ الحيزَ وهو آلة البقاء ، والصدقَ وهو ركيزة البقاء . ومؤاخاة الناس في منزلة واحدة . فقال في ناس زمانه : « يوشك أن يفقد الناس ثلاثاً : درهماً حلالاً . ولساناً صادقاً ، وأخاً يُستراح إليه » .

وإذا كانت الغربةُ قساوةً كبرى لأنها تستدعي الوحدة ، فإنّ أشدّها يكون ساعة يفقد الإنسان إخوانه وأحبّاءه لأنه يفقد إذ ذاك قلباً يعزّ بعطفها ويحيا بحنانها : « والغريب من لم يكن له حبيب » و « فقدُ الأحبّة غربة » .

ولا بدّ لنا أن نشير إلى موقف ابن أبي طالب من المرأة على هذا الصعيد . فالمرأة نصف الإنسان ، فهل يخلو هذا النصف من العطف على نصفه الآخر ؟ وهل النصف الآخر مدعوٌ إلى أن يجور على مقاييس العدالة الكونية القاضية بحنان الإنسان على الإنسان ؟

لقد أوّلَ الكثيرُ بعضَ أقوال عليّ في المرأة تأويلاً شاذواً به الطرافة والترفيه فوق ما شاذوا به أن يُبرزوا موقفَ عليّ منها . فألحّوا على كلماتٍ له قالها في ظروفٍ كان أبرز ما فيها عدااء امرأةٍ معيّنةٍ له وهو لم يُسئ . ولم يأمر إلاّ بمعروف . وفاتهم أنّ مثل هذه الأقوال الخاضعة لظرفٍ محدودٍ بذاته ، والرامية إلى إيضاح الأسباب في صراعٍ بين عقليتين مختلفتين كلّ الاختلاف ، إنّما قال في بعض الرجال أشدّ منها وأقسى . وهو بذلك لا يعني الرجال قاطبةً وفي كلّ حالاتهم . كما أنه ، حين أطلق تلك الأقوال في المرأة ، لم يكن ليعني

النساء قاطبة وفي كل حالاتهن . فإن مسببى الولايات التي ألمت به وبالحير
عن طريقه ، تعرضوا لمثل هذه الأقوال سواء أكانوا رجالاً أو نساءً لمن قوة
الرجال ونفوذهم . وهو إن هاجم هؤلاء وهؤلاء من نساء ورجال . فإنما
كان يهاجم فيهم مواقف معينة وقفوها من الحق والعدل وأصحابهما . وفي
ذلك ما ينفي الادعاء بالإساءة إلى المرأة من قبل علي . وإنتي لأسأل من
يعنيهم الأمر أن يوافقني بكلمة واحدة يسيء بها علي إلى المرأة ولم تكن
موجهة إلى إنسان معين في ظرف معين ، أو من وحي هذا الإنسان في هذا
الظرف ! لقد هاجم المرأة عندما تكون سبباً في الفتنة ، وهاجم الرجل في مثل
هذه الحال . فهو بذلك يهاجم الفتنة وحسب !

أما موقف علي من المرأة كإنسان . فهو موقفه من الرجل كإنسان . لا
فرق في ذلك ولا تمييز . أوليس في حزنه العميق على زوجه فاطمة وقد توفيت .
دليل على إحساسه بقيمة المرأة كإنسان له كل حقوق الإنسان وعليه كل
واجباته . وفي أساس هذه الحقوق والواجبات أن يتنعم بالحنان الانساني
ويُنعم به الآخرين ؟

أولم يكن الناس في الجاهلية وبعد الجاهلية يتفأفئون بمولد الذكر ويفرحون
ويتشاءمون بمولد الأنثى ويحزنون !

أولم يكن موقف الفرزدق تعبيراً عن نظرة عصره إلى المرأة ، وهو عصر
متصل بزمان ابن أبي طالب ، ساعة ماتت زوجته ، وكان يحبها على ما
زعموا ، فقال فيها هذا القول العجيب :

وأهونُ مفقودٍ ، إذا الموتُ نالَه
على المرءِ من أصحابه ، من تفتنَا
أي أن أهونَ فقيدٍ على المرءِ من أصحابه ومعارفه فقيدٌ يلبس القناع :

ويريد به المرأة . فالمرأة في قلبه وعلى لسانه لا تستحق أن تبكى ولا أن يحزن عليها . لماذا ؟ لا لشيء إلا لأنها امرأة !

وعليّ . ألم يكن من أبناء ذلك الزمان ؟ ولكنه كان أنفذهم تفكيراً وأشرفهم نظراً وأعظمهم إحساساً . فقال في جملة ما قال بهذا الشأن متلوّماً على أصحاب تلك العقلية الرعناء : « وإنّ بعضهم يحبّ الذكور ويكره الإناث الخ » . إذن . فالذكور والإناث بمنزلة واحدة عند عليّ تجمعهم صفة الانسان وحسب .

أضف إلى ذلك أنّ عليّاً الذي يعطف على الناس عموماً وعلى الضعفاء خصوصاً . يفرض على الخلق الكريم أن يكون أشدّ حناناً على المرأة لأنها مستضعفة إن لم تكن ضعيفة ، فيقول : « وانصروا المظلوم وخذوا فوق يد الظالم المريب وأحسنوا إلى نساءكم » . ويقول في مكان آخر : « أمركم بالنهي عن المنكر والإحسان إلى نساءكم » .

ويتابع ابن أبي طالب حلقات هذا الملك المتماusk في دعوته إلى أن يلتفت الناس جميعاً . ثم الناس وسائر الكائنات . بدفء الحنان ، فيقول في العلم - وقد عرفنا قيمة العلم في مذهبه - : « رأس العلم الرفق » . وهو لا يرى في كثرة الذنوب ما يهول أكثر من أنها مدعاة إلى القسوة بحكم تعودها ، ومن ثمّ فهي سبب في نفور باردٍ يحلّ في القلوب محلّ حنانٍ دافئ ، فيقول : « ما جفّت الدموع إلا لقسوة القلوب ، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب ! » وإذا لم تكن من أهل الذنوب فأنت من أهل الحنان ومن حقلك أن تبذل - بهذا الحنان - كلّ ما تملك لنصرة أخيك الانسان : « فإن كنت من أخيك على ثقة فابذل له مالك ويدك . وأعنه . وأظهر له الحسن » .

وأخيراً يُطلقُ عليّ مجموعة من الأقوال تدور في مدار الدعوة إلى تفاني
الناس في الناس عطفاً وحناناً . وهي تُعتبر بحقّ من أسمى ما يملكه الانسان
من تراث خلقيّ عظيم . ومنها هذه الروائع : « صلّ مَنْ قطعك وأعطِ مَنْ
حرّمك . أحسن إلى جميع الناس كما تحب أن يُحسن إليك . أحسن إلى مَنْ
أساء إليك . عودوا بالفضل على من حرّمكم الخ ... »

وإنجازاً لهذه الدعوة الكريمة يُشرك ابنُ أبي طالب البهائمَ والبَقاعَ والناس
في حقّها مشرّكاً في الحنان فيقول : « اتّقوا اللهَ في عباده وبلاده فإنكم
مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم ! »

وهكذا فإنّ عطف الانسان على الانسان وسائر الكائنات إنّما هو حجة
الحياة على الموت . بل هو إرادةٌ من إرادة الوجود العادل !

صِدْقُ الْحَيَاةِ

• الكذّاب والميت سواء ، لأنّ فضيلة الحيّ على الميت الثقة به . فإذا لم يوثّق بكلامه فقد بطلت حياته .

عليّ

• وهذا الصدقُ عهدٌ منك وعليك ، لأنّه روحُ الجمالِ والحقّ ، وإرادةُ الحياةِ القادرةِ الغلابةِ !

لعلّ أبرز مظاهر العدالة الكونية ، في عالمِ الجمادِ وعالمِ الحياة . وفي كلّ ما يتصل بطبيعة الوجود وخصائص الموجودات ، هو الصدقُ الخالصُ المطلقُ . فعلى الصدق مدارُ الأرض والفلك والليل والنهار . وبالصدق وحدةُ تتلاحق الفصولُ الأربعة ويسقط المطرُ وتسطع الشمس . وبه كذلك تفي الأرضُ بوعدها حين تُنبئ ما عليها كلّاً في حينه لا تقديم ولا تأخير . وبه تقوم نوااميس الطبيعة وقوانين الحياة . والرياح لا تجري إلّا صادقة ، والدماء لا تطوف العروق إلّا بصدق ، والأبناء لا يولدون إلّا بقدور صادق أمين .

هذا الصدقُ الخالصُ المطلقُ الذي تدور عليه قاعدةُ البقاء ، هو النبوعُ الأوّل والأكبر الذي تجري منه عدّةُ الكون وعليه تعود !

ولمّا كان عليّ بن أبي طالب شديد الملاحظة لصدق الوجود ، شديد التفاعل معه ، فقد جعل من همّة الأول في الناس تهذيب الناس استناداً إلى ما يعقل ويحسّ ويرى . والتهذيب في معناه الصحيح ومدلوله البعيد ليس إلاّ الاحساس العميق بقيمة الحياة وشخصية الوجود . ولمّا كان هذا المعنى هو المعنى الأوحد للتهذيب العظيم . كان الصدق مع الذات ومع كلّ موجودٍ ماديّ أو معنويّ ، هو المحور الذي يدور عليه التهذيب ، كما رأينا محور العدالة الكونية . وبذلك ينتفي من التهذيب السليم كثيرٌ من القواعد التي تتّواط عليها البشرُ دونما نظرٍ في نوااميس الوجود الكبرى . وهم يحسبون أنّها قواعد تهذيبية لمجرّد اتفاقهم عليها . وبذلك أيضاً ينتفي من التهذيب السليم كلّ ما يخالف روح الحقّ وروح الخير وروح الجمال . والتهذيب على غير أصوله الكبرى تتّواطُ سطحيّ على الكذب القبيح . وهو على أصوله البعيدة إحساسٌ عميق بالصدق الجميل . ممّا يجعله اندماجاً خالصاً بثوريّة الحياة الجارية الفاتحة .

لذلك كان مدار التهذيب عند ابن أبي طالب . حماية الانسان من الكذب ، أو قلّ حمايته وهو حيٌّ من برودة الموت !

وحماية الانسان من الكذب تستوجب أوّل الأمر تعظيم الصدق نصّاً مباشراً في كلّ حال ، وإبرازه ضرورةً حيّاتيّةً لا مفرّ منها لكلّ حيٍّ ، وتوجيه الناس نحوه أفراداً يخلّون إلى أنفسهم أو يعيشون جماعات . وفي هذا الباب يبرز عليّ بن أبي طالب عملاقاً يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشير إلى ما يجهلون ، ويعمل ما لا يستطيعونه الآن ويريدهم أن يستطيعوه . يقول عليّ : « إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها واجعلوا اللسان واحداً » . وتهزيع الشيء تكسره . وتصريفه قلبه من حالٍ إلى حالٍ . يريد بذلك تذكير

الصّادق بالخطر الذي يتعرّض له صدقه إنْ هو كذب ولو مرّة واحدة فالصادق إذا كذب مرّة انكسر صدقه كما ينكسر أي شيء وقع على الأرض مرّة واحدة . وكذلك النفاق والتلون فهما لونان من ألوان الكذب . ويقول أيضاً : « وكونوا قوماً صادقين . واعملوا في غير رياء . وأعزّ الصادق المحقّ وأذلّ الكاذب المبطل . واصدّقوا الحديث وأدّوا الأمانة وأوفوا بالعهد من طلب عزّاً يبطل أورثه الله ذلاًّ بحقّ . إنْ كنت صادقاً كافيتك وإن كنت كاذباً عاقبتك . إنْ من عدم الصدق في منطقته فقد فُجع بأكرام أخلاقه . ما السيف الصارم في كفّ الشجاع بأعزّ له من الصدق » . وما هذه الآيات في الصدق إلّا نماذج عن مئات أخريات يؤلف ابنُ أبي طالب بها أساسَ دستورهِ الأخلاقي العظيم .

ثم إليك هذه الروائع التي يكثر في نسجها نصيبُ العقل المراقب النافذ الواعي . يقول : « الكذب يهدي إلى الفجور » . ولنا بحاجة إلى الإسهاب في إظهار ما تخفي هذه الكلمة من حقيقة نجرّ وراءها سلسلة لا تنتهي من الحقائق . كما أننا لسنا بحاجة إلى الإسهاب في تصوير ما تشير إليه من حقيقة نفسية لا تزيدها الأيام إلّا رسوخاً . ومثل هذه الآية آيات منها : « لا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل ، ولا أنْ يعيد أحدكم صبيته ثم لا يفي له ! » أمّا المعنى الذي يشير إليه الشقّ الأول من هذه الآية العلوية ، فقد كان موضوع جدلٍ كبيرٍ بين فلاسفة الأخلاق ولا سيما الأوروبيين منهم . والواقع أنّ هؤلاء أجمعوا على أنّ الصدق حياة والكذب موت . غير أنهم اختلفوا في هل يجوز الكذب في حالة الضرورة أم لا ؟ فمنهم الموافق ومنهم المخالف . ولكلّ من الفريقين حجته . وقد تعرّض لهذا الموضوع في الشرق قومٌ لبسوا فلاسفة ولبسوا مفكرين . وغدا من مباحث العاديتين من أصحاب الأقلام . فإذا بالشيخ

ناصريف اليازجي يرى رأيه في الموضوع : فيقول في مجمع البحرين بلسان بطل مقاماته :

والصدق إنْ أَلْصَاقُ تَحْتَ الْعُطْبِ لَا خَيْرَ فِيهِ فَاعْتَصِمْ بِالْكَذِبِ
بِمِثْلِ هَذَا كَانَ بُوَصِينِي أَبِي

رحم الله أباه ما أقبح هذه الوصية ، وما أثقلها على العقل والقلب والحياة جميعاً . أما عليّ بن أبي طالب فيقف من هذا الموضوع الذي تثيره عبارته موقفاً ينسجم مع مذهبه العظيم في الأخلاق – هذا المذهب الذي نعود ونذكر القارئ بأنه منبثق عما أحسّه ورآه من عدالة الكون الشاملة ، فيقول غير متردد : « علامة الإيمان أنْ تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك . وأن لا يكون في حديثك فضلٌ عن عملك ! » ومن الواضح أن ابن أبي طالب لا يرى في الكذب ما ينفع ولا في الصدق ما يضرّ أية كانت المناسبة . بل إنسه يرى العكس تماماً . ولكنه يخاطب قوماً بحسب بعضهم – بنظرهم السطحيّ للأُمور – أنْ في الكذب ما قد ينفع وأنْ في الصدق ما قد يضرّ . فيتحدث إليهم في نطاقٍ من مدى تصوّره ليلبغ كلامه منهم مبلغاً ذكياً . وتأكيداً لذلك يقول عليّ : « عليك بالصدق في جميع أمورك » . ويقول أيضاً : « جانبوا الكذب فإنّ الصادق على شفا منجاة وكرامة ، والكاذب على شفا مهواة وهلكة ! »

أما المعنى الذي يذكره الشقّ الثاني من العبارة : « ولا أنْ يعيد أحدكم صبيته ثم لا يفي له » فالتفاته عظيمة إلى حقيقة تربويّة تقرّرها الحياة نفسها ، كما تقرّرها الأصول النفسية التي ينشأ عليها المرء ويتدرّج . ويكفيك منها هذه الإشارة إلى أنّ الطفل يربّى بالمثل لا بالنصيحة . وهذا الرأي هو محور فلسفة جان جاك روسو التربويّة ! كل ذلك نعمةٌ من نِعَمِ الصدق مع الحياة في مذهب عليّ !

ومن روائعه التي يشير بها إلى الرابطة الوثيقة بين الصدق والحياة ، وبين الكذب والموت ، وإلى أن الصدق هو ناموس الطبيعة القائم ولا حقيقة إلا به ، هذه الكلمة الفريدة : « الكذاب والميت سواء ، لأن فضيلة الحي على الميت الثقة به ، فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته ! »

والصدق مع الحياة يستلزم البساطة وينفر من التعقيد . لأن كل حقيقة بسيطة بمقدار ما الشمس ساطعة والليل بهيم . وتديلاً على هذه البساطة الدافئة لأنها انبثاق عن الصدق ، نقول إن ابن أبي طالب كره التكبر لأنه ليس طبعاً صادقاً بل الكبر هو الصدق . فإذا بالمتكبر لديه شخص يتعالى على جبلته ذاتها ، فيقول : « ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه » . وهو في الوقت نفسه يكره التواضع إذا كان مقصوداً فإنه عند ذلك لا يكون طبعاً صادقاً بل الشعور بأن الإنسان مساوٍ لكل إنسان في كرامته هو الصدق . لذلك يخاطب من يقوده تواضعه إلى أن يذل نفسه قائلاً : « إياك أن تتذلل للناس » . ثم يردف ذلك بقول أروع : « لا تصحب من لا يرى لك من الفضل عليه مثل ما ترى له من الفضل عليك ! »

وإني لا أعرف في مبادئ المحافظين على كرامة الإنسان كإنسان لا يتكبر ولا يتواضع بل يكون صادقاً وحسب ، ما يفوق هذه الكلمة لابن أبي طالب أو ما يساويها قيمة إلا قول ابن أبي طالب نفسه : « الإنسان مرآة الإنسان ! » ومن أقواله الدالة على ضرورة أخذ الحياة أخذاً بسيطاً : « ما أقيح الخضرع عند الحاجة والجفاء عند الغنى . الثناء بأكثر من الاستحقاق مَلَقٌ والتقصير عن الاستحقاق عيبٌ أو حسد . ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضىها لنفسه فذلك الأحمق بعينه . لا تقل ما لا تعلم . لا تعمل الخير رياءً ولا تتركه حياءً . يا ابن آدم ، ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازنٌ لغيرك . لا ينصت

للخير ليفخر به ، ولا يتكلم ليتجبر على من سواه . مَنْ حمل نفسه ما لا يُطبق عجز . لا خير في معين مهين » . ومنها كلمته الرائعة لرجلٍ مدّحه تملّقاً وقد أوردناها في مكانٍ سابقٍ من هذا الكتاب . وكأنّي بآبن أبي طالب لا يترك جانباً ممّا وعاه فكرُهُ وشعوره من أمور الحياة والانسان إلّا أطلق فيه رائعةً تختصر دستوراً كاملاً . وهذا ما فعله ساعة شاء أن يوجه الناس إلى أخذ الحياة أخذاً صادقاً بسيطاً ، فقال هذه الكلمة الدافئة بعفوية الحياة : « إذا طرّقك إخوانك فلا تدّخر عنهم ما في البيت ، ولا تتكلّف لهم ما وراء الباب ! » .

•

وإذ يفرغ عليّ من حديثه الكثير الدائر حول ضرورة الصدق مع الحياة بصورةٍ مباشرة ، ثم حول البساطة التي لا يكون صدقٌ بدونها ولا تكونَ بغير صدق ، يواصل طريقه في ميادين التهذيب التي تتلازم في مذهبه وترباط حتى لكأنّها صورةٌ عن كلّ موجودات الكون ، والتي يظلّ الصدقُ مدارّها الأوّلَ وإن تناولتُ وجوهاً أخرى من وجوه الأخلاق . فيوصي بأن يتغافل المرء عن زلاتٍ غيره فإنّ في ذلك رحمةً من المتغافل وتهذيباً للمسيء بالسيرة والمثل أبلغ من تهذيبه بالنصيحة أو بالبغضاء ، يقول : « من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم » . كما يوصي بالحلم والأناة لأنهما نتيجةٌ لعلوّ الهمة ثمّ مدرّجّةٌ لكرم النفس : « الحلم والأناة توأمان ينتجهما علوّ الهمة » . ويكره الغيبة لأنها مذهبٌ من النفاق والاساءة والشرّ جميعاً : « اجتنب الغيبة فإنّها إدام كلاب النار » . والحديعة مثل الغيبة وكلتاها من خبث السرائر : « إياك والحديعة فإنّها من خلق اللئام » . وكما رأى أنّ كذبةً واحدةً لا

تجوز لأنّ الصديق ينكسر بها ، يرى أنّ كلّ ذنبٍ مهما كان في زعم صاحبه خفيفاً قليل الشأن إنّما هو شديدٌ لأنه ذنبٌ ، بل إنه أشدّ وقعاً على كرامة الانسان إذا استخفّ به صاحبه ، من ذنبٍ عظيمٍ عاد مقرّفه إلى الرجوع عنه في الحال : « أشدّ الذنوب ما استخفّ به صاحبه » . وبهذا عليّ عن التسرع في القول والعمل لأنه مدعاةٌ إلى السقوط وعلى الانسان المذهب ألاّ يُبيح نفسه لأية سقطة : « أنهارك عن التسرع في القول والعمل » . وهو يريدك أن تعتذر لنفسك من كلّ ذنبٍ أذنبت إصلاحاً لحلقك ، ولكنه ينبهك تنبيهاً عبقرىً للملاحظة والبيان إلى أنّ الانسان لا يعتذر من خير . فعليه إذن ألاّ يفعل ما يضطرّه إلى الاعتذار : « إيتاك وما تعتذر منه فإنه لا يُعتذر من خير » . ومنعاً للاشتغال بعيوب الناس وإغفال عيوب النفس ، وفي ذلك ما يدعو إلى سوء الخلق والمسلك سلباً وإيجاباً ، يقول عليّ : « أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله » و « من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره » . وإذا أتى التبيح من مصدرٍ عليك أن تذكره أولاً ، فإن لم نستطع ذلك تحتّم عليك ألاّ تستحسنه لئلاّ تصبح شريكاً فيه : « من استحسن القبيح كان شريكاً فيه » . وإذا كان التعاطف بين الناس ضرورةً أخلاقيةً لأنه ضرورةٌ وجودية على ما مرّ معنا في الفصل السابق ، فإنّ منطقي العقل والقلب يأمر بأن يكون عطفك على من أنطقك وأحسن إليك أكثر وأوسع . وفي ذلك يقول عليّ : « لا تجمعن ذنباً لسانك على من أنطقك وبلاغة قولك على من سددك » . ثم يقول : « وليس جزاء من عظم شأنك أن تضع من قدره ، ولا جزاء من سرك أن تسوءه » .

ويهاجم الحرص والكبرياء والحسد لأنها سبيلٌ إلى الاتخار الحلقى :
« الحرص والكبر والحسد دواعٍ إلى التحقّن في الذنوب . وإذا كان الأخلاقيون القدماء يذمّون البخل فلأنه في نظرهم صفةٌ مذمومةٌ لذاتها . أمّا عند ابن أبي

طالب الذي يرصد الأخلاق بنظرةٍ أشمل وفكرٍ أعمق ، فالبخل ليس مذموماً لذاته بقدر ما هو مذموم لجمعه العيوبَ كلها ، ولدفعه صاحبه إلى كلِّ سوءٍ في الخلق والمسلِك ، وهذا ما قرّره في القرن السابع عشر الشاعر العظيم مولير في مسرحيّة « البخل » وما قرّره علماء النفس متأخّرين . فالبخل منافقٌ ، معتدٌ ، مغتابٌ ، حاسدٌ ، ذليلٌ ، مزورٌ ، وقحٌ ، جشعٌ . أنايٌ ، غير عادل . يقول عليّ : « البخل جامعٌ لمساويء العيوب ! »

ويطول بنا الحديث ويتّسع إذا نحن شئنا أن نورد تفاصيل مذهب ابن أبي طالب في الأخلاق وتهذيب النفس ، فهي كثيرةٌ لم تترك حركةً من حركات الانسان إلاّ صورّتها ووجّهتها . وإذا قلتُ إن مثل هذا العمل طويلٌ واسعٌ شاقٌ فإنّي أعني ما أقول . وما على القارئ إلاّ أن يطّلع على المختارات التي أخذناها من أدب ابن أبي طالب في خاتمة كتابنا ، حتى يثق بأنّ المجلّدات قد تضيق عن دراسة مذهبه في الأخلاق وتهذيب النفس ، وعمّا تستوجبه هذه المختارات من شرحٍ وتعليق . ويكفي أن نشير إلى أنّ هذه الروائع العلويّة من أشرف ما في تراث الانسان ، ومن أعظمه اتّساعاً وعمقاً .

على أنّه لا بد لنا الآن من التلميح إلى آية الآيات في التهذيب العظيم بوصفه إحساساً عميقاً بقيمة الحياة وكرامة النفس وكمال الوجود . وإنّ نقرأ قليلاً من المتفوقين كبودا والمسيح وبتهوفن وأشباههم هم الذين أدركوا أنّ آية هذا التهذيب إنّما تكون في الدرجة الأولى بين الانسان ونفسه . ولا تكون بين الانسان وما هو خارجٌ عنه إلاّ انبثاقاً بديهيّاً طبيعيّاً عن الحالة الأولى . وقد أدرك ابنُ أبي طالب هذه الحقيقة إدراكاً قوياً واضحاً لا غموض فيه ولا إبهام . وعبر عنها تغييراً جامعاً . يقول عليّ في ضرورة احترام الانسان نفسه وأعماله دون أن يكون عليه رقيب : « إنّقوا المعاصي في الخلوات » .

ويقول في المعنى ذاته : « إِيَّاكَ وَكُلَّ عَمَلٍ فِي السِّرِّ يَسْتَحْيِ مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ . وَإِيَّاكَ وَكُلَّ عَمَلٍ إِذَا ذُكِرَ لِمَالِكِهِ أَنْكَرَهُ » . وإليك ما يقوله في الرابطة بين السرِّ والعلانية ، أو بين ما أسمىناه « آيَةُ الْإِنْتِزَابِ » وما أسمىناه « انْتِشَاقًا » عنها : « مَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ أَصْلَحَ اللَّهُ عِلَانِيَّتَهُ » .

ومن بدائع حكيم الصين كنفوشيوس في تهذيب النفس هذه الكلمة : « كُلُّ عَلَى مَائِدَتِكَ كَأَنَّكَ تَأْكُلُ عَلَى مَائِدَةِ مُلْكٍ » . وجليُّ أنه يريد منك أن تحترم نفسك احتراماً لا مزيد عليه حتى ليجدر بك أن تتصرف - حين تخلو إلى نفسك كما تتصرف وأنت بين يدي ملك . ومثل هذا المعنى يقوله عليّ بن أبي طالب على هيئة جديدة : « لِيَتَرَبَّنَ أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ كَمَا يَتَرَبَّنَ لُغْرِبٍ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَرَاهُ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَةِ ! »

وهو يريدك في كلِّ حالٍ أن تعيظ أهلك لتعينه في الانتقال من حَسَنِ إِلَى أَحْسَنِ فِي الْخُلُقِ وَالذُّوقِ وَالْمَسَلِكِ . ولكنَّ روح التهذيب الأصيل يأبى عليك أن تجرحه أو تؤذيه بنُصْحِهِ عَلَنًا ، بل إنَّ هذا الروح يَأْضِيْ عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ لَيْتًا رَفِيقًا فَلَا تَنْصَحُ إِلَّا خَفِيَّةً وَلَا تَعِظُ إِلَّا سِرًّا . يقول عليّ : « مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ شَانَهُ » .

وآيَةُ كانت حالك فعليك أن تصدق مع نفسك والحياة والناس . فهذا الصدق تحيا وبغيره تهلك . وبه تحفظ سلامةَ روحك وقلبك وجسدك . وبغيره تفقدها . وبالصدق تُحِبُّ وتُحَبُّ ويوثق بك ، وبغيره تجلب لنفسك المقتَ والكراهية والسبَّاتِ جميعاً ويرذلُ الناسُ نافعاً حقيراً . وهذا الصدق عهدٌ منك وعليك لأنه إرادة الحياة القادرة الغالبة وهي إرادةُ تقضي عليك بأنْ تنظر في عهدك كلَّ يوم . وابنُ أبي طالبٍ يقول : « عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَنْظُرَ كُلَّ يَوْمٍ فِي عَهْدِهِ ! »

خير الوجود وثورته الحياة

• ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلاّ قال له : أنا يومٌ جديد :
وأنا عليك شهيد . فقلّ في خيراً واعمل خيراً فإنك لن
تراني بعد أبدي !

عليّ

• لتشدّ ما رأيتاه يجعل ثورته الحياة كلّاً من خير الوجود ،
وخير الوجود كلّاً من ثورته الحياة !
• وقالت الثور : أنا الهادمة البانية !

وليس من حقّ الوجود العادل إلاّ أن يكون خيراً كريماً . وليس من
طبيعته إلاّ العطاء وهو لا يأخذ ما يعطيه إلاّ ليعود إل بذله طيباً جديداً .
وخير الوجود كيان من كيانه وجوهر من جوهره . وعهد عليّ به هو
هذا العهد . وإحساسه بخيره هو إحساسه بعدله لا بقل ولا يزيد . وعلى ذلك
تحدّث عن هذا الخير فأكثر الحديث وقد روينا من أقواله في خير الوجود
شيئاً غير قليل . ولعلّ ما روينا من تلك الروائع الصادقة نستطيع تلخيصه
الآن بكلمة قالها وكأنه يوجز بها مذهبه المؤمن بخير الوجود : • وليس الله بما

سُئِلَ بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلْ . فإذا عرفنا أن لفظه « الله » تعني في أقصى ما تعنيه عند القدماء من أصحاب الأصالة الذهنية والروحية : مركز الوجود والروابط الكونية ، عرفنا أي خيرٍ شاملٍ عميم هو خير الوجود الذي يمنحك ما تسألُ ضمن شروطٍ ، ثم يعطيك فوق ما تسأل ، ثم يزيد !

ولمّا كان الانسان الذي يحسب أنه جرمٌ صغير ، ممثلاً لهذا العالم الأكبر على ما يقول ابن أبي طالب . فلا بدّ أن يكون هو أيضاً صورةً عن الوجود بخيره كما هو صورةٌ عنه بعدله . فإذا أعطاك الوجودُ فوقَ ما تسأله من خيره ، يكون قد بدّأك لحاجةٍ في طبيعته إلى أن يكون خيراً . وإذا كنتَ صورةً عنه ، فأنتَ أحوَجُ إلى اصطناع الخير من أهل الحاجة إليه . وهذا ما يؤكده عليّ بقوله هذا : « أهل المعروف إلى اصطناعه أحوَجُ من أهل الحاجة إليه ! » وهذا ما يؤكده أيضاً في عبارةٍ يرجع إليها كلما تحدّث عن اصطناع الخير بين الناس : « والفضل في ذلك للباديء » .

وإذا نتقل إلى النظر في الخير ومعناه على صعيد العلاقات بين الناس ، أمكننا أن نُجري آراء ابن أبي طالب ، في المجاري التالية :

أولاً . الخير بين الناس يكمن في أن يتعاونوا ويتساندوا ، وأن يعمل واحدُهم من أجل نفسه والآخرين سواءً بسواء ، وألاّ يكون في هذا العمل رياءٌ من جانب هذا ولا إكراهٌ من جانب ذاك. لكي « يُعمَلَ في الرغبة لا في الرهبة » على حدّ ما يقول عليّ ، ثم أن يضحّي بالقليل والكثير توفيراً لراحة الآخرين واطمئنان الخلق بعضهم إلى بعض ، وأن تأتي هذه التضحية بمبادرةٍ لا بعد سؤالٍ ولا على بعد قسْرٍ وإجبار . وكلّ ما من شأنه أن ينفع ويفيد ، سواءً أكان ذلك على صعيدٍ ماديٍّ أو روحيٍّ ، كان خيراً .

ثانياً . يرى عليّ "أنّ الخير لا يأتي قولاً بل عملاً" . لأنّ الانسان يجب أن يكون واحداً كالوجود الواحد . وأن يساند بعضه بعضاً وفاء لهذه القاعدة ، فإن قال فعل ، وإن فعل قال . ومن روائع ابن أبي طالب كلمة قالها في رجل يرجو الله في أمرٍ ولا يعمل من أجل هذا الرجاء : « يدعي برعته أنّه يرجو الله ! كذبٌ والعظيم ! ما باله لا يتبين رجاءه في عمله . فكلّ مَنْ رجا عُرِف رجاءه في عمله ! » أمّا إذا عملتَ خيراً ، فلا بأس عند ذاك أن تقول خيراً : « قلْ خيراً وافعلْ خيراً ! »

ثالثاً . يفسح عليّ في المجال أمام قوى الخير لأن تنطلق أبعد ما يكون الانطلاق ، وذلك بأن يجعل قبول التوبة عن الشرّ قاعدةً يُعمل بها . فإذا أُثِمَ المرءُ مسيئاً إلى الآخرين ، فإنّ في التوبة باباً يلج منه جديدٌ إلى عالم الخير إذا شاء . يقول عليّ : « إقبل عذر من اعتذر إليك . وأختر الشرّ ما استطعت » . ويعرف التاريخ مقدار الإساءة التي لحقت بعليّ عن طريق أبي موسى الأشعري . ويعرف كذلك أنّ عليّاً لا ينزع إلاّ عن مذهبه أبنةً كانت الظروف والصعوبات . لذلك فراه يبعث إلى أبي موسى قائلاً : « أمّا بعد ، فإنّك امرؤ ضلّك الهوى . واستدرجك الغرور . فاستقل الله بِقِلِّكَ عَثْرَتِكَ . فإنّ مَنْ استقال الله أقاله ! »

رابعاً . يؤمن عليّ بأن قوى الخير في الانسان تتداعى ويشد بعضها بعضاً شداً مكيناً . فإذا وُجد في إنسان جانبٌ من الخير فلا بدّ من ارتباطه بخوابٍ أخرى منه . ولا بدّ من ظهور هذه الجوانب عند المناسبات . وفي هذه النظرة إشارةٌ صريحة إلى أنّ الوجود واحدٌ متكافئٌ عادلٌ خبيرٌ سواء أكان وجوداً عامّاً كبيراً . أو وجوداً خاصّاً مصغراً يتمثل بالانسان : « إذا كان في رجل خلّة رافقة فانتظروا أخوانها ! »

خامساً ، ومثل هذه العدوى الخيرة بين الخلال الراققة . عدوى مماثلة تنتقل من الخير إلى الشرّ بين الناس والناس : « جالسٌ أهل الخير تكن منهم ! » و « أطلبوا الخير وأهله » .

سادساً ، الإيمان العميق بأنّ في طاقة الانسان أيّاً كان أن ينهج نهج الخير ، وأنّه ليس من إنسان أجدر من إنسان آخر بهذا النهج : « ولا يقولنّ أحدُكم إنّ أحدًا أولى بفعل الخير مني ! »

سابعاً ، على المرء ألا يستكثر من فعل الخير كثيراً . بل إنّ ما يفعله من خير يظلّ قليلاً مهما كان كثيراً لأنّ في الاكتفاء بقدرٍ من الخير جحوداً بخير الوجود العظيم وإنكاراً لطاقة الانسان الذي ينطوي فيه العالم الأكبر . يقول عليّ في أهل الخير : « ولا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ^(١) » .

ثامناً ، لا بدّ من الإشارة إلى النظرة العميقة التي يليقها عليّ* على مفاهيم النزوع الانساني ما يجعل الناس ، كلّ الناس ، في نعيم .

فإذا نحن نظرنا في آثار معظم المفكرين الذين أعاروا شؤون الناس اهتمامهم رأينا أنّ لفظة « السعادة » هي التي تردّد في هذه الآثار ، وأنّ مدلول هذه المفظة إنّما ، هو بالذات ، مدار أبحاثهم وغاية ما يريدون . أمّا عليّ فقد استبدل بلفظة « السعادة » هذه ما هو أبعد مدّى ، وأعمق معنى ، وأرحب أفقاً . وأجلّ شأنًا في ما يجب أن تتصف به الطبيعة الانسانية ونصبو إليه . لقد استبدل بـ « السعادة » هذه ، لفظة « الخير » فما كان يوجّه القلوب إليها بل إليه . لأنّ في السعادة ما هو محصورٌ في نطاق الفرد ، ولأنّ الخير ليس محصورٌ في مثل هذا النطاق . فالخير إذن أعظم ! ثمّ إنّ الخير يحتوي السعادة

(١) مشفقون : خائفون من التقصير فيها .

ولا تخويه . فهو أشمل ! أضف إلى ذلك أن بعض الناس قد يسعدون بما لا يشرف الانسان ، وأنهم قد يسعدون بما يؤذي الآخرين ، وأنهم قد يتشفهون ويترهلون وهم يحسون أنهم بذلك سعداء . أمّا الخير فهو غير السعادة إذ يكون معدنها هذا المعدن . فهو السعادة مشوّطة بسعادة الناس جميعاً . وهو الرضى عن أحوال الجسد والعقل والضمير ! لذلك أكثر عليّ من استخدام هذا اللفظ في دعوته الحارّة إلى كلّ ما يرفع من شأن الانسان !

ولم أعثر في آثار ابن أبي طالب على لفظة « السعادة » إلاّ مرّة واحدة . ولكنّه لا يخرج بمعناها الذي يقصد عن مفهوم الخير بما يحملها من حدوده ومعانيه . أمّا العبارة التي وردت فيها لفظة « السعادة » فهي هذه : « من سعادة الرجل أن تكون زوجته صالحة وأولاده أبراراً وإخوانه شرفاء وجيرانه صالحين ورزقه في بلده » . فانظر كيف ربط سعادة المرء بسعادة المحيطين به من افراد عائلته ، ثمّ بسعادة إخوانه وجيرانه جميعاً . بعد ذلك ناط سعادة هذا الرجل بسعادة بلاده مستنداً إلى أنها بلادٌ تُنتج الرزقَ لجميع أبنائها وهو واحدٌ منهم !

تاسعاً . إنّ خير الوجود وخير الانسان يستلزمان . بالضرورة . الثقة بالضمير الانساني ثقةً تجعله حكماً أخيراً في ما يضرّ وينفع . ولنا في هذا الموضوع رأيٌ نفضله نقول :

من روائع ابن أبي طالب ما يخاطب به العقل وحده . ومنها ما يخاطب به الضمير . وأكثرها ممّا يتوجه به إلى العقل والضمير مجتمعين . أمّا تلك التي يخاطب بها العقل . فقلّ إنتها الغاية في الاصابة ، وإنتها نتيجة محتومة لنشاط العقل الذي لاحظ ودقق وتمرس بخير الزمان وشره ، وعرف من التجارب كلّ ما يكشف له عن الحقائق ويجلبها ، فإذا هي مصوغة على قواعد هندسية

ذات حدودٍ وأبعادٍ لشدة ما ترتبط بالحقائق : ومُظهِرةٌ في أروعِ إطارٍ
فني لشدة ما ترتبط بالجمالية التعبيرية ، مما يجعلها ، من حيث المادة والشكل .
في اصول الأدب الكلاسيكي العربي .

وفي هذا النوع من الحكم الموجهة إلى العقل ، نرى علياً يصوّر تاركاً
للناس أن يحكموا بما يرون . فيأخذوا إذا شاؤوا أو يتركوا . لذلك لا نرى
في هذا النوع من الحكم صيغَ الطلب ، إنما نرى حكماً صيغتْ بقالبِ
خبريٍّ خالصٍ جرّد من صوّر الأمر والنهي جميعاً . حكماً تتباور فيها
طبائع الصديق والعدوّ . والمحسن والمسيء . والأحمق والعاقل ، والبخيل
والكريم . والصادق والمنافق ، والظالم والمظلوم . والمعوز والمتخمّ . وصاحب
الحقّ وصاحب الباطل . ومنهزم الخلق السليم والخلق السقيم ، وشؤون
الجاهل والعالم ، والناطق والصامت ، والأرعن والحليم ، وصفات الطامع
والقانع ، وأحوال العُسر واليُسْر ، وتقلّبات الزمان وما لها من أثرٍ في
أخلاق الرجال ، وما إلى ذلك من أمورٍ لا تُحصى في فصلٍ أو باب .

أما تلك التي يخاطب بها الضمير ، والعقل والضمير مجتمعين ، فإليك ما
هي وما حولها :

من الثابت أنّ الذين رأوا في الأنظمة والتشريعات وحدّها سلامة الانسان
وكفاية المجتمع ، قد أخطأوا خطأً عظيماً . فإنّ هذه الأنظمة والتشريعات
التي تعلن عن حقوق الانسان وتأمّر برعايتها والمحافظة عليها ، لا يضبطها في
النتيجة . كما لا يُخلص في اكتشافها وابتدائها ، إلاّ عقلٌ سليمٌ ونفسٌ
مهذّبة وضميرٌ راقٍ . فإنّ دنيا الناس هذه يرتبط كلّ ما فيها ، ضمن
حدودٍ معيّنة طبعاً ، بأخلاق القيمين على دساتيرها وانظمتها ، وبمدى
الخير الذي يتّسع في نفوسهم أو يضيق ، بقدر ما يرتبط بضمير الجماعة التي

تؤلف ميدانَ هذه الأنظمة والديساتير وتبرّر وجودَها . هذا . مع الاعتراف بأنّ الأنظمة الاجتماعية الحديثة تتفاوتت تفاوتاً عظيماً في سماحها للقيمين عليها بمسايرتها أو بالخروج عليها . وذلك بحكم طبيعتها وبنسبة ما تحويه أصولها من إمكانيات التنفيذ ، أمّا الأنظمة والديساتير القديمة . فقد كانت أكثر تأثراً بأخلاق القيمين عليها المشرفين على إقامة ما تقتضيه من حدود . ولذلك أسبابٌ ليست من موضوع حديثنا هذا .

وبالرغم من أنّ الأنظمة والتشريعات الصالحة من شأنها أن توجه الناس وتفرض عليهم ما يؤدي إلى نفعهم فرضاً . فإنّ هذا التوجيه وهذا الفرض يظلّان خارج حدود القيمة الانسانية إن لم يوافقهما العملُ التابعُ من الوجدان بالذات . وفي مذهبنا أنّ كلّ عملٍ يأتيه الانسان . لا بدّ أنّه فاقدُ الدفء الانساني . وهو أئمنٌ وأعظم ما يوافق الصنيعَ الانساني . إن لم يحمل وهجَ الضمير وعبقَ النفس وإرادةَ العطاء على غير قسْرٍ وإكراه . ولا تنجح الأنظمة والتشريعات في إقامة العلاقات الانسانية إلاّ بمقدار ما يمكنها أن تتوجّه إلى العقل والضمير فتقنعهما بالخير ، فتخلق الانسجام الرائع بين إتاحة الفرصة للعمل النافع وإرادة العامل في وحدةٍ تكفل للفرد ، ثم للجماعة ، الصعودَ في طريق الحضارة .

وما يصدقُ ، بهذا الصدّد ، في نطاق الأفراد والجماعات ، بصدقٍ كذلك في تاريخ المفكرين والمشرّعين والعلماء والمكتشفين ومن إليهم . فإنّك لترى ، إذا أنت استعرضت تاريخ هؤلاء الذين خدموا الانسان والحضارة ، أنّ العقل الذي دلتهم على الطريق الصحيح في كلّ ميدان ، لم يكن وحده في تاريخهم ، فالعقل بارد ، جاف ، لا يتعرف إلاّ إلى الأرقام والأقسام والوجوه ذات الحدود . فهو لذلك يدلك على الطريق ولكنّه لا

يشدك إلى سلوكه ولا يدفعك في سهله ووعره . أمّا الدافع ، فالضمير السليم والعاطفة الحارة . فما الذي حمل ماركوني على العزلة القاسية والانفراد الموحش الكئيب ، إن لم يكن الضمير الذي يحسن له الانصراف عن مباحج الحياة إلى كتابة الوحدة ، في سبيل خدمة الانسان والحضارة ؛ وإن لم يكن العاطفة التي تحيط هذا الضمير السليم بالحرارة والدفء فلا يفتر أبداً .

وما يقال في ماركوني يقال في باستور ، وغاليليو ، وغاندي ، وبنهوفن ، وبودا ، وأفلاطون ، وغيتي ، وفي غيرهم من أصحاب المركب الانساني القريب من الكمال .

والدليل الإيجابي على هذه الحقيقة يستتبع دليلاً سلبياً لزيادة الإيضاح . فهذا أدولف هتلر ، وجانكيز خان ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وقبصر بورجيا بطل كتاب « الأمير » المشؤوم لمكيافيل ^(١) ، وبعض علماء الذرة المعاصرين الذين يوافقون على تجربتها على الآدميين ؛ ألم يتميز هؤلاء جميعاً بعقول واسعة ومدارك قد تهون أمامها مدارك الآخرين ؟ ومع ذلك ، فما كان من شأنهم إلاّ التقتيل والتدمير والاعتداء على مقدّسات الحضارة ومخلّفات الجهود الانسانية ، وعلى كرامة الحياة والأحياء وخير الوجود ؟! ذلك لأنّ

(١) مكيافيل : نابتة ايطالي عاش في عصر الرسام العظيم رافاييل ، وكان صديقاً له ومعيناً . وقد دفعه عقله الفذ وخلقه الكريم إلى مهاجمة أساليب الظلم والبربرية عند حكام التاريخ ، فألف كتابه الشهير « الأمير » الذي يصف فيه وقاحة أولئك الحكام ، وشخصياتهم المتبذلة ، بطريقة غير مباشرة إذ دفع إلى الناس صورة عن شخصية الأمير الذي يخلو من كل ضمير وكل عقل وكل ذوق ويلجأ لثقي وسائل العنف في التقتيل والترويع والتشريد وسائر الفظائع تنبيهاً لمركزه ... مشيراً إلى أن أمارات التاريخ والمصر الذي هم فيه أمّا « تركزت » على هذا الاسلوب السمج . وقد أخذ مكيافيل صفات « الأمير » في كتابه هذا من شخصية قيصر بورجيا ابن البابا اسكندر بورجيا ، صاحب المظالم المعروفة . ويطلق على المبدأ القائل بالجوء إلى هذا الاسلوب توصلاً إلى الحكم ثم إلى تركيزه ، اسم المكيافيلية ، نسبة لمكيافيل صاحب الكتاب .

عقولهم لم نواكبها الضمائر السليمة والعواطف الكريمة ! فحيث لا ضمير ولا عاطفة ، لا نفع من العقل ، بل قُلْ إنه إلى المضرة أقرب !

ولا أريد هنا التفصيل بين مختلف قوى الانسان من عاطفة وضمير وعقل وما إليها ، فهي ولا شك تتفاعل وتعاون . غير أن ما أردته بالعقل هو القوة التي تعقل الأمور على صعيد يربط السبب بالنتيجة ويحكم بين العلة والمعلول ، فيدور في نطاق من الأرقام والحدود التي لا تتأثر ، بحد ذاتها . بالبيئة الانسانية الخاصة والعامة . وعلى هذا الضوء أجزت هذا التفصيل .

إذن ، فالعقل المكتشف لا بد لصاحبه من ضمير وعاطفة يدفعانه في طريق الخير . وما يصح بهذا الشأن في المشرع يصح في المشرع له . فالأفراد الذين يُطلب إليهم أن يسروا على هذا النظام الخير أو ذاك ، لا بد لهم من اقتناع وجداني ، إلى جانب الاقتناع العقلي المجرد ، يدفعهم في طريق التهذيب الانساني الرفيع ، لبناء المجتمع الصالح . لا بد لهم من التمرس بالفضائل الأخلاقية التي تحيط بالأنظمة التشريعات بحصون رفيعة منيعة . لا بد لهم من أن يكونوا خيرين !

لذلك راح عليّ يحرك في الأفراد عواطف الخير على ما رأينا وما سوف نرى ، ويوقظ فيهم ما غشته الأيام من الضمائر السليمة . ويعمل على إنعاشها وينصح برعايتها .

توجه عليّ إلى الضمائر بتوصياته وخطبه وعهوده وأقواله جميعاً . لأنه لم يفت أنه لتهذيب الخلق شأناً في رعاية النظم العادلة ، وفي بث الحرارة في المعاملات بين الناس . ولم يفت . كذلك . أن هذا التهذيب يُطلب لذاته بما هو من القيم الانسانية ، كما يُطلب لحماية العدالة الاجتماعية وسُنتها بما هو

ضبطاً لنوازعٍ وتوجيهاً لأخرى . وقد ساعده في ذلك ما أوتي من مقدرةٍ خارقةٍ ينفذ بها إلى أعماق الناس أفراداً وجماعات ، فيدرك ميولهم وأهواءهم ، ويعرف طباعهم وأخلاقهم ، فيزنُ خيرها وشرها ، ثم يصوّر ويطوّر ، ويأمر وينهي ، على ضوء ثقته الهائلة بالضمير الإنساني الذي يتوجه إليه

كانت ثقة ابن أبي طائب بالضمير الإنساني ثقةَ العظماء الذين تألفَ فيهم العقل النير والقلب الزاخر بالدفع الإنساني : النابض بالحُب العميق الذي لا يعرف حدوداً .

كانت ثقته بهذا الضمير ثقةَ بوذا وبتهوفن وروسو وغاندي وسائر العظماء الذين مدّهم القلبُ بنورٍ يخبو لديه كل نور . وعلى أساس هذه الثقة أرسى ابنُ أبي طالب حكمه وأمثاله . وعلى أساسها ترابط الأفكار والتوجيهات التي يخاطب بها وجدانات الناس .

وإذا كان للامام عليّ مثلُ هذه الثقة بنواحي الخير في الناس ، على ما مُني به على أيديهم من نكبات وفواجع ، فإنه يأبى إلا أن يلقى بذور هذه الثقة في قلوبهم جميعاً . فهو يعرف « أن في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وكذباً وصدقاً » . ولكن الأولى بالمرء أن يفتح عينيه وقلبه على نواحي الخير هذه . فعلتها هي التي تنمو دون نواحي الشر . ولعلّ التعليم بالمثل والسيرة يكون أجلاً وأجدى . وقد طالما كرّر عليّ وصاياه بضرورة هذه الثقة بالضمير الإنساني ، وفي جملة ما يقوله : « مَنْ ظَنَّ بِكَ خيراً فصدق ظنه » . ويقول في مكان آخر : « لا تظنن بكلمة خرجت من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً » و « ليس من العدل القضاء بالظن على الثقة » و « إذا استولى

الصلاحُ على الزمان وأهله ثم أساء رجلُ الظنِّ برجلٍ لم تظهر منه خزيّةٌ ،
فقد ظلم » و « أسوأ الناس حالاً مَنْ لم يثق بأحدٍ لسوء ظنه . ولم يثق به أحدٌ
لسوء فعله ! »

وقد أخطأ دارسو الامام عليّ ساعة رأوا أنه متشائمٌ بالناس شديد التشاؤم ؛
متبرّمٌ بهم كثير التبرّم . وساعة احتجّوا لرأيهم هذا بأقوالٍ له يهاجم بها أبناء
زمانه بشدةٍ وعنّف . أمّا رأينا نحن فعلى العكس من ذلك تماماً . رأينا أنّ
عليّاً لم ينقضْ ثقتَه بالانسان ساعةٍ واحدةٍ وإنْ نقَضَها ببعض الناس في بعض
الظروف . فمنّ عرف طاقة ابن أبي طالب على احتمال المكاره تأتبه من الناس .
وجلّده العجيب في مقاساة الأهوال الناجمة عن الغدر والخيانة والفجور في
الكثير من أخصامه وأنصاره . ثم ما كان من أموره معهم جميعاً إذ يأخذهم
بالرفق والعطف ما أمكنه أن يرفق وأن يعطف . أقول : مَنْ عرف ذلك
أدرك أنّ عليّاً عظيماً التفاؤل بحقيقة الانسان . وبفطرته التي أضلّتها المجتمع
في بعض أحواله . لا يختلف في ذلك عن أخيه العظيم روستو .

وإذا كان له في ذمّ أهل الخيانة والغدر والظلم قولٌ كثير . فما ذاك إلا
لأنه يعترف . ضمناً . أنّ الانسان ممكناً لإصلاحه ولو طال على ذلك الزمن
فإنّ المتفائل وحده الذي يزجر المسيء كما يُثيب المحسن أملاً منه بتقويم
الاعوجاج في الخلق والمسلك . ولو لم يكن لابن أبي طالب مثل هذا الامل .
لما استطاع احتمال ما لا يُحتمل من مكاره الدهر التي جرّها عليه المسيئون .
ولما صبر على ما يكره ! وهو إن قال في الدنيا وأهلها : « فإنما أهلها كلابٌ
عاوية وسباعٌ ضارية ، يهرّ بعضها بعضاً ، ويأكل عزيزُها ذليلُها . ويهجر
كبيرُها صغيرَها » ، فإنما يقول ذلك لأنه قاسى من غدر الغادرين وفجور
الفاجرين ما آلمه وآذاه . فوبّخهم هذا التوبيخ الموجه إثارةً منه لمن لا يفجر

ولا يغدر ولا يكون كلباً عاوياً ولا سبعا ضارياً ولا عزيزاً يأكل ذليلاً أو كبيراً يقهر صغيراً ! يقول ذلك ثم يحارب السبع الضاري والعزير الظالم والكبير الجائر كما يحارب الطبيب الجراثيم إثارة منه لسلامة البدن والروح : بل إثارة منه للحياة على الموت ، وتفاؤلاً بحسن النجاة !

إذن ، فالإمام عليّ ، وهو الذي يحترم الحياة : أعظم ما خلق الله ، ويحترم الناس الأحياء : أجمل نماذج هذه الحياة ، عظيم الثقة بالخير الانساني . عظيم التفاؤل بالإنسان يريده حراً كما يجب أن يكون !

ولولا هذه الثقة وهذا التفاؤل لما كان من أمره مع الناس ما كان ، ولما قال : « لا تظننّ بكلمة خرجت من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً ! » ثم لما توجه إلى الضمير الفردي والجماعي بوصاياه التي تجمع عمق الفهم وحرارة العاطفة إلى سمو الغاية ونبل المقصد . هذه الوصايا التي أرادها حصناً منيعاً للأخلاق العامة ، والعطف الانساني . وتركيز العمل النافع على أسس الإيجابية في العقل والضمير . واستناداً إلى هذه الثقة بالضمير الانساني ، وتحصيناً للعمل الخير الشريف . نراه ، وقد رأيناه ، يُقيم على الناس ، في خاتمة كل حساب ، أرصاداً من أنفسهم وعيوناً من جوارحهم فيخاطبهم قائلاً : « اعلموا أن عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحفاظة صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم ! »

°

واستناداً إلى هذه الثقة بخير الوجود وعدله ، وإلى عظمة الحياة والأحياء ، يخاطب عليّ بن أبي طالب أبناء زمانه بما يوقظهم على أن الحياة حرة لا تُطبق من القيود إلا ما كان سبباً في مجراها وواسطةً لبقائها وقبساً من ضيائها وناموساً من نواميسها . وأنها لا يطيب لها البقاء في مهد الأمس . فعليهم ألا يحاولوا

غلّتها وتقييدها وإلاّ أسيئتُ وانقلبت إلى فناء . فالحياة جميلة ، كريمة .
حرّة : خيرة كالوجود أبيها ، تحفظ نفسها بقوانينها الثابتة لا بما يريد لها
المتشائمون من قوانين .

وهي متجدّدة أبداً ، متطوّرة أبداً ، لا ترضى عن تجدّدها ونطوّرها
بديلاً وهما أسلوبٌ تنهجه في فتوحاتها التي تستهدف خيراً أكثر وبقاءً أصْلح .
وملاحظةُ ابن أبي طالب الدقيقة العميقة للحياة ونواميسها وهي أعظم موجودات
الوجود الخيّر ، مكّنتُ في نفسه الايمانَ بثوريّة الحياة المتطلّعة أبداً إلى الأمام .
المتحرّكة أبداً في اتجاه الخير الأكثر . وثوريّة الحياة أصلٌ تحرّكها
وسببُ تطوّرها من حسنٍ إلى أحسن . ولهذا كانت الحياة حرّة غير مقبّدة
إلاّ بشروطٍ وجودها . وثوريّة الحياة أصلٌ تحركَ المجتمع الانساني وسببُ
تطوّره . ولولا هذه الخاصّة لكانت الحياة شيئاً من الموت والأحياء أشياء
من الجماد .

آمن ابنُ أبي طالبٍ بثوريّة الحياة إيماناً أشبه بالمعرفة ، أو قلّ هو المعرفة .
فترتّب عليه إيمانٌ عظيمٌ بأنّ الأحياء يستطيعون أن يصلحوا أنفسهم وذلك
بأن يماشوا قوانين الحياة . ويستطيعون أن يكونوا أسياد مصائرهم وذلك بأن
يخضعوا لمعقريّة الحياة . وقد سبق أن قلنا في حديثٍ مضى إنّ ثوريّة
الحياة ألصقُ مزايا الحياة بها وأعظمها دلالةً على إمكاناتها العظيمة . وهي
تستلزم من المؤمنين بها أن يعملوا على أساسٍ من الثقة المطلقة بالتطوّر المحتوم .
وأن يبتسّوها الخواطر إليه ، وأن يستخدموا الدليلَ والبرهان في زجرِ المحافظين
عن كلّ تصرفٍ غيبيّ يوهّم أصحابه أنهم يستطيعون الوقوف في وجه الحياة
الناثرة المتطوّرة بثورتها .

بهذه الثقة وبهذا الايمان خاطب ابنُ أبي طالب الانسانَ بقوله : « فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم علّمت ، وما أكثر ما تجهلُ من الأمر ، ويتحيرُ فيه رأيك ، ويضلّ فيه بصرُك ، ثم تبصره بعد ذلك ! » ففي هذا القول اعترافٌ بأن الحياةَ متطورةٌ ، وأنّ التعلّمَ إنّما هو الانتفاعُ بما تحزن الحياة من عبقيتها في صدور أبنائها ، على ما قلنا سابقاً . وفيه إيمانٌ بالقابلية الإنسانية العظيمة إلى التقدّم ، أو قُلْ إلى الخير . وما دعوته الحارة إلى المعرفة التي تكشف كلَّ يومٍ عن جديدٍ ، وتبني كلَّ يومٍ جديداً ، إلا دليلٌ على الايمان بثورية الحياة الخيرة وإمكانات الأحياء . فالمعرفة لديه كشفٌ وفتحٌ لا يهدآن .

وهو بهذا الايمان وهذه الثقة يخاطب أبناء زمانه يقول : « لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم . فإنّهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم » . فلولا تفاؤله العظيم بأنّ في الحياة جمالاً ، وبأنّ في الناس بليّة التطور إلى الخير ، له لما أطلق هذا القول الذي يوجز علمه بثورية الحياة ، ويوجز نفاؤله بإمكانات الانسان المتطور مع الحياة . كما يوجز روح التربية الصحيحة ، ويخلص كلَّ جيلٍ من الناس من أغلال العُرف العادة التي ارتضاها لنفسه جيلٌ سابق .

ولابن أبي طالب في هذا المعنى قولٌ كثيرٌ . « هذه الآيات الخالدة التي يجتد بها العمل بوصفه حقيقةً وثورةً وخير : « مَنْ أبطأ به عمله لم يُسرّع به حسبه » و « قيمة كلِّ امرئ ما يحسن » و « اعلموا أنّ الناس أبناء ما يُحسنون » و « لكلِّ امرئ ما اكتسب » .

ومن أقواله ما يدفع به المرء إلى أن يطلب تقدّم بالعمل ، وألا يُحجم أو يراجع إذا هو أخفق كثيراً أو قليلاً ، لأذ الوجود الخير لا يحرم أبناءه

مَا يَسْتَحِقُّونَ . وَإِذَا هُوَ حَرَّمَهُمْ فَبَعْضَ الْحَرَامِ لَا كُلُّهُ . وَقَدْ يُسَوَّى الْأَمْرُ فِي دَفْعَةٍ ثَانِيَةٍ مِنَ الطَّلَبِ بِوَسْطَةِ الْعَمَلِ . وَمِنْ قَوْلِهِ فِي ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ : « مَنْ طَلَبَ شَيْئًا نَالَهُ أَوْ بَعْضُهُ » . وَأُظُنُّ أَنَّ الْقَارِئَ انْتَبَهَ إِلَى رُوحِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ الَّتِي تَتَأَلَّقُ وَكَأَنَّهَا انْبِثَاقٌ عَنْ كَلِمَةِ الْمَسِيحِ الشَّهِيدَةِ : « إقْرَعُوا إقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ » .

وَلَعَلَّ أَجْمَلَ مَا فِي الْمَذْهَبِ الْعُلَوِيِّ بِهَذَا الشَّأْنِ ، أَنَّ صَاحِبَهُ كَانَ يُوَحِّدُ ثَوْرِيَّةَ الْحَيَاةِ وَخَيْرَ الْوُجُودِ نَفْسًا كَمَا كَانَ يُوَحِّدُهُمَا رُوحًا وَمَعْنَى . فَلْتَشَدَّ مَا نَرَاهُ يُوَحِّدُ مَعْنَى التَّطَوُّرِ . أَوْ ثَوْرِيَّةَ الْحَيَاةِ ، بِمَعْنَى خَيْرِ الْوُجُودِ تَوْحِيدًا لَا يَجْعَلُ هَذَا شَيْئًا مِنْ تِلْكَ ، وَلَا تِلْكَ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، بَلْ يَجْعَلُ ثَوْرِيَّةَ الْحَيَاةِ كُلًّا مِنْ خَيْرِ الْوُجُودِ ، وَخَيْرَ الْوُجُودِ كُلًّا مِنْ ثَوْرِيَّةِ الْحَيَاةِ . وَإِنْ فِي آيَاتِهِ هَذِهِ لِدَلِيلًا كَرِيمًا عَلَى صِحَّةِ مَا نَقُولُ فَلَيْسَ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ أَوْ تَعْلِيلٍ . وَإِلَيْكَ نَمُودُجًا عَنْهَا : « الْعَاقِلُ مَنْ كَانَ يَوْمُهُ خَيْرًا مِنْ أَمْسِهِ » وَ « مَنْ كَانَ غَدُهُ شَرًّا مِنْ يَوْمِهِ فَهُوَ مُحْرَمٌ » وَ « مَنْ اعْتَدَلَ يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ » . وَأَخْبِرْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الرَّائِعَةُ الَّتِي تَجْمَعُ كُلَّ مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ الْآنَ ، إِلَى دَفْعَةِ الْحَتَانِ الْعَمِيقِ ، إِلَى جَمَالِ الْقَنِّ الْأَصِيلِ ، إِلَى إِشْرَاكِ الْأَيَّامِ بِأَحَاسِيْسِ الْبَشَرِ :

« مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ : أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ ، وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ ، فَقُلْ فِي خَيْرٍ أَوْ عَمَلْ خَيْرًا فَإِنَّكَ لَنْ تَرَانِي بَعْدَ أَبَدٍ ! »

وَأَنَا لَسَوْفَ نَسُوقُ فِي فَصْلِ آتِي طَائِفَةً مِنْ رَوَائِعِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّتِي سَبَقَتْهَا مَا بَقِيَ الْإِنْسَانُ الْخَيْرُ . وَإِنَّهَا لَطَائِفَةٌ تُؤَلِّفُ نَهْجًا فِي الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيمَةِ ، وَالتَّهْذِيبِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّفِيعِ الَّذِي أَرَادَهُ انْبِثَاقًا عَنْ ثَوْرِيَّةِ الْحَيَاةِ وَخَيْرِ الْوُجُودِ !

عَلِيٌّ وَسُقْرَاطُ

• لا علم بلا فضيلة . ولا فضيلة بلا علم ، كما أنه لا جهل بلا رذيلة ، ولا رذيلة بلا جهل !

سقراط

• إذا أرذل الله عبداً حظر عليه العلم . والعلم دينٌ يُدان به ، وهو إحدى الحياتين ، وأقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً !
عليّ

عظيم أئتنا وعظيم الكوفة

• وكلاهما كان في عهده مظهرًا لمجتمع جديد وحاجات جديدة ، فراح يهدم ويبنى ، فعادّوه وتآلبوا عليه ، فثبت لهم كالطود الراسخ وازداد بالحقّ إيماناً !

• وكلاهما جابهَ الطغاة والوجهاء وكانزي الذهب وأهل السلطان وأصحاب الجيوش ، بسلامة الفطرة الإنسانية ، وقدرة العقل وحرارة القلب ووهج الضمير والإيمان بخير الحياة !

• وكلا الرجلين تراثٌ للإنسانية عظيم !

قد يتساءل المرء ومن حقه أن يتساءل لماذا نتحدث عن سقراط ونحن نسوق الكلام على ابن أبي طالب وما عاصر سقراطُ علياً وما كان عربياً ولا مسلماً أو مسيحياً . بل تقدّمه في الزمان وكان إغريقياً وثنياً !

وعن هذا التساؤل نجيب قائلين إنّنا عمدنا إلى هذا الحديث عمداً لأن سقراط لم يعاصر علياً ولم يكن عربياً ولا مسلماً أو مسيحياً ! وما ذاك إلا لإظهار أمرٍ لم نتعود بعد أن نتمرس به كثيراً وهو أن الحقيقة واحدة ،

وأنها لا تدنو منا ولا تبعد عنا بمقاييس العصور والجنسيات والأديان . وعلى ذلك يكون سقراط العظيم أحياناً لعليّ العظيم بما يلفّ كلّ عصرٍ وكلّ جنسيّةٍ وكلّ دين ، ألا وهو الانسانية المؤمنة بالانسان المبدع ، وقيّم الحياة الثابتة . وخبر الوجود الشامل . إيماناً يحمل صاحبه على أن يلاقي الموت في سبيله عازماً صابراً باسمه يقول : « أنا إلى الموت ، وأنتم إلى الحياة ^(١) » ، أو يقول : « أنا بالأمس صاحبكم ، وأنا اليوم عبرةٌ لكم ، وغداً مفارقكم ، غفر الله لي ولكم ^(٢) » .

وإنّ عليّاً وسقراط وإنّ باعدت بينهما ظروفٌ ومناسباتٌ وأزمان ، لتجتمع بينهما آفاقُ الكاملين من أبناء آدم وحواء ، أولئك الذين ما عملوا عملاً إلا رأينا فيه صورةَ الانسان المتفوقِ العظيم في كلّ أرض ، وما قالوا قولاً إلا أصغينا فيه إلى ضمير الانسان المتحد بعدالة الوجود وقيّم الحياة !

وإذا كان من العظماء قومٌ يتآلفون ويتآخون ويخدمون حقيقةً واحدة في جوهر ما يعيشون ويقولون ويعملون دون المشابهة في الجزئيات والتفاصيل ، لاختلاف الأزمنة والاحداث والمناسبات ، فإنّ عليّاً وسقراط يخدمان حقيقةً واحدة في جوهر ما قالوا وما عملوا ، ثمّ يتشابهان حتى في الجزئيات وهذه التفاصيل ، أو في معظمها على الأقلّ . وإليك ما نحسبه مبرّراً لِمَا نقول :

إنّ شيئاً من الجهد في دراسة الرجلين يأذن لنا بأن نقسم وجوه الشبه بينهما قسمين رئيسيين : الأوّل عامٌ والثاني خاصٌ . أمّا العامّ فنوجزه بما يلي :

إنّ كلاّ من الرجلين مظهرٌ كريمٌ للارادة الفذة الصابرة والايمان العميق بخير الوجود المطلق وخير الانسان ، ورمزٌ للحنين السامي الذي

(١) آخر كلمة قالها سقراط قبيل موته .

(٢) آخر كلمة قالها عليّ قبيل موته .

تعانیه نفوس الادميين ساعة يستشعرون توقاً خفياً إلى توحيد الكون في قيمة واحدة شاملة تنبثق منها كل حقيقة . ثم إن كلاً من الرجلين صورة حية خالدة عن تجمع المثل الانسانية العليا في إنسان ، ووحدة تامة من العقل والقلب والضمير تسعى في تركيز أصول عامة يحيا عليها الفرد المهذب ، ويقوم عليها بناء الدولة المهذبة ، فأركان الانسانية الواحدة المهذبة . وإن أخبار كل من سقراط وعليّ وأخبار أخصامه ، لتمثل أروع تمثيل قصة الصراع بين النور والظلمة في تاريخ البشر ، أو قل بين الحق والبطل ، أو العدالة والغبن ، أو الحياة المتطورة الفاتحة والجمود الآسن الفاسد !

أما الثاني وهو الخاص ، فلذلك جملة مظاهره :

إن كلاً من سقراط وعليّ برزت فصول حياته العامة في بلد كثر فيه الوجهاء والمستغلون وطلاب الحكم وأنصارهم والمستنفعون بهم ، وفي عهد عمّت فيه القوضى علاقات الحاكم بالمحكوم وانحرفت مقاييس التصرفات والأخلاق العامة واستشرت الفردية لا تحب إلا لنفسها حساباً .

وكلاهما نشأ قبل ذلك نشأة حسنة عن طريق الاتصال المباشر بعظيم أو عظماء . وكان القدر شاء أن تكون نشأة كل منهما في عصر حروب تنمر ولا تهدأ فكان سقراط محارباً عنيداً يهابه الخصم ويستدري منه بسواه ، وكذلك كان عليّ . وكان سقراط شجاعاً قلماً تحدث الرواة عمن يساويه في مرتبة الشجاعة أو يدانيه . وكذلك كان عليّ . وكان سقراط يؤثر من العيش ما كان خشناً قاسياً ، وكذلك كان عليّ ! أما الزهد والتشكف في جملة أحوال العيش فأخبار الرجلين فيهما معروفة لا تحتاج إلى عرض جديد .

وكلاهما شعر بمسؤولية العقل والضمير نحو المشردين والمغبونين

والمستضعفين والمضطلين ، فوقَف حياته لهداية هؤلاء ورفع الحيف عن هؤلاء حتى قضى شهيداً وفي يده ألا يقف هذا الموقف لو شاء وألا يستشهد !

وكلاهما حارب الطغاة وأهل البغي وأصحاب الوجاهات والمستنفين بضعف الضعيف وجهل الجاهل حرباً لا هوادة فيها، فتألبوا عليه وضايقوه وهدّوه كل يوم بموت جديد . حتى إذا وعدوه بالسلامة والعافية إنْ هُوَ هادنَ أو لانَ أو غصَّ عن منكراتهم عينيه أبى إلا الاستقامة مسلماً وإلا الضمير مُرشداً وإلا العقل هادياً ودليلاً ! فإذا بالحق لم يترك لسقراط نصيراً إلا ممن أضاء طريقهم وحي الحياة وهدتهم الفضيلة . وإذا بالحق لم يترك لعليّ معيلاً إلا نقرأ ممن سما بهم الحب وتحركت في نفوسهم المروءات .

وكلاهما عنيّ بالظواهر العامة التي توجز حياة عصره الروحية ، ومضمون حياة الناس : فدرسها وعلّلها وقوّم منها جاهاً ما استطاع طيول أيامه .

وكلاهما كان في عهده مظهراً للمجتمع جديد وحاجات جديدة ، فتصدى للأحوال العامة يريد تبديلها ، وللتقاليد التي توارثتها الوجهاء أو استحدثها المستوجهون يهدّم منها ما كان لينبي مكانها ما يجب أن يكون . وهكذا عدّ سقراط ثائراً وهو ثائر بالفعل ، وكان عليّ ثائراً وإن لم ينعتوه بما نُعت به أبداً كبار المصلحين عبر مراحل التاريخ !

وكلاهما كان خطراً على طبقات معينة من المستنفين بالأحوال الراهنة ، فما كان منهم في أثينا إلا أنْ لفقوا التّهم ضدّ سقراط مفترين ظالمين . وما كان منهم في الحجاز والشم إلا أنْ لفقوا التّهم ضدّ عليّ معتدين آثمين ! ويا لغرابة الصدفة في اتّهام سقراط بتضليل الأثينيين وإغرائهم

بالتمرّد على السلطان وأحكام الزمان ، وفي تهام عليّ بتضليل الكوفيين وأبناء الأمصار وإغرائهم بالتمرّد على عثمان ومشورة مروان ! ويا لغرابة الصدفة في تكفير سقراط على لسان المستهترين من حكام الأغارقة وأنصارهم وأولئك السفطائيين والمتعادين المتنافرين الذين ألّفَتْ بينهم مصالحُ هزيلةٍ رعناء ، وفي تكفير عليّ على لسان المستهترين من حكام العرب والوجهاء وأنصارهم والمتعادين المتنافرين الذين ألّفَتْ بينهم مصالحُ أو غوايات ! وإذا شئتَ أن تعرفَ بِمَ كَفَرَ سقراط ، فاسألَ مبلّيتوس وأيتّوس وليكون السفطائيين جميعاً ^(١) . وإذا شئتَ أن تعرفَ بِمَ كَفَرَ عليّ ، فاسألَ معاوية ومروان والأمويين والخوراج ومن إليهم !

وكلاهما جابهَ الطغاةَ في كلِّ ميدانٍ وعلى كلِّ صعيدٍ ، وحطّمَ نفاق السياسيين في زمانه وفضّح نواياهم ، وأخرج السياسةَ من نطاقِ التهريج إلى نطاقٍ جديدٍ صحيحٍ هو العمل في سبيل الجماعة عملاً يرنكز على المعرفة وهي قاعدة الفضيلة .

وكلا الرجلين ألحَّ على الرسالة الاجتماعية الملقاة على كواهل المفكرين والحكماء والفلاسفة ، وجعلَهم وحدَهم حكامَ الناس وقادة البشر . وكلَّ حكيمٍ في مذهبه لا يكون صاحبه مفكراً حكيماً فيلسوفاً هو اغتصابُ أحقِّ وعملٌ "تافهٌ" وحكمٌ "سخيفٌ" !

وكلاهما جابهَ الماجنين والأثرياء والأقوياء وأهل السلطان وكانزي الذهب وأصحاب الجيوش وذوي المكر والدهاء . بسلامة الفطرة الانسانية . وقُدرة العقل وحرارة القلب ووهج الضمير والایمان بخير الحياة !

(١) الثلاثة الأولون مم الذين دفعهم خصوم سقراط الى تليفق التهم ضدّه وفيها كفر . والعهاده المزعمان . أما السفطائيون فأمرهم معروف ، وسوف يأتي عليهم الكلام .

وكيلا الرجلين لم يحكم على معارضيه ومناوئيه بسوء ، إفساحاً في المجال أمام الرأي الحرّ ، وتهدّياً عملياً للفكرة التي عاش في ظلّها حكّام التاريخ وأكثر مفكرّيه ، وتقول بأنّ الظلم من شيم النفوس !

وكيلا الرجلين ترعّم في تاريخ الفكر والروح لأمةٍ من الأمم ، أو لأكثر من أمةٍ ، طورَ الأستاذيّة فكان له في حياته تلاميذٌ وانصارٌ هلكوا بضلال زمانهم ، وتلاميذٌ وانصارٌ آخرون حملوا رايته بعد موته فعاشوا في ظلّها أو أو قضاوا لا فرقَ لديهم بين موت وحياة ! وكيلاهما أحدث انقساماً في الآراء والمذاهب قلّما أحدث مثلها بشرٌ من قبلُ أو من بعد !

وكيلا الرجلين فهمَ الإلهَ وأدركه وأحبّه على نحوٍ واحدٍ سوف نتحدّث عنه كما نراه !

وما أحلى أن نوجز قائلين إنّ كلاً من عظيم أثينا وعظيم الكوفة آثر الصدقَ حيث يضرّه على الانحراف حيث ينفعه بمقاييس العاديين من الناس ، وكان مثلاً يُحتذى في المروءات كلّها ، ومثلاً أعلى للشجاعة الأدبية التي يعتزّ بها تراثُ الانسان . ونبيّاً لم يكثرث إلاّ بالحقّ ولم يهتَبِ الموت في سبيله . وإنّ كلاً من عظيم أثينا وعظيم الكوفة جعلَ العملَ والقولَ شيئاً واحداً فلم يفصل بين هذا وذاك ، وجعلَ همّةَ الأول الانسانَ وخدمته . وإنّ كلاً منهما كان واسع العلم ، قويّ الحجّة ، رضيّ الخلق ، حلیم الطبع ، صلب العزيمة ، فائق الجرأة !

وبعد أن عرفنا من صفات عليّ بن أبي طالب ما عرفنا ، يعنينا في خاتمة هذه التوطئة أن نذكر شيئاً من صفات سقراط لعلّ فيها ما يجلي وجوه الشبه بين الرجلين بصورةٍ عامّةٍ وخطوطٍ عريضة . ومما جاء في وصفه على ألسنة معاصريه وتلاميذه ودارسيه ، هذه الإجماليّات :

«سقراط ، شيخ فلاسفة اليونان ، وأعظم حكمائهم خطراً ، وأكبرهم شأناً . لم يعرف التاريخ قبله في إغريقيا أحداً أغزر منه علماً ، ولا أعمق بحثاً ، ولا أدق تفكيراً ، ولا أسلم منطقاً ، ولا أجل نفساً ، ولا أعظم حكمة» ، ولا أكثر تواضعاً ، ذلك هو إمام المفكرين ونبراس الباحثين ، أبو الفلسفة الأول ونصيرها الأجل !

«سقراط الذي حول تيار الفلسفة من البحث في النظريات الجدلية إلى المعرفة الانسانية وتحديد الفضيلة الخلقية ، ومدّ أغصان دوحته حتى جعلها تتناول علم الأخلاق كجزء منها !

«سقراط الذي ضحّى بحياته في سبيل إيمانه بمبدئه ، وآثر مغادرة الحياة على العدول عن عقيدته التي كانت تجري من نفسه مجرى الدم من الانسان (١) » .

فإلى الكلام على عظيم أثينا وعظيم الكوفة : عملاقي العقل والقلب والضمير !

(١) بعض التصرف والاختصار من « الفلسفة الاغريقية » الجزء الاول ص ١٤٥ - ١٤٦

على رؤوس الطّفاة

• ولجأ التافهون إلى أكذوبة التاريخ الكبرى ليَقُوا مصالحهم
خطرَ هذا العاصف العظيم !

• وراح أفلاطون ينشَق سقراطَ مع الهواء !

• وكان سقراط في قومه ما سيكونه عليّ بن أبي طالب في
قومه : عبقريةً غريباً أحبّتهم فأذكروهم ، وعلمتهم فلم
يفهموه !

من البديهيّات المسلّم بها أنه يستحيل على أهل الفنّ — الجديرين بهذا النعت
العظيم — أن ينولوا قولاً لم يعيشوه ، أو يروا رأياً لم يدقّوا بناره ، أو يدفعوا
للخلود أثراً فنيّاً لم تنصهر فيه عقولهم وقلوبهم وتخيلاتهم وأجسامهم وكيانهم
جميعاً !

غير أنّ هذا الاندماج المطلق بين الأثر الفنيّ وكيان صاحبه جميعاً ، لا
يُشترط مثله — أساسياً — بين الفيلسوف وإنتاجه على ما يبدو . ولنا في تاريخ
الفلاسفة أكثر من دليل على ذلك . فهم في هذا الضوء قسمان : جماعة تتصل
حياتهم بمذاهبهم وآرائهم ، وجماعة آخرون يمكن فصل حياتهم عن آثارهم

الفكرية فصلاً كثيراً أو قليلاً . أمّا الأولون فيختلف الاتصال بين حياتهم ومذاهبهم قوةً وضعفاً ، فقد يكون كاملاً مطلقاً ، وقد يكون خفيفاً رقيقاً ، وقد يكون بينَ بين !

ولما كان سقراط من طائفة الفلاسفة الوجوديين ، أي الذين تكون أقوالهم ونظرياتهم وأعمالهم جزءاً من وجودهم ، والذين يمكن استخلاصُ مذاهبهم وآرائهم من حياتهم ذاتها وإن هم لم يخطّوا حرفاً واحداً ، فقد بات من الضروري أن نلّم بأخباره إلمامةً عاجلةً يستوجبها البحثُ العاجل في مذاهبه ولا سيما ما يتعلّق منها بالأخلاق .

يحيط الغموض بعضَ الإحاطة بتفاصيل نشأة سقراط ، وجزئيات حياته . وذلك لأسباب عدّة منها كثرة أنصاره وكثرة أعدائه من الرواة والمؤرخين ومن عاصروه ومن جاؤوا بعد زمانه . غير أننا سنثبت في هذا الفصل خلاصةً موجزة لما هو ثابتٌ من تاريخ حياته ، ضارين صفحاً عن كلِّ ما اختلف فيه المختلفون .

وُلد هذا العظيم في عاصمة الإغريق ٤٧٠ قبل المسيح من أبٍ مثال . وكان العصر الذي ولد فيه من أزهى عصور أثينا أمّ الحضارة البشرية ومهد الانسانيات العظيمة . وهو العصر الذي تلا حروبَ اليونان والفرس ، والذي توصل فيه الأثينيون ، في لحظات حاسمة من تاريخ الانسانية ، كما يقول رينان ، إلى معرفة سرّ الحياة وهو الجمال ! الجمال الذي كان موضوع الحاسة المميّزة للعقربة اليونانية « التي صيرتهم فتّانين يؤمنون بفنّهم لحماً ودماً ، وأرهفت نفوسهم حتى تشابه ما أبدعوه في كلِّ شيء ، فأشبهه شعراؤهم فلاسفتهم ،

وأشبهَ فلاسفتهم مصوريهم ، وما كان غذاءَ لقلب فيدياس ^(١) كان نفسه غذاءَ لقلب بيركليس ^(٢) ، وسوفوكل ^(٣) ، وسقراط ، والنايفين من أبناء أثينا جميعاً ^(٤) .

بدأ سقراط يتثقف في نشأته الأولى بدراسة دين الأغارقة على عادة الأثينيين يومذاك . ثمّ انكبّ على دراسة الفلك والفلسفة والموسيقى والآداب التي استوعب منها كلّ ما طالته يده . وكان بين الفلاسفة الذين تثقف بآثارهم بارمنيدوس ، وهيراقليطوس ، وأناكراكور ، وأمييدوكلس ، والفلاسفة الدّريون ، وزينون الايليائي . وكان هذا الأخير أشدّهم أثراً في نفس سقراط لأسلوبه الطريف في الاقتناع وهو الجدّل والحوار .

وكانت وسائل التربية والتثقيف في أثينا يومذاك تنقسم قسمين : فمنها المدارس التي تُعنى بالتعليم على النحو المدرسي المعروف ، ومنها الاتصال المباشر الحيّ بالمفكرين والفلاسفة وذوي الثقافات الواسعة في حلقات يعقدونها في الأماكن العامة والخاصة للبحث في أمور الفكر وشؤون الكون .

وقدّر لسقراط ، بوصفه مواطناً أثينياً ، مثلُ هذا الاتصال بعظماء اليونان المفكرين والفلاسفة ، فاطّلع على جديدهم وتثقف ، بعد أن عجز عن مواصلة الدراسة في المدارس المنظّمة نظراً إلى أوضاعه المادية . وممّن

(١) فيدياس : أحد عباقرة النحت في تاريخ البشر .

(٢) بيركليس : أحد كبار رجال السياسة في أثينا ، حكم اليونان ، وتتلذذ عل شعرائها وموسيقييها وفلاسفتها ، وجعل الفنون والفلسفة هم الأغارقة ، وكان عهده من أعظم عصور أثينا في الانتاج الفني والفكري .

(٣) سوفوكل : أعظم شعراء التراجيديات في تاريخ اليونان ، وواحد من عظماء شعراء الاساتية .

(٤) عن كتاب « سقراط » للدكتور علي حافظ بهني ص ١٤ .

اتصل بهم في هذا الطور بروتادوراس ، وجورجياس ، وبروديكوس ، وغيرهم من زعماء السفطائيين الذين عاد وحطهم فيما بعد .

ثم اضطر إلى أن يعمل في سبيل العيش ، فراح يمارس النحت في حانوت أبيه ويتاجر بالتمائيل التي يصنعها . غير أنه ما لبث أن أنكر هذه التجارة فبذها نبذاً وهو يستشعر أنه كان لِمَا هو أعظم وأجل . وفي هذه الأثناء بدأت الحروب المعروفة في تاريخ اليونان بالحرب البلوبنيزية ^(١) ، فاشترك فيها سقراط أسوةً بمواطنيه الأثينيين ، وأبدى من ضروب الشجاعة في معاركها مثل ما سيُبدى فيما بعد من ضروب الشجاعة الأدبية في معاركها مع الفلاسفة السفطائيين وأنصارهم الحاكمين والقضاة ومن إليهم . فقد شهد تاريخ هذه الحروب أن سقراط لم يكن يزلزل نفسه خوفاً أو يشينه عن عزمه هول . كما شهد أنه كان مثالاً للأنفة وعزة النفس والمروءة ، فما كان يؤذي جريحاً ولا يتصدى لمسلم وإتّما كان عمله في القتال عملاً فروسباً يفرضه عليه واجبه وميله الشديد إلى التقيّد بالقانون والنظام . ومن مروءة ته خلال هذه الحروب أنه كان يأبى - على فقره الشديد - أن يأخذ شيئاً من أنفال الحرب ومغانم القتال ، وهي من حقه في شرائع ذلك الزمان وفي منطق الحرب في كلّ زمان على ما يبدو . بل كان بأنف أن يمدّ الظافرون أيديهم إلى ممتلكات المغلوبين لكي يحصر معنى القتال في إظهار من الرجولة الخالصة التي تدافع عن مبدل أو تقاتل من أجل وطن دونما نظير إلى الرخيص من المنافع .

وقبيل انتهاء هذه الحروب التي أنزلت بأثينا كل ألوان النكبة ، وعلى أثر معركة طاحنة مربعة ، أقبل سقراط إلى أثينا في فرصة انتهزها فراحوا

(١) يطلقون هذا الاسم على الحروب التي استمرت من ٤٣١ إلى ٤٠٤ قبل المسيح بين سبارطة وأثينا وانتهت بتدمير هذه الأخيرة ونكبة ابنائها .

يسأله : « كيف نجوت من القتال ؟ » فيجيبهم في لفةٍ سائلاً : « أخبروني ،
ما أنتجت أثينا في الجمال ؟ »

وانتهت الحروب البلونيزية . فأسلم سقراط نفسه لشیطانها غارقاً في محيط
الفلسفات المتضاربة وكان محيطاً هائجاً صاحباً على أثر النكبة المروعة . وكان
الحكام والفلاسفة يتبادلون الآراء والنظريات قصد إنشاء أثينا جديدة قوية .
وكان من آثار النكبة أن تشاءم الناس بالحياة وبالمصير ، فاستغل الفلاسفة
السفسطائيون هذا الواقع ، وراحوا بهاجمون آباء الفلسفة الاغريقية القدماء
وركائز آرائهم ، ويلقون في عقول الناس أن الحقيقة ليست شيئاً يختلف عن
هوئى معين ، ثم عن أسلوب يختاره المرء تبعاً للأحوال والظروف وينهجه
توصلاً إلى تحقيق هذا الهوى !

وصادفت هذه الآراء هوئى في نفوس الأثينيين في عصر التشاؤم ذاك .
وكان للسفسطائيين من البلاغة والمقدرة الكلامية ما يأخذ العقول ويمسك القلوب ،
وكان لهم من الحكام تلاميذ وأنصار ، فإذا بشعوذاتهم تستولي على الناس
قاطبة ، وإذا بالحقيقة التي يبحث عنها سقراط تغيب وراء سحب كثيفة دكناه
بما أشاعه فلاسفة السفسطائية في العقول والنفوس !

فأصبح هم سقراط مجابهة هؤلاء وتحطيم مذاهبهم تمهيداً لآراء جديدة
صالحة ، وفلسفة تقوم على أساس ثابت من الحقيقة . وحمي وطيس المعركة
بينه وبين هؤلاء . وما زال بهم حتى قضى على نهريجائهم السخيفة ، وأحمد
عواصف بحرهم الهائج على غير جدوى . وخلص الأثينيين أو كاد من ذلك
الارتباك الهائل الذي أغرقهم فيه السفسطائيون .

وواصل انتصاراته عليهم يوماً بعد يوم ، بحجة لا تقاوم ، ومنطلق لا

بجانبه ، وحزم يدك الجبال . وبساطة لا تجارها إلا بساطة الشمس حين
تبرغ ! ولاحتهم في كل مكان على مشهدٍ ومسمعٍ من عشرات الألوف
من أبناء أثينا . وتحدث إلى الناس يتساءلون ويتجاوبون في كل شارع وكل
زاوية وكل فسحة وكل مكان ، للكشف عن الحقيقة ، وتقديسها . وكانت
السخرية العميقة المهدبة من سلاحه الماضي في انتصاراته على السفسطائيين وفي
أحاديثه مع الأثينيين .

وسرت في أثينا من أقصاها إلى أقصاها روح احترام لهذا العبقري الذي
هزم جيشاً من الفلاسفة ، وهدم مذاهبهم وآراءهم ، وجرف أمامه كل
التقاليد الموروثة الخاطئة ، ببساطة وصفاء مطلقين . وتطلع الناس إليه ،
وأصبح موضوع اهتمامهم ومدار أحاديثهم ومناقشتهم . ولكن هذا لا يعني
أن شعب أثينا كان قد بلغ من المكانة الفكرية المستوى الذي يؤهله لفهم حقيقة
سقراط . فإن الأثينيين في جملتهم لم يتمكنوا من إدراك الفارق الحقيقي بين
الفلاسفة السابقين وما وقعوا فيه من اضطراب وقلق ، والسفسطائيين وتهريجهم ،
وسقراط وصفاء فكره وسداد منهجه ونبيل غايته . وإنما كان إعجابهم به
شيئاً من الفضول الذي يدفع العاديين من الناس إلى أن يفرغوا أفواههم دهشة
أمام كل جديد .

أما الذين فهموه على حقيقته ، فأصدقاؤه وأنصاره الحكماء وفي طليعتهم
تلميذه الأمين العظيم أفلاطون ، وأعداؤه الحكماء والفلاسفة السفسطائيون .
أما أنصاره فقد بلغ احترامهم له - هذا الاحترام المبني على فهمه فهماً صحيحاً
حداً كان من الممكن أن يدفعهم إلى الاستشهاد في سبيله ، بل إنه دفع بعضهم
إلى هذا الاستشهاد . أما أعداؤه ، فقد ساعدتهم فهمهم له في إحكام اتهامها

الذي انتهى بصفحةٍ من أشدّ صفحات التاريخ البشري سواداً ، ومن أكثرها إساءةً إلى الكرامة الانسانية .

وفي عهد سقراط انهزمت الأرستقراطية الأثينية الجامدة التي كانت تستولي على الحكم وتختار من الأنظمة ما يوافق جمودها ومصالحها . انهزمت هذه الأرستقراطية التي لم تكن دساتيرها لتبيح لابن مثاليّ بسيطٍ من الشعب كسقراط أن يتولّى منصباً في مجلس الشيوخ الذي يشرف على سياسة الدولة . وحلّت محلّها الديمقراطية التي دعت سقراط إلى أن يشرف هذا المجلس المذكور بأن يدوس أرضه بقدميه ، وبأن يكون عضواً بين أعضائه .

وخاب أمل الديمقراطية الأثينية المتربّعة على مقاعد الحكم بسقراط !

كان هؤلاء الديمقراطيون أضيقّ أفقاً من أن يستمعوا إلى سقراط ، منذ شرفت قدماه مجالسهم ، وهو يهاجم تقاليد أثينا وتشريعاتها وأنظمتها ودساتيرها التي تخدمهم كوجهاء يريدون مصالحهم أولاً ! وتقدّم قومٌ منهم ينصحون إليه بالألاّ يتعرّض لتشريعات الدولة ... فما كان منه في الجلسات التالية إلاّ أن ازداد عناداً وجراًةً ... وبساطة !

ثم كانت قضيةّ استغلال الطغاة الثلاثون وهم حكام أثينا ، في أوساط الشعب الاغريقي . وخلاصتها أنّ هؤلاء الطغاة أجمعوا الرأي على إعدام عددٍ من القوّاد العسكريين لسببٍ رأوه ، وأقنعوا الأثينيين بضرورة هذا التدبير . ففرض سقراط الاشتراك في الحكم بالموت على هؤلاء القوّاد . وجابه في هذه القضية - وحده - الطغاة الثلاثين الذين قلما عرف التاريخ أسمى من حكمهم وأشدّ بطشاً .

وبعد ذلك بقليلٍ أعلن سقراط في مجلس الشيوخ ، وعلى أبناء أثينا ، أنّ

سلطات الدولة كلها ، ولا سيما الرئيسية منها ، يجب أن تكون في أيدي الفلاسفة والمفكرين والحكماء ، لا في أيدي نفرٍ من الجهلة الأغبياء !

وهكذا اشتدَّ خطر سقراط على أصحاب السلطان والوجاهات وبناتوا من آرائه وجرائته في مأزقٍ لا يعرفون للخروج منه سبيلاً . وحقدوا عليه حقداً أكلوا واضطربوا اشدَّ الاضطراب . وأحسّوا أن مناقشته بالحجة والدليل لن تأتيهم بنصر لانهم لن يشنوا له إلاّ بمقدار ما تثبتُ العُصافةُ للريح ! فإنّ بلاد اليونان كلها لم يكن فيها من يستطيع أن يجادل سقراط في قضية ولا يقتنع . فإمّا أن يطأطىء رأسه إكباراً وإجلالاً واقتناعاً فيستسلم إن كان شريفاً ، وإمّا أن تغلبه مصالحه ومخزياتُ نفسه فيكابر في الظاهر وهو مقتنعٌ في ضميره بأنّه مهزومٌ على صعيد الفكر والخلق والشرف جميعاً !

ولمّا كان حکّام أثينا من هؤلاء المهزومين أمام حجة سقراط وأمام قلبه ، فقد أيقنوا أنّ أخذَهُ بـ « الحُسنِ » أمرٌ غير ميسور ، وأنّ بقاءه حيّاً هو الخطر الأكبر ، فماذا يصنعون ؟

لن نفوتهم الخيلة ! فهناك الأكذوبة الكبرى ! الأكذوبة الحقيرة الكبرى التي لجأ إليها اصحاب السلطان في التاريخ ، في كلّ زمانٍ ومكان ، كلّما استشعروا صغارة جهلهم أمام عظمة الفكر ، وكلّما خافوا خطر العبقرية على تفاهاتهم وميوغتهم ، وكلّما اصطدمتْ أنانيّاتهم الفردية الرخيصة بجبلٍ من جبال المعرفة الانسانية الرحبة العظيمة ، وكلّما وخزتْ جوانبهم حرابُ مصالحهم المسكينة ، وكلّما أيقنوا أنّهم عفونةٌ زائلة أمام شمس العقل والقلب والروح ، وكلّما خلّوا إلى أنفسهم وأحسّوا إحساساً طاغياً بأنّهم « عظماء » مزيّفون ... وأنّ سقراط وأمثال سقراط هم حقيقيّون ... بل هم وحدهم العظماء !

أقول إنّ الحيلة لم تفتْ هؤلاء ! فهناك الأكذوبة الحقيرة الكبرى ،
وخلصتها أن يتهم أصحاب السلطان من يخشون خطرهم على مصالحهم
الخاصة ، تهماً تجوز على المجموعة الغيبة لإثارة نفقتها واستغلال هذه النقمة ،
وأن تكون هذه التهم من النوع الذي يثير هذه المجموعة حسب الأحوال
والظروف والمعتقدات السائدة ، وذلك كي تشارك أصحاب السلطان في الجريمة
الشنعاء التي ينون ارتكابها فلا يُشار إليهم بأنهم معتدون مجرمون ، بل
بالعكس من ذلك يظهرون ، بعد ارتكاب الجريمة ، بمظهر من يدافع عن
مصلحة الجماعة وخير الشعب ! من ذلك أن معاوية اتهم علياً بمقتل خليفة
رسول الله ، وأن عثمان ومروان ومعاوية اتهموا أبا ذر الغفاري بإفساد الناس ،
وأن أبا جعفر المنصور اتهم ابن المققع بالزندقة ، وأن أسكندر بورجيا
وابنه السفاح الحقيير قيصر بورجيا اتهما نبي عصر النهضة سافرنارولا بالهرطقة
والخروج على المسيحية ، وأن الجزويت اتهموا فولتير وروسو بالمشاغبة على
« الأصول » المعروفة ... إلى آخر هذه المعزوفة الوقحة السمجة !

اتهم كل من هؤلاء بما يمكن أن يثير عليه حفيظة المجموعة الغيبة .
واستغلّ هذه التهمة مثيرها وصاحبها ... على حساب المصلح المتهم وعلى
حساب المجموعة سواء بسواء ، ثم ظهر بمظهر البطل « المدافع » عن عقيدة
أو تشريع أو فكرة أو كل ما ليس له وجود في ذهنه وفي حسابه !

وهكذا اتهم نبي الأخلاق ، والرائد البشري الأول لحقيقة العقل والقلب
والضمير ، سقراط العظيم ، بما أثار عليه نقمة أثينا التي أراد تخليصها من
الشرور ، والقلق ، والاضطراب ، والهزيمة ، وشاءها موطناً أبدياً للحقيقة
الكبرى ... لسر الحياة ... للجمال !

اتفق الحكماء « الديموقراطيون » والفلاسفة السفسطائيون وسائر الذين

أخزاهم سقراط فأقعدوا على ذبولهم ينبجون ، على تلفيق تهمة ضدّ المبقرى
الغريب يمكن تلخيصها على الصورة التالية :

سقراط عدوّ لدود لجميع الناس لأنه عدوّ لدساتيرهم وقوانين بلادهم .
سقراط يتهمّ على طقوس أثينا المقرّرة ، وعلى أساليب الحياة فيها .
سقراط متمرّدٌ ناثر لا همّ له إلاّ معاداة الأنظمة الراهنة .
سقراط يفسد العقلية الأثينية ، بل إنّه أفسدّها بالفعل ، ممّا يسبىء إلى البلاد
في حاضرها ومستقبلها إساءة كبرى .

سقراط يشتم الآلهة ... ويهين دين الدولة !
سقراط ينكر آلهة الناس المتعدّدة ... ويقول بإلهٍ جديدٍ واحدٍ !
وممّا يؤسف له أن يكون بين ملفّتي هذه التهمة نفرٌ من الشعراء انضمّوا إلى
السياسيين والسفسطائيين ، لأنّهم ما استطاعوا في ما مضى أن يتحمّلوا هجوم
سقراط عليهم وعلى ما ينتجون . وفي هذا يكمن السبب البعيد، على ما أرى ،
في الحملة العنيفة التي شنّها أفلاطون في « جمهوريته » على الشعراء وهو نفسه
في الحقّ من كبار شعراء الدنيا . فإنّ « الفيلسوف الإلهي » لم يتحمّل أن يخذل
بعض الشعراء أستاذّه ، وأن يسعوا في هلاكه مع الساعين ويتأمروا عليه مع
الفلاسفة السفسطائيين والخطباء والسياسيين والطغاة الثلاثين !

لنقى هؤلاء التهمة ودفعوا ميليتوس الشاعر وأنيطوس السياسي وليكون
الخطيب إلى توقيعها وتقديمها رسمياً إلى السلطة القضائية . وعيّنت حكومة
الطغاة لمحاكمته قضاة اختارتهم لهذه المهمة . وأعلن أنّ المحاكمة ستبدأ على
عجل . فهرع تلاميذه إليه وقد سقطت قلوبهم هلعاً وهم أدركوا الناس بأسباب
هذه المحاكمة وبنوايا الدافعين إليها . ورجوه أن يتصل بالقضاة سلفاً فيطلبهم
على حقيقة الأمر وعلى موقفه من الأحوال العامّة . فأبى وترفع وسخر على

عادته من هذا الرجاء وأعلن أن الحق أعظم من البطل ، وأنه يُكْرَم نفسه
ويرتفع عن الاتصال بهؤلاء القضاة الذين لا يستحقون أن يقفوا أمامه ، ولا
أن يرفعوا إليه أنظارهم ، لأنهم من خصوم المعرفة وخصوم الفضيلة وخصوم
الجمال !

وكرر تلاميذه رجاءهم جازعين . وكرر سقراط كلماته مرفعاً أيماً !
فلما يشوا من حمله على الاتصال بالقضاة طلبوا إليه أن يستخدم منطقته
السديد وحيثته التي لا تقاوم في الدفاع عن نفسه ، فأجاب ببساطة العبقريّة
يقول : « إن حياتي وما قدمت من خير ، أكرم ما أعددت من دفاع ! »
وحوكم العبقري الغريب على أيدي جماعة من الخلق لا يستحقون أن
يفكّوا سيرة حذائه !

وحكموا عليه حكماً كانوا قد أعدّوه قبل أن تُعقد المحاكمة !

حكموا عليه بالموت !

واودع السجن ، فهال الأمرُ تلاميذه المخلصين . وبعد جهدٍ وشقاءٍ عظيمين
هيأوا له طريقاً إلى النجاة وسعوا في إغرائه بأن يهرب من سجنه ليلاً في
حراستهم إلى مكان أمينٍ يخلص به من هذا المصير . فأبى وترفع وقال لهم
إن الهروب رذيلةٌ وهو معلم الفضيلة . وإنه خروج على القانون وهو حارس
القانون .

وشرب العبقري الغريب السمّ والبسمة على شفثته .

وهاجت عواصف الألم والشقاء والتمرد في نفوس تلاميذه الأوفياء . وانطوى
أفلاطون على نفسه جزعاً وفرقاً . ثم ما لبث أن هام على وجهه لا يدري ما
يفعل وقد أخذته الهولُ أخذاً شديداً . وبات لا ينظر إلى أشياء الأرض والسماء
إلا رأى فيها جميعاً طيف سقراط ، فلا يرمقها بعينه إلا أطل منها وجهه

باسماً أو عابساً أو جاداً أو ساخراً . وبات لا يسمع زفيف الريح إلا مشى إليه صوتُ سقراط على خفافاته ! ومن تلاميذ أفلاطون من زعموا أن أستاذهم كان ينشق سقراط مع الهواء ! وغادر « الفيلسوف الإلهي » أثينا وراح يضرب في أنحاء الأرض من بلدٍ إلى بلدٍ ومن قفرٍ إلى قفر . وانصبَّ بعد ذلك عمره على الدفاع عن سقراط وفضيلته دفاعاً هو شرفُ العقل والقلب والضمير . وكبَّ نغمته وسخطه واحتقاره كبّاً عارماً على رؤوس القضاة الذين حاكموه . ومما خاطب به الاثنيين والقضاة على لسان سقراط ، قوله :

« والآن أيها الاثنيون ، إنني بعيدٌ كلَّ البعد عن أن أدافع عن نفسي كما قد يبدو لبعضكم . إنَّ الله قد جعلني شوكَةً في جانب هذه المدينة ، وأرسلني إليكم لأوقظكم من سباتكم وأقتعكم وألوم كلاً منكم ولا أكفَّ عن ذلك كلما لاقيتكم . وليس من طبيعة البشر أن تروا رجلاً يغفل ماله وداره كلَّ سني حياته ولا يغفل عن سعادتكم يوماً واحداً ، ويلقى كلاً منكم على أفراد كما يلقي الوالد ابنة والآخر أخاه ، ويحترصكم على أن تتحلوا بالفضيلة والعلم . ولو أنني فعلتُ ما فعلتُ ابتغاءَ جزاءٍ أو نصحتكم رجاء أجرٍ كان لي في ما فعلتُ مبررٌ . وإنكم ترون متهمي قد خلعوا كلَّ شرفٍ وكلَّ حياءٍ فاتهموني بكلِّ إثمٍ ولكنهم عجزوا عن أن يأتوا بشاهدٍ واحدٍ ليشهد على أنني سألتكم يوماً ما جزاءً » (١) .

وبعد ، أفرأيتَ إلى أي حدٍّ تشابه سيرة سقراط وسيرة عليٍّ ؟ وإلى أي مدًى تشابه الأحداثُ التي أحاطت بحياتهما . من حيث المضمون والدلالة ؟ أفرأيتَ إلى أي حدٍّ يُشبه تلاميذُ سقراط وأنصاره تلاميذَ عليٍّ وأنصاره ؟ وإذا

(١) بتصرف واختصار عن كتاب « سقراط » للدكتور علي حافظ بهني ص ١٣٨ .

كان تلاميذ المعلم الأثيني أوسع آفاقاً في مجالات الفكر وأبعد أثراً في تاريخ
الإنسان ، من تلاميذ المعلم العربي ، فإن ذلك لا يمنع أن تكون قصّتهم مع
الطغيان واحدة ، وحقيقتهم الإنسانية واحدة !

أرأيتَ إلى أيِّ حدٍّ يتآخى عليٌّ وسقراط : وما كان عليّ إغريقياً ولا
وثنيّاً ، وما كان سقراط عريباً ولا مسلماً حنفيّاً !



صَلَاةٌ وَسُخُفٌ

• إِنَّ حَيَاتِي وَمَا قَدَمْتُ مِنْ خَيْرٍ ، أَكْرَمُ مَا أَعْدَدْتُ مِنْ
دِفَاعٍ !

سقراط

• كَذِبٌ وَالْعَظِيمُ ! مَا بَالُهُ لَا يَتَيْنُّ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ !

عليّ

• وَكَانَ صَمْتُ كَأَنَّهُ صَمْتُ اللَّيْلِ حِينَ يَلْفُكُ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ وَتَسْأَلُهُ فَلَا يُجِيبُ !

لَمَّا كَانَ عَلِيٌّ وَسُقْرَاطُ وَجُودِيَّيْنِ بِأَجْمَلِ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، أَيَّ أَنَّ أَقْوَاهُمَا
وَمَذَاهِبُهُمَا جَمِيعاً هِيَ شَيْءٌ مِنْ حَيَاتِهِمَا وَوُجُودِهِمَا لَا تَفْصِيلَ فِي ذَلِكَ وَلَا
تَجْزِئَةَ ، فَقَدِ بَاتَ مِنَ الْمَحْتَمِ أَنْ نَعْرِفَ مُوجِزاً جَامِعاً لَصِفَاتِهِمَا ، وَأَنْ نَعْرِفَ
كَذَلِكَ أَيْنَ تَتَلَقَّى هَذِهِ الصِّفَاتُ ، وَكَيْفَ ، وَإِلَى أَيِّ مَقْدَارٍ ، إِظْهَاراً لِلْحَقِيقَةِ
كُلٌّ مِنْهُمَا فِي مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ مَذَاهِبَ فِي الْفِكْرِ وَالْأَخْلَاقِ . أَضَفَ إِلَى ذَلِكَ
أَنَّ كَثِيراً مِنْ مَذَاهِبِ الرَّجُلَيْنِ يُمْكِنُكَ اسْتِخْلَاصُهُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ
وَالصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ دُونَ حَاجَةٍ إِلَى الرَّجُوعِ لِأَقْوَاهُمَا ذَاتَهَا فِي هَذِهِ الْمَذَاهِبِ .
وَقَدْ مَرَّبْنَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ كَيْفَ نَلْخِصُ سُقْرَاطُ حَقِيقَتَهُ الْوُجُودِيَّةَ هَذِهِ سَاعَةً

رجاه تلاميذه الاتصال بالقضاة دفاعاً عن نفسه فقال : « إن حياتي وما
قدمت من خير . أكرّم ما أعددت من دفاع ! »

وإنه لمن الغريب والتادر معاً أن يتفق اجتماع صفات وأخلاق شخصية
واحدة في رجلين اثنين . كما اتفق اجتماعها في عليّ وسقراط ، فهي تشابه
على صورة تأخذك بالدهشة حقاً .

أول ما يطالعك من أخلاق سقراط الشخصية ومن صفاته أنه كان صبوراً
عظيم الصبر يسم للمتاعب مهما تكاثرت ولا يعبأ بالآلام مهما طفت وتراكت .
بل إن هذه المتاعب وهذه الآلام كانت تعج وتثور حتى إذا ارتطمت بعظيم
صبره ارتطمت بالصخر الجلمد لا يلين ولا يلوي . ويروي معاصروه من
أخبار هذه الميزة السقراطية ما لا نظير له في أخبار أبناء آدم وحواء إلا نقرأ
منهم قليلاً . من ذلك أنه نُكِب : كما نُكِب كثير من العبريات ، بزوجته
تافهة الرأي والشخصية . شرسة حادة الطباع على صورة لا تُعقل ولا
تُقبل ، حتى أنها كانت تحمل إليه سطلاً من الماء البارد فتفرغه عليه ، ثم
تعقبه بسطل آخر من الماء الحار فتفرغه عليه كذلك . وكل همتها من هذا العمل
أن تميل به عن مسلكه العظيم وفلسفته ، إلى مرضاة التافهين من الخلق أشباهها .
تحصيلاً للثروة وجمعاً للمال . . . ثم أن تجعله كثير الاهتمام بها إلى حد يخلصه
من « سيناته » الكثيرة ! ومن أخبار هذه المرأة التافهة أنها حضرت زوجها
في حفل عام وهو يلقي على الأتنيين آراءه ويخزي الفلاسفة السفطائيين
ويلقي في نفوسهم الذعر مما هم فيه ، والستمعون مأخوذون بما يسمعون فلا
يتحركون ولا يميلون بنظراتهم هنا أو هناك وكأنهم واقعون تحت السحر .
فما كان من هذه المرأة إلا أن استقبلت زوجها العظيم في بيتها بالعتاب
والمواخظة ، ثم بالسباب والشتم ، تقول له : لقد رأيت بعيني ما لا سبيل

لك إلى إنكاره . لقد كان الألوفا من الأثنيين جالسين لا يحركون حركة ولا يشيرون بإشارة ولا ينطقون بكلمة ... وكنت وحدك بينهم كالمجنون تتحرك وتُشير وتقول !! وكان سقراط في كل هذه الأحوال يسم ويقابل هذه الشراسة بصدور رحب وعاطفة مُشفقة ووجهٍ بشوشٍ وصمتٍ عميق ! يأخذك العجب أكثر من ذلك حين تعرف أن سقراط كان يقول : إني مدينٌ لزواجتي وسوء طباعها وشراسة أخلاقها بفضيلة الصبر . ثم يأخذك العجب أكثر من ذلك أيضاً حين تعرف أن سقراط كان يفرس في نفس ابنه منذ طفولته وحتى آخر عهده معه ، احترام هذه الأم الشرسة ، وإجلالها ، وإكرامها ، على الرغم من أن المؤرخين أجمعوا على أن مثل هذه المرأة لا تستحق احتراماً ولا إكراماً .

أمّا فضيلة الصبر هذه : فأول ما يطالعك من أخلاق عليّ أيضاً ، ومن صفاته : وآياته في هذه الفضيلة أكثر من أن تُحصى لكثرةً ، وأوسع من أن تُذكر هنا لشهرتها . وفي هذا الكتاب ، في ما سبق منه وفي ما هو لاحق ، صفحاتٌ مشرقاةٌ من هذه الفضيلة العلوية ، أولم يكن يصبر على طالبي دمه حتى في ساحات القتال فيدعوهم إليه رحب الصدر طلق الوجه ، فيعانقهم بعطفٍ وحنان ، ثم يعاتبهم عتاب الأخ لأخيه ، صابراً على ما يؤذيه منهم كما تصبر الدوحة على جنون الرياح ! أولم تكن حياته كلها سلسلة من صمودٍ إثر صمودٍ في وجه الأعاصير تأتيه من كل صوب ، والآلام تغزوه من كل جانب ، وأهواء الوجهاء والمستنفعين تُدير عنه مع الدنيا فتحاول أن تسلبه محاسن نفسه ، وهو راسخٌ في إيمانه بفضيلة الصبر كالطود بين العواصف ، مردداً يقول : « لا إيمان لمن لا صبر له » . ومن مذهبه في فضيلة الصبر ألا يجزع الإنسان من المصيبة لثلاث تصبح اثنتين ، وأن في الصبر وحده ما يدفع المكروه من حيث

أنى . وقد عاش عليّ هذه الآراء وقال فيها أقوالاً كثيرة منها : « المصيبة واحدة ، فإن جرعتَ لها كانت اثنتين » و « إنَّ للنكبات نهايات لا بدَّ لأحد إذا نكَب أن ينتهي إليها ، فينبغي للعاقل إذا أصابته نكبةٌ أن ينأى عنها حتى تقضي مدتها فإنَّ في دفعها قبل انقضاء مدتها زيادةٌ في مكروهاها ! » ويعرف العارفون أن عليّ بن أبي طالب لم يصبر على ما بكره وحسب ، بل إنه كان يصبر عما يحب بمقدار ما كان يصبر على ما لا يريد ، شأنه في ذلك شأن حكيم الأغارقة . وفي هذا فلسفةُ الصبر الحقيقية . ومعناه البعيد . وقيمته الكبرى . وقد أوجز عليّ هذا المذهب بكلمة جامعة مانعة قال : « الصبر صبران : صبرٌ على ما تكره ، وصبرٌ عما تحب ! »

وكان سقراط في ساحة القتال شجاعاً لا يبالي بالموت في قتالٍ رآه حقاً أو ضرورة . ولا يأبه للنكبات والأرزاء في مواقع الوغى . وليس للحياة في حسابه شأنٌ إذا ما دعاه الواجب إلى الاستشهاد . وقد سجّل له تاريخ الحروب الاغريقية انتصارات كثيرة أهمّها انتصاران عظيمان في موقعيّ « بوتيديه » و « ديلوم » . وقد أظهر في هاتين الموقعتين ضروباً من المروءات والرائات من شهامة الفروسية قلَّ أن نجد لها مثيلاً . وقد طالما عرض حياته للفناء وهو يخوض صفوف المقاتلين وحده لينقذ جريحاً من هذا الجانب أو من ذاك . وقد مرّ معنا في الفصل السابق حديثٌ عن هذه الشجاعة وهذه المروءات ، فارجعْ إليه .

أمّا عليّ بن أبي طالب فإنَّ اسمه لا يُذكر إلاّ مقروناً في خيال الناطق والسامع بشهامة الفروسية النادرة المثال . وإنّه من الغبن أن نقارن فارساً من فرسان التاريخ العظام بآبى طالب في هذا المقام . وإنّه من الغبن كذلك أن نتحدّث عن شجاعته ومروءته في ساحات القتال بهذا الفصل وقد عقدنا

فصولاً سوف تأتي عن معجزاته في الشجاعة والمروءة والبطولات (١) .

ولعلّ صفات القروسية المتلاقية عند عليّ وسقراط لا تتشابه إلى مثل هذا الحدّ البعيد إلاّ لأنّ معينها في الرجلين واحدٌ وغايتها واحدة كذلك . فمثل هذه الشجاعة وهذه المروءات لا تجتمعُ على هذا النحو الفريد إلاّ إذا علت النفس فما تهاب في سبيل الحقّ والخير خطراً أو موتاً . وهذا العلوّ في النفس خلُقٌ من أخلاق سقراط وصفةٌ من صفاته . فإنّ أبا الفلاسفة الأخلاقيين كان يتلقّى من المستهترين والمبطلين كلّ ضروب الإغراض والاعتداء ، فما كان ليأبه لهم جميعاً ولو ملأوا جبالَ إغريقيا وسهولها . وكان يتعرض أبداً لمقاطعة الزعماء والمضللّين والوجهاء والمستنفعين وكلّ أولئك الذين عظم شأنهم في نظر أنفسهم ... فما كان ليترحّز عماً هو عليه من مذهبٍ ومسلِك . وقد واصل خصومه الاعتداءات عليه والمؤامرات طوالَ أيامه فما كان يجيبهم إلاّ بتلك البسمة الساخرة التي كان يواجه بها زوجته الغيبة وهي تصبّ على رأسه الماء البارد الساخن . وظلّوا يواصلون هذه المؤامرات حتّى لفقوا ضده التهمة الرخيصة التي ورد الكلام عليها في الفصل السابق ، والتي انتهت بموته وكان باستطاعته أن يراجع قليلاً عماً رآه حقّاً فينجو من هذا المصير . ولكنه أنكر الحياةَ ساعةً أصبحتْ مشروطةً بالتراجع عن الحقّ وبالنفاق وبالضغط على حريّة الفكر ثمّ باعثناق الباطل . وآثر الموتَ عندما وقف الموتُ والحقّ في صفٍّ واحد . وهكذا أعطى أبو الحكماء أروعَ مثلٍ أعطي في تاريخ البشر في تضحية الحياة من أجل الحقّ ، وفي رفع الكرامة الانسانية إلى مستوى لم ترتفع أبداً إلى ما هو أعلى منه وأسمى !

وقصة عظيم الكوفة في هذا الباب لا تختلف عن قصّة عظيم أثينا . فقد وهب عليّ نفسه للحقّ مذ نطق لسانه وخفق قوّاده . وإذا شئت أمثلةً على إنكار الحياة وتبذرها نبذ النواة حين تُلزِم بمسايرة البطل ، وعلى الترحيب

(١) راجع ما سوف يأتي من أخبار ابن أبي طالب في باب « المؤامرة الكبرى » .

بالموت عندما يقف في صف الحق ، فما عليك إلا بسيرة علي بن أبي طالب من المهد إلى اللحد . فإنه لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره حين شعر بالحق في روح محمد وعلى لسانه ، وبالبطل في روح قومه وعلى لسانهم ، فامتشق حسامة متحدّياً قومه وهم الأكثر والأقوى ، ناصراً محمداً وأنصاره هم الأقل يومذاك والأضعف ، قائلاً له على مشهد من القوم ومسمع : « أنا عونك ! أنا حربٌ على مَنْ حاربت ! » قال ذلك دونما نظرٍ إلى ما يمكن أن يؤدي إليه هذا الموقفُ في أمر حياته !

وله مثل هذا الموقف مئاتٌ من المواقف في حروب المسلمين والقرشين . وكفالك منه موقفه من أسد الجزيرة عمرو بن عبد ودّ العامري وهو موقفٌ أشبه بمعجزات الروح ساعة تصحك للموت . بل ساعة تهتفُ بالموت أن تعال إذا كنت في صف واحدٍ مع الحق !

ومن أين لنا أن نروي شواهدَ من حياة عليّ على معجزات الروح العظيم الذي لا يهاب الموت على الحق ، وكلّ حياته شواهدُ ساطعات . أقلم يتجمّع عليه الوجهاء والنافذون وكانزو الذهب والمستفعون والولاة والعمال وأنصارهم وجنودهم لأنه كان يأبى أن يتراجع عن موقف حقٍّ وقفه منهم ، أو كلمة حقٍ قالها فيهم ؟ ألم يطلب إليه الوجهاء أن يأذن لهم فيأخذوا مالاً من مال الأمة فيصبحوا أعواناً له ، فيختصر الجواب قائلاً : لا ! ألم ينصح إليه الناصحون بأن يبقى الولاة المفسدين على ولاياتهم فيأمن خطرهم حالياً حتى إذا استتبّ له الأمر بعد زمنٍ قليل عزّلم واحدٌ بعد واحد فيختصر الجواب قائلاً للناصحين : لا ! ألم يقل لجميع هؤلاء المتألبين عليه ، والذين كان في وسعه أن يصطنعهم بكلمة واحدة فيصبحوا له لا عليه ، ألم يقل لهم جميعاً : « إني لأعرف ما يصلحكم ، ولكن لا أصلحكم بفساد

نفسى ! » أمّا الذي يُصلحهم فكان شيئاً يقتضي مرضاتهم ببعض البطل
والتضحية ببعض الحقّ ! .

وحين تفرّق عنه هؤلاء ليصبح وحيداً في قومه لا نصير له ولا معين ، أمّ
يخاطب نفسه قائلاً : « لا يؤنسك إلاّ الحقّ ولا يوحشتك إلاّ الباطل » .
وحين أشاروا إلى قتاله . ألم يكن جوابه هذا القول العظيم : « لا تزيدني
كثرةُ الناس حولي عزّةً » ، ولا تفرّقهم عني وحشةً ، وما أكرهُ الموت
على الحقّ ! » ثمّ حين اجتمعوا عليه في قتالٍ مرّ طويلٍ عنيفٍ جرّ عليه
المحاربين من الجهات الأربع ، فخاضه كثيرٌ من أنصاره ملتحقين بخصومه لأن
وعودهم بالعطاء أكثر ، لم ينظر إليهم جميعاً وهو يقول : « إني ، والله ،
لو لقيتهم واحداً وهم طلاعُ الأرض كلّها ، لما باليتُ ولا استوحشتُ » ،
ثمّ يخاطبهم وكأنه الفضائل الانسانية تأبى وتشمخ وتعظم فتقول : « فوالله ما
أبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ ! »

وإذا كانت الظروف والأحداث لم تدعُ سقراطَ إلاّ مرّةً واحدة لاختيار
الموت في سبيل الحقّ وإبثاره على الحياة مع البطل ، فإنّ الظروف والأحداث
قد دعتُ عليّاً أكثرَ من مرّةٍ إلى مثل هذا الاختيار . ونجّاهُ من الموت في سبيل
ما يراه حقّاً لا يؤثر في معنى التضحية التي أقدم عليها راضياً مختاراً ، ولا
في أسلوبه في النظر إلى الأمور وما كان يستلزم من شجاعةٍ أدبيةٍ نادرة .

ولعلّ أروع ما في حياة علي في معنى التضحية بالنفس من أجل الحقّ ،
هو هذا الحادث الذي يذكره المؤرّخون كما لو كان شيئاً عادياً لا يعنيه
أمره أكثر من أنه خبرٌ بين الأخبار ، وأعني به ما ارتضاه عليّ ليلةَ الهجرة
— وكان ما يزال صبيّاً — إذ نام في فراش النبيّ ليسهل أمره في الخروج من
مكة إلى يثرب تخلصاً من شرّ قريش .

فإنَّها لإرادةٌ على التضحية بالنفس في سبيل الحقّ قلّ أن تجد لها شبيهاً إلاّ في الظروف النادرة التي تقف بها النفسُ الإنسانيّةُ الواعيّة بين حالين من وجودٍ وفناء ، في حيزٍ من إدراك معنى الوجود على مثالٍ خاصّ . فلمّا أنْ تؤثر لهذا الجسد عيشاً يقرّ به دون ما يُحْييه من قيَم الحياة الصاعدة ، فتُنكر هذه القيَم وتفضّل عليها وجوداً هو أشبه بالفناء من حيث أنّ الوجود حياةٌ تُحيا ! وإمّا أنْ تؤثر لهذا الكيان الانسانيّ انصهاراً بكلّيات القيَم دونما نظر إلى وجودٍ عضويّ لا يتّصل بروح الوجود القدّ ، فتأتي هذه القيَم سالكاً إليها طريقَ التهلكة . وما فتأوك آنذاك إلاّ دليلٌ على أنّ الوجود إنّما هو لديك حياةٌ تُحيا لا عيشٌ يُعاش !

أجل ، إنّها لتضحيةٌ قلّ أن تجد لها مثيلاً إلاّ في اختيار سقراط الموت اختياراً لا شكّ فيه ، وفي مسلّك غيره من السقارطة ، تضحيةٌ ابنِ أبي طالبٍ يفدي النبيّ بنفسه راضياً مختاراً على صورةٍ أهونٍ منها على النفس لقاء الموت في ساحة القتال ! فما أصعبَ على المرء أنْ يأخذ مكانَ رجلٍ حكم عليه المجرمون بالقتل حكماً أخيراً ، وأنْ يرقد في فراشه فلا يُخطئه هؤلاء إذا دخلت إرادتهم طورَ التنفيذ وهم منه على خطواتٍ ينظرون إليه ويسمع إليهم ، ثم أنْ يترقّب بين حينٍ وحين رؤيةَ أنظارهم تتوامض بالغدر تحت عينيه ، وسيوفهم تتلامع بالموت فوق رأسه ، طيلةَ ليلةٍ كاملة !

ومن صفات سقراط ومن أخلاقه ما لا بدّ منه في خُلُق كلّ عظيمٍ وأعني به ما يسمّيه الباحثون في حياة سقراط وحياة غيره من العظماء : التواضع ! نقول « ما يسمّيه الباحثون » تواضعاً ، لأننا لا نوافق على نعت صفة العظماء في أخذ الحياة أخذاً صادقاً سليماً مجرداً من الزيّف ، بـ « التواضع » . ففي « التواضع » جهدٌ يبذله المتواضع ليظهر بمظهرٍ معيّن ، وهذا ليس من طبع

العظيم . وفي « التواضع » عندما يكون معناه هذا المعنى ، برودةٌ وجفافٌ وغلظة وهي أمورٌ ليست من دنيا العظيم ولا من وجوده . بل إنَّ ما أسماه الباحثون في حياة سقراط « تواضعاً » نُؤثِّر أن نعطيه اسماً نأخذُه من معنى هذه الصفة التي أرادوا أن يشيروا إليها بـ « التواضع » وهو « البساطة » . وقد سبق أن حدّدنا معنى البساطة بأنّه أخذُ الحياة وشؤونها أخذاً صادقاً سليماً مجرداً من الزيف والتصنع والرياء .

إذن فمن صفات سقراط ومن أخلاقه : البساطة . وهذه الصفة باديةٌ في كلّ فصلٍ من حياته ، وفي كلّ قولٍ قاله . ومن آياته الشهيرة في ذلك أنّه استعظم على نفسه لقب « حكيم » وأعلن ، صريحاً صادقاً ، أنّه لا يستحقّه . ومن هذه الآيات أيضاً أنّه كان يستعظم من تلاميذه المعجبين به أشدَّ إعجاب ، والسائرين بهدّيه وعلى نوره ، أن يلقّبوه بـ « الأستاذ » . وكثيراً ما كان يردّد على مسامعهم أنّه صديقهم لا أستاذهم ، وأنّهم إخوانه وأصدقائه لا تلاميذه . وأروع من هذه الآيات جميعاً في معنى البساطة أسلوبه في التبليغ والتفهم ، فإنّه كان يشدّد على الناس – وحتى على العاديين جدّاً منهم – في أن ينظروا إليه كما ينظر النّدّ إلى النّدّ ، أو قلّ الانسانُ إلى الانسان ، فيجادلوه ويجادلهم ، ويدلّوه ويدلّهم ، فيقتنع منهم بالحقّ من يهندي إليه عن طريق التفاهم والتعاطي . وعلى هذا ، فقد كان باستطاعة أيّ إنسان مهما كان ضيّلاً الشأن عظيم الجهل ، أن يواجه سقراط ويباحثه ويأخذ منه ويعطيه إن أمكنّه أن يعطيه !

ويقدّم لنا عليّ بن أبي طالب سيرة حياةٍ مُشبَّعةٍ بأجمل الأمثلة على بساطة العبقرية . وما أخباره مع الرجل الذي أراد أن يمدحه بفُتوق ما فيه وهو يُضمر له دون ما هو في الحقيقة ومع الآخر الذي سرق له درعه

فقاضاه ، ومع عمر بن الخطاب ساعة شكاه إليه أحدُ الناس ومع
الحرث بن راشد ومع أصحابه يوم تخلّفوا عن نصرته وخصومه الذين
كان يخلّي أمامهم طريقَ الشام إلى معاوية ومع جيش معاوية في صفين
وأولئك الآخرين الذين كان يخرج إليهم قبيلَ القتال حاسرَ الرأس طلقَ
الوجه ومع الخوارج ومع قاتله ابن ملجم ومع المرأة التي جاءت تشكو إليه
ظلمَ بعض الولاة ومع الناس جميعاً وكان يخاطبهم أبدأً بـ : « بالخواني » على
النحو ذاته الذي شاهدناه عند سقراط ، ويقول لهم أبدأً : « إنّما أنا
رجلٌ منكم . لي ما لكم وعليّ ما عليكم » و « لستُ في نفسي بِفَوْقِ
أنْ أخطيء » . أقول ما أخبره هذه ، والكثير غيرها ، إلاّ نماذجُ حياةٍ
رفيعة عن بساطة العبقريّة في خُلُقِ عليّ . ولعلنا نستطيع اختصارها جميعاً
بهذه الحادثة التي رويها في فصلٍ سابق وهي أنّ بعض الناس رأوه وهو
يحمل في ملحنه تمرّاً قد اشتراه ، فقالوا له : ألاّ نحمله عنك ؟ فقال
ببساطة العظيم : « أبو العيال أحقّ بحمله ! »

وقد تحدثنا عن البساطة ومعناها في مسلك ابن أبي طالب في فصل « الخلق
العظيم » . ثم درسنا هذه الصفة العلوية من حيث مدلولها الفلسفي درساً وافياً
في فصل « صدق الحياة » فارجع إليه إن شئت !

وشهرة سقراط في الزهد والتشّف مرتبطة بشهرته في سائر صفاته وأخلاقه .
وقد بلغ به التشّف حدّاً يكاد المرء ألاّ يصدّقه : ومن زهده أنّه كان يسير
بين تلاميذه وبين ألوف الأتبيين المأخوذين بسحره ، حافيّ القدمين لا يستر
جسمه إلاّ قميصٌ واحدٌ وعباءة مرقّعة وكان من الميسور له أن يرتدي الألبسة
المركشة الثمينة التي كان يلبسها أعضاء مجلس الشيوخ وهو أحدُهم . ومن
أخباره أنّه كان يقاوم البردَ والجوعَ والعطشَ أياماً طويلاً ولياليَ قاسيات

مفضلاً هذا الشَّطَفَ في العيش وهذه القساوة على كلِّ ما يمكنه الحصول عليه من أسباب النعيم وأحوال الرفاهية . كان يقاوم أهوال الطبيعة بخشونةٍ نادرة ، ونفسٍ راضية : ووجهٍ بشوش ، لا همَّ له إلاَّ أن يدعو الأغارقة إلى العلم والفضيلة والجمال ، مطوّفاً في شوارع أثينا ، سائلاً مجيئاً محاوراً معلماً على نهج أصحاب الرسائل .

ولسنا نزعم أن أخبار عليّ في الزهد والتقشّف تفوق أخبار سقراط . ولكنّ الذي نراه هو أن عليّاً زاهداً متقشّفاً كسقراط لا أكثر منه ولا أقلّ . فقد كان ميله عن متاع الدنيا أشبه بميل سقراط عنه . وكان صبره على الجوع والعطش والبرد والحرّ صبر سقراط . ولعلّه من غريب الصدفة أن يتشابه سقراط وعليّ حتى بميل كلٍّ منهما إلى أن يخشن عيشه ويقسو ، وإلى أن يكره اعتياد ما طاب أو لان من شؤون المأكل والملبس والسكن . فهذا أحد الناس يأتي عليّاً بطعام نفيسٍ حلويّ يقال له الفالودج ، فلا يأكله عليّ بل ينظر إليه قائلاً : « والله إنك لطيب الريح ، حسن اللون ، طيب الطعم ، ولكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتد ! » وها هو يرعه البرد ويشتدّ عليه الصقيع فلا يتخذ له عدّة من دثارٍ يقيه أذى البرد . وقد طالما روى الرواة أخبار عليّ وهو مكتفٍ من الطعام بالخبز اليابس يكسره على ركبته ، ومن اللباس بما لا يقيه حرّاً ولا برداً ، ومن المسكن بما يشبه الخصاص ، حتى لتجوز على سقراط أخباره في هذا الباب ، وتجاوز عليه أخبار سقراط وكأنّها هنا وهناك أخبار رجلٍ واحد .

ولم يكن زهد عليّ عن حاجةٍ كما أن زهد سقراط لم يكن وليد الحاجة . بل هو نهج ارتضاه لنفسه لعاملين اثنين فيما نرى ، أولهما أنه صاحب رسالة في الناس ، وأصحاب الرسائل لا يعينهم من أمر دنياهم أكثر ممّا بقصي

عن أجسامهم يد الموت . فانظر كيف تَقشّف سقراط هذا التقشّف القريد وهو يدعو إلى الفضيلة والعلم والجمال ثم يموت في سبيل ما يدعو إليه . ثم انظر كيف تقشّف عليّ هذا التقشّف القريد وهو يدعو إلى الفضيلة والعلم والحقّ - والحقّ والجمال شيء واحد - ثم يموت في سبيل ما يدعو إليه . فإنك إن فعلت ذلك أدركت أنّ في شخصيّة صاحب الرسالة قوًى ترفعه عن كلّ ما يتراحم عليه الناس ومن أجله يتفانون . وثاني الأمرين أنّ عليّاً كان يترفع عن أن ينعم بما كُلي أو ملبس وفي الأرض قوم لا ينعمون . وقد قال هو نفسه مخاطباً عامله على البصرة : « فوالله ما كثرتُ من دنياكم تبرا ، ولا ادّخرتُ من غنائمها وفراً ، ولا أعددتُ لبالي ثوباً طيّباً . ولو شئتُ لاهتديت الطريقَ إلى مصفى هذا العسل ولُبّاب هذا القمح ونسائج هذا القزّ ، ولكنّ هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة ولعلّ بالحجاز أو البماة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبّع ! أو أبيتُ ميطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرّى ؟ ! أفنفع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر ؟ »

ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ الأمر الثاني إنّما هو منبثقٌ عن الأوّل طبعاً وأصلاً . فلو لم يكن عليّ صاحب رسالة ، لَمَا ترفع عن أن ينعم في أرضٍ عليها قومٌ أشقياء !

وهذا الزهد في الخلق يستلزم العفّة في كلّ ما يبلذّ الحواس . وهكذا كان سقراط عفيفاً لا تُغريه المُلذّاتُ الحسيّة ولا تهتف به فِتْنُ الأرض ولو اجتمعت في مكانٍ واحدٍ في لحظةٍ واحدة . وكان يرى أن الاستسلام لشهوات الحسّ تهوي بالإنسان إلى صفوف الكائنات الدنيا من الحيوانات والبهائم ، وأنّ الاعتدال في هذه الميول هو الأفضل . والثابت أنّ سقراط لم يذهب في

ملاقته بالمرأة مذهب الأكثرين من أبناء زمانه الذين كانوا يرون فيها أداة لهوٍ رخيصة . بل احترمها ووضعها في المكان اللائق بها من المجتمع القائم على ركنين اثنين هما الرجل والمرأة . وطالما حارب سقراط تلك الفلسفات والآراء الداعية إلى الاستهتار واللهو المبذّل . وقد أعطى بسيرته أجمل نماذج العفة والاعتدال .

وهذه العفة في كلّ ما يلذّ الحواسّ خلقٌ من أخلاق عليّ . وإنّه لَمِمّا يلفت النظر حقّاً أن يشدّ ابنُ أبي طالب عن صفةٍ كانت تلزم معظم أبناء عصره وهي التهالك على الاستمتاع الحسّي ولا سيّما بالمرأة . وإنّ أمره في هذا الشأن لا يختلف عن أمر سقراط . ومن أخباره أنّه كان يلزم العفة ، ويأمر الرجال بأنْ يكرّموا أنفسهم عن الاستسلام للشهوات ، ويطلب إليهم ألاّ يمدّوا أبصارهم إلى امرأةٍ تعبر في الطريق . وكان في أكثر المناسبات يمتدح أصحاب العفة وأصحاب مذهب الاعتدال في اللذائذ الحسيّة . وممّا امتدح به المسيح أنّه لم يُفْتَنْ بالمرأة كما أنّه لم يُفْتَنْ بموضوعٍ آخر من موضوعات الحسن^(١) .

ولعلّه من السهل أن يدرك المرء أنّ مثل هذه الأخلاق السقراطية إنّما تستلزم إرادةً فذةً لا يتيسّر مثلها إلّا للممتازين من أبناء آدم وحواء ، والإرادة في الحقيقة قوةٌ رئيسية من قوى حكيم الإغريق . بل إنّه كان من قوّة الإرادة بحيث يقسو على نفسه قسوةً لا مثيل لها ، وبحيث يشتدّ في مذهبهِ على صورةٍ ترفعُ النفوسَ والقلوبَ إليه . وليست هذه الإرادة القويّة في خلق سقراط شيئاً منفصلاً عمّا عداه . بل إنّها مُجْتَمَعُ صفاته وأخلاقه إذ تنسجم وتتحد في قوّةٍ صادقةٍ تحيا وتريد فلا تقف ولا تراجع .

(١) راجع قول عليّ في المسيح بباب « من روائع الإمام » تحت عنوان « وشادمه يده » .

ولكنّ الذي كان يستهدف تلقين الأتنيين الفضائل الإنسانية الأساسية ، كان يصوغ هذه القسوة الإرادية في عباراتٍ وديعةٍ ليتمّ يمكنها اجتذاب الناس وكسب قلوبهم . وعلى هذا الأساس استطاع سقراط أن يميل بالداعرين والفاجرين عن الأهواء المبتذلة والارتفاع بهم إلى عالمٍ أوسع وآفاقٍ أجمل وأبهى وأشهى ! من ذلك ما كان من تأثر « ألسياد » الفاجر بحملات سقراط على الفجور .

« وإليك هذا النموذج الذي يصوّر به أفلاطون — على لسان ألسياد — موقفَ هذا الرجل أمام تأنيبات الحكيم العظيم . فيقول في روايةٍ عن ألسياد ما ملخصه :

« إنّ سقراط كان يحتوي في داخله على سموٍّ غريب لا يكاد يتّصل بأحدٍ من بني الإنسان حتى يفتنه ويخضعه لما يريد . وهاكم الأثر الذي كانت خطبته تركه في نفسي ونحلمي على أن أوجه إليه هذه العبارات :

« حينما تتكلّم أُمّامي ، يخفق قلبي بقوة ! إنّ كلماتك تُسيلُ الدموعَ من عيني ! ولستُ أنا الوحيد في ذلك . بل إنّني أرى عدداً كبيراً من الناس يشعرون بنفس الإنفعال الذي أشعر به . إنّ بيركلبس وخطباءنا الآخرين العظماء كانوا يظهرون في فصحاء بدون شكّ ، ولكنهم لم يشعروني بشيء يشبه هذا ، فروحي لم تكن تضطرب عند سماع خطبهم ، ولم تكن نحسّ بمهانة أو سخطٍ على نفسها بسبب العبوديّة التي كانت ساقطةً فيها ، في حين أنّي كنتُ وأنا أسمع سقراط دائماً مستعدّاً للتفكير في أنّ الحياة على النحو الذي كنتُ أحياء ليست جديرةً بالبقاء . بل إنّ سقراط وحده هو الذي جعلني أحمرّ خجلاً . لأنني كنت أدرك أنّي لن أستطيع أن أعارض في نصائحه ، ومع ذلك فحين كنت أفارقه لم أكن أجد القوة التي بها أتخلّى عن إرضاء

وبمثل هذه الإرادة القوية التي هي مُجْتَمَع أخلاقه وصفاته ، كان يجابه الفلاسفة السفسطائيين والشيوخ والماجنين والزعماء والطغاة والأثرياء والفاجرين وأصحاب السلطان فيوقعهم في الخطأ والتناقض ، فيخجلون من أنفسهم وينبشون ، فيسخطون عليه أو يرضون ويقنعون !

وكما كانت هذه الإرادة مُجْتَمَع أخلاق وصفات عند سقراط ، كانت كذلك عند عليّ . وكما قسا سقراط على نفسه واشتدّ في مذهبه ، قسا عليّ واشتدّ . والإرادة في نهج عليّ قوة يمكن تثقيفها وإنماؤها بتثقيف الميول الشريفة وإنماء الغايات النبيلة . وهي لديه ظاهرة العقل الراجح والتعبير الأكمل عن الخلق السليم والصمود على رؤوس الجبال أمام كلّ مُنْحَدَر !

بهذه الإرادة الفذة - التي قلنا في تعريفها إنها صفات وأخلاق تنسجم وتتحد في قوة صادقة تحيا وتريد فلا تقف ولا تراجع - وقف عليّ في وجه مناوئيه وقد ملأوا السهل والجبل يقول : « والله لو تظاهرت (١) العربُ على قتالي لَمَّا وَلَيْتُ عنها ! » وبهذه الإرادة أيضاً كان ينصح إلى نفسه وإلى الناس قائلاً : « لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة مَنْ يسلكه ! » وبهذه الإرادة الصلبة القاسية الشاحنة كان عليّ يواجه عصره فيقول لزعمائته ووجهائه وأصحاب الجيوش والفاذنين فيه جميعاً إذا هم أخطأوا وسلكوا إلى أخطائهم سيلاً : « لا ! » ويقول للمساكين والمستضعفين والمضطهدين الذين يزيده إيوأؤهم ضعفاً ويزيد خصومه قوة : « تعالوا إليّ ! »

(١) ببعض التصرف عن « الفلسفة الاغريقية » الجزء الاول ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) تظاهرت : تعاونت .

وبهذه الإرادة الصلبة القاسية الشاحنة كان يطيب لنفسه ما اعتادته من شظف العيش ويعودها منه ما لم تعتد !

عاش عليّ هذه الإرادة العاقلة الخيرة ودعا الناس إلى أن يعقلوا ويكونوا خيّرين بعمل هذه الإرادة . وقد جعلها أبداً ظهيرة للعقل أو صورة عملية عن حقيقته كما هي الحال لدى حكيم الأغارقة العظيم . وكان مؤمناً بعمل الإرادة إيمانه بإمكانات الانسان . لذلك كان يردّد هذا القول الأساس في معنى الإرادة ومعنى الإمكانيات الإنسانية : « ولا يقولنّ أحدكم إنّ أحداً أولى بفعل الخير مني فيكون والله كذلك ! » وإذا كانت الأهواء والتزوات في مذهب عليّ مطية الفتنة . أو دليلها . فإنّ الإرادة الخيرة مطية العقل ودليله . لذلك كان يقول : « قاتلْ هواك بعقلك ! » والعقل لا يقاتل الهوى إلاّ إذا « أراد » ذلك ، أو امنطى الإرادة إلى هذا القتال . وإيمانه بقدرة الإرادة وبضرورة اللجوء إليها . تجده في أساس هذه الكلمات : « إنّ لم تكن حليماً فتحلّم ! » و « كنْ لنفسك مانعاً رادعاً » و « أنْ تُذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلالة المعصية » .

وقد يقسو عليّ في تربية الإرادة قسوة لا نجد لها مثيلاً حتى عند سقراط . من ذلك أنه كان يتعمّد أحياناً العمل الإرادي لا لشيء إلاّ لتقوية الإرادة ومخالفة الهوى ، فيقول : « أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه ! » والذي تُكره نفسك عليه هو ما تخالف به شهواتك وهواك .

ولم تكن الصعوبة التي يواجهها الناس في تنمية الإرادة وتقويتها لتخفى على ابن أبي طالب وهو من هو في فهم الطباع والميول والتزعات . ولكنّ إيمانه بالعقل كان يحمله أبداً على أن يؤمن بإمكانات الناس على تنمية إراداتهم وتوجيهها توجيهاً خيراً سليماً . ومما يدلّنا على إدراكه هذه الصعوبة التي أشرنا إليها ، هذه

لكلمات الروائع : « تصفيةُ العمل أشدُّ من العمل . وتخليصُ النية من الفساد أشدُّ على العاملين من طول الجهاد ! »

ولكنّ عليّاً صبورٌ وداعٍ إلى الصبر بوصفه عملاً إرادياً . لذلك كان شتدّ في ما يطلب إلى الإرادة الإنسانية أن تعمله ، اشتدادَه في مطالبة نفسه . الناس أن يصبروا على ما يكرهون وعمّا يحبّون . وما كلمة شكسير هذه : « مَنْ لا إرادة له لا عقل له » إلاّ شكلٌ ثانٍ لمعنى هذه الكلمة العلوية الفائلة : « لا إيمان لمن لا صبر له ! »

وقبل أن نختم الحديث بهذا الصدد ، لا بدّ من الإشارة إلى مشابهةٍ فريدةٍ بين عليّ وسقراط في ما يتعلق بالإرادة الحيرة ، ونتائجها :

رأبنا أنّ ألسبياد يخاطب سقراط قائلاً : « إنّ كلماتك تُسبِلُ الدموع من عينيّ ! ولست أنا الوحيد في ذلك ، بل إنني أرى عدداً كبيراً من الناس يشعرون بنفس الإنفعال الذي أشعر به ! »

ومن الغريب والطريف معاً أن يحدثنا المحدثون أنّ مثل هذا التأثير على الناس كان لابن أبي طالب . فهذا كميل بن زياد يقول إنه كان يسأل عليّاً فيجيبه ، فسرعان ما تنهلّ الدموعُ من عينيه حتى تبلّل قميصه ! وممّا رُوِيَ أنّ صاحباً لعليّ يقال له « همام » قال له : « يا أمير المؤمنين ، صف لي المتّقين حتى كأني أنظر إليهم ! » فتأقّل عليّ بالجواب قليلاً ثم اندفع في كلامٍ طويلٍ كأنّه السحر ، وضَعَ فيه حرارة الصدق وحرارة البلاغة وكأنّه يضع فيه نفسه . فما كاد ينهي كلامه حتى صُعِقَ همام صعقةً عنيفةً قيل إنّ الكثيرين ممّن استمعوا إلى عليّ خطيباً أصيبوا بمثلها !

ولا يستغربنّ القارئ مثل هذه الأخبار عن سقراط وعليّ وعمّا لأقوالهما

من فعلٍ في النفوس والقلوب . فإنّ العظيم الحقّ ، لا بدّ أن يكون وجودياً بالمعنى الذي حدّدنا به الوجودية . ومنّ كان وجودياً عظيماً اتّحدتْ أفكاره وعواطفه وأعماله وأقواله فإذا هي وحدةٌ صادقةٌ دافئةٌ تنبعث إلى النفوس حولها فتحرّك فيها نزعات إنسانيةً كاملةً ، وتحمل أصحابها على الندم الذي قد يتعاضم فيصعق صاحبه صُعقاً عاجلاً .

وفي هذه الحقيقة يكمن معنى هذه الكلمة لابن أبي طالب إذ يقول : « ما لقبت رجلاً إلاّ أعاني على نفسه ! »

وكان ممّا طُبع عليه حكيم اليونان ذلك الميل الشديد إلى الإنصراف الكلّي ، في كثيرٍ من الحالات . إلى حياته الداخلية بتفحصها وبنيتها في مجاهلها البعيدة ثم إلى الاستغراق في التأمل بالكون الخارجي وجمالياته . وكثيراً ما كان يرى وهو من هذا التأمل في نشوةٍ تشبه الدهول .

وربّما كان هذا الطبع في جميع أصحاب الرسالات على السواء . فهؤلاء نفرٌ من المتصلين بعليّ بروون ، كلٌّ منهم في مكان ، أنهم طالما رأوا عليّاً منصرفاً إلى نفسه فاحصاً بأكياً . أو طائفاً في الليل هنا أو هناك متبصّراً في ذاته متهدّجاً في مشيئته . وها هو يتأمّل الكون بقلبه وحواسّه تأملاً طويلاً عميقاً فيعطينا من نتائجه روائع في الوصف الدقيق الذي تهزّك دقّته ومقدار ما فيه من ثمار الاستغراق في التأمل . وكفاك عليه دليلاً تصويره للنملة والخفّاش والطاووس وبدائع الأرض والسماء !

وممّا يجري به القولُ على سقراط وعليّ ذلك الجزعُ الذي أبداه كلٌّ منهما على أُمته ومصيرها من بعده . وليس بالتفاهة في هذا الجزع من غرابة الصدفة بقدر ما فيه من وحدة الطباع . وليس فيه من الخبر المتفق بمقدار ما فيه من

الخلق المتفق . فإنّ في جزع سقراط على مصير أمته بعد مصرعه دليلاً على أنّه واثق بنفسه وخلقه ورسالته وبأنّه الخيرُ ببلغ الأغارقة فرفضوه ، فحقّ له أن يجزع وأن يهلع . وفيه دليلٌ كذلك على أنّ قوى الخير في خلق سقراط لم تضعف ولم تتضاءل حتى في ساعة موته مغبوناً مظلوماً ، لذلك راح يتحسّر على مصير الناس وقد تنكروا للفضيلة والمعرفة المتمثلتين فيه ، ولم يتحسّر على مصيره هو بالذات . ولو همّة هذا المصير لَمَا حوكم ولَمَا مات .

وقصة عليّ بهذا الشأن هي قصة سقراط لا تقلّ ولا تزيد . وإنّ من له أدنى إلمامٍ بسيرة ابن أبي طالب ، يدرك صحّة ما نقول . ولسوف يرى القارئ في فصل آتٍ مبلغ ما جزع عليّ على مصير الناس من بعده وكان واثقاً بأنّه الحقّ والفضيلة ، وبأنّ الناس سيسقطون بعد زمانه بأيدي من أنكروه من الفجرة والآثمين والحكّام والتّجار .

على أنّ عليّاً يختلف عن سقراط في التعبير عن هذا الجزع .

أمّا سقراط ، وقد عابوه بآثامهم واتّهموه بما جنّت أيديهم ، فقد عبّر عن جزعه الكثير بصمت كأنّه صمّت الليل حين يلفك من كلّ جانب وتساءله فلا يجيب ! أو قلّ عبّر عن جزعه « باستعلاء الحزين الذي لا يجد كرامةً للكلام والذي سئم تكاليف الحياة بعد ما هوت السفينة التي عاش لها . ولقد نفّس صمته بكبرياء الحقّ ! وهو على أيّ معنى من المعاني صمّت جميلٌ أكرم من كلّ قول . أرايت لو أنّ أباً شيخاً كبيراً قد غاله بنوه بعدما أنفق في سبيل سعادتهم عقله وحياته (١) ؟ ! »

أمّا عليّ ، وقد عابوه بآثامهم واتّهموه بما جنّت أيديهم ، فقد عبّر عن

(١) ببمض التصرف عن كتاب « سقراط » للدكتور يهنسي ص ١٢٢ .

جزّعه الكثير بالصمت تارةً وبالقول النافع تارةً أخرى . ومما قاله في تلهفته على ما سيصير إليه الناس من بعده وقد خدعوا بالباطل : « أيتها الأمة التي خدعتُ فانخدعتُ ، وعرفتُ خديعةَ مَنْ خدعها فأصرتُ ! » ومنه ذلك الكلام الذي بالأسى على مصائر الناس غداً ... عندما يبعث بهم العابثون ، ومطلعه : « سوف يأتي عليكم زمانٌ من بعدي الخ ... »

ويهزك من أمر سقراطٍ وعليّ شيءٌ يتعلّق بهما بمقدار ما يتعلّق بموقف البشر من خلقٍ العظيم ، ساعةً يخلو البشر إلى أنفسهم في فسحات العصور فيحاكون الناس والأحداث ويحكمون لهم أو عليهم ، مبالغين أو عادلين !

يهزك أنْ اشتهار سقراط بهذه الصفات وهذه الأخلاق دفعَ الكثيرَ من معاصريه ومنَ يتعدّهم إلى رَفَعِهِ مرتبةً فوق مراتب البشر مهما سَمَوْا وأيّاً كانوا . حتّى أنْ أفلاطون نفسه كان يتساءل أبداً إذا كان سقراط إنساناً من الناس أو أنه فوق ذلك . ومما جاء على لسانه بعد موت سقراط أنْ ما عمله أستاذه العظيم ليس من طبيعة البشر !

وما قيل في أخلاق سقراط وفي صفاته قيل في بلاغته وسحر بيانه . وما بيّنه في مهجة الناس وفي حُكْمِهِمْ إلّا مجرّئ من مجاري أخلاقه وصفاته ومظهرٌ من مظاهر وجوده الواحدةٍ على تعدّدها واختلاف أشكالها .

ويهزك أنْ اشتهار عليّ بهذه الصفات وهذه الأخلاق دفعَ الكثيرَ من معاصريه إلى رَفَعِهِ مرتبةً فوق مراتب البشر مهما سَمَوْا وأيّاً كانوا . ودفعَتْ محبّيه بعد زمانه إلى أن ينظروا إليه مثل هذه النظرة أيضاً . حتّى أنْ قوماً من أنصاره في زمانه لم يكتفوا برفعه فوق البشر بل إنهم ألّهوه ، فهاله أمرهم وهدّدهم بأشدّ عقاب ، فألّخوا على ما هم فيه من رأي . فأنزّل فيهم عقابه .

وكان من أمر الناس بعد زمانه أن انقسموا في شأنه فوق ما انقسموا في شأن سقراط . فقال بعضهم إنْ صاحب هذه الأخلاق بشرٌ ممتاز . وقال آخرون

بل إنه في مرتبة متوسطة بين البشر والآلهة . أمّا الغلاة فآلهوه .

وما قيل في أخلاق عليّ وفي صفاته قيل في بلاغته وسحر بيانه . وما بيانه في مهجة الناس وفي حُكْمهم إلّا مجرّى من مجاري أخلاقه وصفاته ومظهر من مظاهر وجوده الواحدة على تعدّدها واختلاف أشكالها . حتّى أنّ بعضهم يصف كلامه بأنّه من العجائب التي لا يشاركه أحدٌ فيها ، يقول :

ومن عجائبه ... التي انفرد بها وأمين المشاركة فيها ، أنّ كلامه الوارد في الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر ، إذا تأملته المتأمل وفكّر فيه المتفكّر ، وخلع من قلبه ، لم يعترضه الشكّ في أنّه من كلامٍ من لا حظّ له في غير الزهادة ... قد قُبِعَ في كِسْر بيت ^(١) أو انقطع في سَفْح جبل ، لا يسمع إلّا حسّه ، ولا يرى إلّا نفسه الخ ^(٢) . أو يقول : « ومع ذلك فقد سَبَقَ وقصّروا ، وتقدّم وتأخّروا ولأنّ كلامه الكلام الذي عليه مسّحة من العلم الإلهي ^(٣) » .

ومنهم من يرى « أنّ كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق ! » وهكذا يرى القارئ بعد هذه اللمحات الحافظة من الإطلاّع على أخلاق سقراط وعليّ ، إلى أيّ مدّى يمكن للعقول النيرة والقلوب الخيرة والنفوس الصافية أن ترتفع في درجات الطبيعة الانسانية التي لا تقف عند حدٍّ في إمكاناتها على الصعود والسمو .

وهكذا يرى إلى أيّ حدٍّ تتلاقى هذه العقول وهذه القلوب وهذه النفوس في خدمة الانسانية الواحدة التي تعتزّ بسقراط تُرائاً عظيماً لها كما تعتزّ بابن أبي طالب . فكلاهما في الموازين الكبيرة خلُقَ هو قوّة الانسان الحقيقية وهو الصلابة الفدّة بين موانع الأخلاق ، وهو الشموخ إلى العلّاء بين ما هوى وانحدر من هزيل الصفات !

(١) قُبِعَ الرجل : أدخل رأسه في قميصه ، أراد منه : انزوى . وكسر البيت : جانب الخباء .

(٢ و ٣) من مقدمة الشريف الرضي لنهج البلاغة .

خذ نفسك بالحق

- اعرف نفسك بنفسك سقراط
- مَنْ عرفَ نفسه فقد عرف ربه عليّ
- المعرفة في نهجِ عليّ وسقراط محبةٌ وحياةٌ وصداقةٌ للوجود .
- فإذا شئتَ أنْ تحبَّ وتحيا وتصادق الكونَ في مذهب الحكيمين ،
- فاعرف !

تمرّ القرون والأجيالُ خاشعةً أمام جبل البرناس العظيم ، حيث تغرق الدنيا في نشواتها الكبرى ويسبح الكونُ من مفاتنه في سكرات لا انتهاء لها ، وحيث حرّم الدخول وحرّمت السكنى إلاّ على الشعراء والإلهات الموحيات يجمعن في أرواحهنّ وأجسادهنّ جمالات الأرض والسماء فينفثنّها في الشعراء وحيّاً يغزون به الوجودَ فإذا بالوجود يغدو جمالاً وسحراً وآياتٍ شهيّاتٍ عجباً !

وعلى قدم البرناس العظيم يشمخ معبد « ديلف » الذي جمعَ من معجزات الأغارقة فنوناً في الرسم والنحت والأساطير التي ورائها ألف حقيقة .

وبين ما يضمّه المعبدُ من نِتاج الروح الإغريقي كلماتٌ ثلاثٌ تُوجّ بها المدخلُ الضخمُ محفورةٌ على جبينه حفرأً أبدّياً .

كلماتٌ عاشها حكيم أثينا وشيّد عليها فلسفة ، وأقام منهاجاً ، وشاء أن
بني إنساناً جديداً يريد أن يوغل فيه توصلاً إلى حقائق كثيرة ثم إلى حقيقة
الحياة الكبرى والأخيرة : إلى الجمال !

قال سقراط : « اعرف نفسك بنفسك » .

ولكي نفهم سقراط فهماً صحيحاً لا بدّ من إدراك هذه الحكمة أولاً ،
عليها يقوم بناؤه . أمّا ما نراه من معناها الذي أراده حكيم الإغريق ، فإليك
ملاصته :

لقد رأى سقراط في الإنسان صورةً كاملة الحدود للقوة الشاملة العامة التي
حكم الوجود ونسب مجراه . أمّا ما يتميز به الإنسان فيجعله جذيراً بتمثيل
نوة الوجود العامة ، فالذكاء . وينقل لنا كسينوفون حواراً دار بين سقراط
وأربستوديم حول التعمّم الكبرى التي وهبها قوة الوجود الإنسان ، فيروي
أن سقراط قال لمحدثه إن النفس الذكيّة هي أعظم ما وهبته هذه القوة
للإنسان ، وإن عنايتها في إيجادها على هذا الشكل الذكي إنما هي عناية فائقة
حقاً .

وفي فلاسفة الإغريق نفر كانوا يقولون إن الإنسان ذكي لأن له يدين
ورجلين ، وبين هؤلاء الفيلسوف أناكراكور الذي أجابه سقراط قائلاً إن
تفوق الإنسان لا يمكن تعليله بتكوينه الجسدي وحسب ، بل إن السبب الحقيقي
في تفوقه إنما يكمن في نفسه بوصفها نفساً ذكيّة ، ثم سعى في إقناعه بعظمة
الذكاء الوجودي الشامل ، عن طريق المقابلة بينه وبين ذكاء النفس الإنسانية .
ومما قاله إذ ذاك إن النفس جزء من ذكاء الوجود الشامل بمقدار ما الجسد
جزء من العناصر الماديّة التي يتألف منها الوجود . ويمكننا أن نعرف قوة
حكمة الوجود بما نجد منها في أنفسنا .

وتتلاحق آراء سقراط في هذا الباب حتى تكون فلسفة توحيدية تقول
إله واحد هو إله الانبياء المشاركة بالذات . ويخلص إلى القول بأن نفوس
لأفراد تساهم بإدارة هذا الكون بوصفها نفوساً أجزاء من نفس كلية واحدة
في روح الوجود أو الله .

وهنا يكمن المعنى البعيد لهذه الكلمة : « اعرف نفسك بنفسك » . فلكي
يعرف الإنسان ذاته عليه أن يعتبر نفسه نفساً ذكية ، وأن يدرك بأنه شبيه بالله .
وبما أن ذكاء الوجود المهيمن ، أو الله ، يسيّر أحوال الكون العامة بعدالة
صارمة لا تتجزأ ولا تراجع . فإن هذه النفس لا بد لها أن تعرف ذاتها
فتعدل وتصمد في وجه الأعاصير التي تحاول أن تميل بها عن الفضيلة .

وقد ظن بعضهم أن في هذا الأساس السقراطي لفلسفة الوجود الأنساني ،
شيئاً من الإنكالية أو الجبرية التي نجدها في كثير من الأديان والفلسفات القديمة .
غير أن الواقع هو عكس ذلك تماماً . فإن هذا الأساس السقراطي إنما كان
ثورة عارمة على فلسفات زمانه الإنكالية . فإذا ربطنا كل مبدأ من مبادئ
الفكر والفلسفة بحركة التطور التاريخي ومراحله التي تفرض ألواناً من المبادئ
والأفكار فرضاً ، تبين لنا أن سقراط إنما أراد تحطيم القلق والاضطراب
الذين غرق فيهما أبناء أثينا في عصره ، وكان مصدرهما الأول إيمان الأثينيين
بوجود عدد عظيم من الآلهة المتقاسمين المتناحرين بالأهواء والشهوات .
فعمد أول ما عمدها هذا الصدد إلى القول بإله واحد هو عبارة عن قوة
حكيمه عادلة شاملة تقوم بالحق وتحرس نظم الوجود بالحق . ومثل هذا
الاعتقاد أدعى إلى الطمأنينة والارتياح وإلى العمل بالاستقامة والعمل الخير .
أضف إلى ذلك أن الأثينيين كانوا يميلون إلى الاعتقاد ثم إلى الشعور بأن آلهتهم
المتعددة تحكمهم بالهوى ، فأراد لهم سقراط إلهاً واحداً يحكمهم بالحق .

ولم يكن الأغارقة يحسبون لأنفسهم حساباً تجاه إرادات الآلهة وأهوائها .
نعم ، في نظر أنفسهم ، آلات يجرّكها هؤلاء الآلهة كيفما شاؤوا . فإذا

أصابهم خيرٌ أو شرٌّ ، في حالات السلم أو أحوال الحرب ، فإنّما يأتيهم ذلك بإرادة الآلهة دون ما يريدون هم . والسبب البعيد في ذلك قائمٌ بالاعتقاد بأنّ الآلهة منفصلون عن البشر بأصل وجودهم ثم بغاية هذا الوجود . ثمّ إنّ الدليل على وجودهم لا يقوم على عقيدة أصلها الانسانُ بالذات . أمّا في مذهب سقراط فالإله لا يحرك الناس بالهوى ، بل بأصولٍ أوليّةٍ أبديةٍ قائمة بالعدل ثابتة بالحق . ثمّ إنّ وجود الانسان ذاته دليلٌ على وجود هذه القوة العامة ، ولولا وجوده على هذا الشكل لما كان سببٌ يدعونا إلى التفكير بوجودها .

ولهذا قال شيشرون إنّ سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، بل إنّه أدخلها إلى المدن والمنازل . وأنه جعل محورها الانسان بعد أن كانت تدور على مفاهيم غيبية بعيدة عن الانسان . ولهذا دارت فلسفة سقراط ، بالفعل ، حول الانسان : فرداً وجماعة ؛ وحول الدولة . والنظم الاجتماعية ، ومبادئ الأخلاق .

ولهذا أيضاً قلنا إنّ هذا المبدأ الذي جعله سقراط أساساً بعيداً لفلسفته في الناس ، كان ثورة على زمانه حتى انه « استحق » نقمة الحكّام والفلاسفة والشعب جميعاً في إغريقيا . ولا يسعنا اليوم ، أيّاً كان رأينا في أساس فلسفته هذه ، إلّا الاعتراف بأنّه من أضخم الثائرين في التاريخ ، ومن أصلبهم عوداً وأعظمهم شأنًا ، إذ لا يمكننا أن نتجاهل الزمن والظروف والأحوال والمرحلة التاريخية التي قال بها سقراط قوله ، ورأى رأيه .

ويكفي اليوم من معنى ثورة سقراط على عقائد زمانه التي أخرجت الانسان من دائرة الوجود العليا ، ما أعلنه من أنّ الدليل على وجود الإله هو وجود

الانسان أولاً ؛ ثم ما ردّه به على أناكراكور وكان يتخذ من حكمة الاله وجوداً على دليله ، قائلاً ؛ إني آخذ على أناكراكور أنه جعل من حكمة الاله دليلاً على وجوده ، ولم يجعل إحسانه وخيريته دليلاً على وجوده ! وفي هذا الرأي يجعل سقراطُ خيرَ الوجود العامّ وما يصيب الانسانَ منه مبرراً لوجود الاله ومصباً لغايته ، كما جعل وجود الانسان نفسه دليلاً على وجوده .

هذا من ناحية المبدأ والأساس ، أما الناحية العملية الناجمة عن هذه الكلمة « إعرف نفسك بنفسك » . والتي دعت شيشرون والقداى إلى أن يقولوا بأنّ سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض وأدخلها إلى المدن والمنازل ، فقد كانت خيراً وسلاماً على الناس ، لأنها كانت حصراً للقيّم الانسانية الكبرى في الانسان نفسه ، وخلقاً لفلسفة جديدة هي فلسفة الاخلاق !

وإذا نحن عرفنا النتائج العملية التي كانت لهذا الأساس السقراطي في توجيه الانسان فيما بعد ، عرفنا مقدار ما عمله هذا الحكيم العظيم من أجل خير البشر في مرحلة من أشدّ مراحل التاريخ خطورةً في ما يتعلق بفلسفة الأخلاق وفلسفة الدولة . فإنّ سقراط بتوجيهه الفلسفة هذا التوجيه الجديد « إنّما تناول بالحلّ والايضاح أعقد المشاكل الفلسفية مثل مسألة الحقيقة المطلقة ، ومثل مشكلة الروابط الذهنية العامة التي هي موضوع المعرفة ، لا الأجزاء الخارجية . تلك المسألة الدقيقة التي كانت أساساً شكلياً لنظرية « المثل » الأفلاطونية ، وعنصرأ صورياً للمنطق الأرسطوطاليسي الذي ظلّ معيار التعقّلات البشرية زهاء عشرين قرناً كاملة لم يستحدث أثناءها فيه أحدٌ شيئاً يذكر إلاّ ديكارت ذلك الفيلسوف الفرنسي الجليل الذي كان مذهبه مدرسةً جديدةً للفلسفة ^(١) .

(١) الفلسفة الاغريقية ص ١٦٣ .

بدأ سقراط فلسفته العملية هذه بأن نبّه الانسان إلى أن « يعرف » نفسه ، وأن يستخرج ما اختبأ فيها من صُور « الخير والفضيلة » أو صور « الجمال » وهي صُور القيم الإنسانية العالية ، معلماً أن العلم هو الفلسفة ، وأن الفلسفة ليست شيئاً غير « معرفة » الانسان نفسه بنفسه توصلاً إلى معرفة عظمة الانسان ومجده وشأنه كفردٍ ثمّ كجماعة . وبهذه « المعرفة » يوقّد في قلوب الناس حبّ الجمال - الذي يجمع كل القيم الإنسانية - فيتوصّلون بواسطة الشعر والموسيقى التابعين من مصدر الجمال وهو النفس، إلى منزلة سامية تؤهلهم لبناء دولة جديدةٍ خيرةٍ يجد أفرادها الحبّ في كلّ شيء !

وهكذا تكون معرفة النفس في فلسفة سقراط أساس المعارف التي تستخدم الانسان . والأساس الأوّل في كلّ خيرٍ وفضيلة .

وبهذه المعرفة توصّل سقراط إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ يضبط الكون بالعدل والحقّ . هذا الإيمان الذي دعا بعض أساتذة الفلسفة المحدثين إلى الاعتراف بأنّ سقراط كان ثورةً خيرةً على زمانه قائلين : « إنّ سقراط هو ملهم الألوهية الصحيحة في الغرب الذي كان قبله يعبد آلهة الأساطير والأوهام والحياة والفجور والاستبداد . ثم صار منذ ذلك العهد يعرف إله الفضيلة والأخلاق الذي رسمه سقراط (١) » .

وعلى أساس هذه المعرفة بنى سقراط علم الأخلاق الذي شمع على أيدي تلاميذه فيما بعد . ممّا دعا « بروتو » إلى أن يسمي سقراط « المؤسس الأوّل لعلم الأخلاق » ودعا غيره إلى تسميته « أبا الفضيلة » .

أمّا الخير في فلسفة سقراط الأخلاقية فقسمان : خيرٌ حقيقي وخيرٌ زائف .

(١) يتصرف عن « الفلسفة الاغريقية » عن الاستاذين الفرنسيين جانيه وسيي .

والخير الحقيقي هو الذي يتفق عليه الجميع ولا يختلف في أمره اثنان لِمَا يحمل من الحقيقة المطلقة ولِمَا ينتفع به الناس جميعاً في معنى الفضيلة ، وهو بذلك لا يحتاج إلى خيرٍ غيره ليكمّله . أمّا الخير الزائف فهو ما يراه الفرد خيراً له دونما نظريٍّ إلى مقدار ما يحمل من الحقيقة المطلقة ، ودونما نظريٍّ كذلك إلى خير الجماعة ، لذلك فهو ناقصٌ وغير ثابت ولا يمكنه أن يكتفي بنفسه . أمّا مثال الخير الحقيقي ، فالحكمة وسائر الفضائل . وأمّا مثال الخير الزائف ، فالثروة واللذة .

أمّا المقياس التي توزن به الفضيلة – أي الخير الحقيقي – وتُفهَم ، فهو العقل . وبدون العقل لا تُفهَم الفضيلة فهماً صحيحاً . والعقل إذا فهم الفضيلة استجاب لها وعمل بوحيتها واستقام في طريقها واستحال على صاحبه أن يحيد عن دروبها . وهذا ما يعنيه سقراط بالإرادة . فالإرادة عنده استقامة الانسان في سبل الفضيلة كي لا يناقض تصرفه عقله . وعلى هذا يقول سقراط إن صاحب الرذيلة لا إرادة له لأنّه لا يفهم الفضيلة ، وإنّه لو فهم الفضيلة لوافق تصرفه عقله فكان إرادياً فاضلاً .

وهذه القاعدة هي التي تجعلنا نفهم مبدأ سقراط القائل بأنّ العالم لا بدّ له من يكون فاضلاً ، وأنّ صاحب الفضيلة عالم ، لأنّ « العلم » يقود صاحبه إلى إدراك فضائل النفس، ولأنّ « العلم » ليس شيئاً يختلف عن « تهذيب النفس ».

أما الفضائل الأساسية في أخلاقيات سقراط فهي الحكمة أو الفضيلة الأساسية الكبرى التي تربط الانسان بكلّ ما في الوجود ، ثم الفضائل الشخصية المنبثقة عنها وفي طليعتها : الصبر والاعتدال والشجاعة والعدالة .

هذه هي الخطوط العامة لفلسفة سقراط ، وهي مبنيةٌ جميعاً على الأصل

الأول في فلسفته : « اعرف نفسك بنفسك » . فهل نجد مثل هذا الأساس في أعماق الحكمة العلوية ، وفي روح التعاليم التي نشرها عليّ بن أبي طالب ؟ ثمّ : هل يتفق الحكيمان في التفاصيل الأخلاقية أم يختلفان ؟

قد يحجب القارئ أننا نبالغ أو نُثزل الأمور غيرَ منازلها إذا قلنا إنّ الأساسَ الأصلَ في فلسفة سقراط ومذهبه إنّما عرفه عليّ بن أبي طالب معرفةً لا نقلَ خطورةً في نتائجها عنده ، عمّا هي عليه عند حكيم الأغارقة . وقد يحسب أننا نبالغ كذلك أو نُثزل الأمورَ غيرَ منازلها إذا قلنا إنّ هذه النتائج كانت واحدة عند الحكيمين في معنى الأخلاق ، مع فارقٍ واحدٍ في شكل المنهج الذي ارتضاه لنفسه كلٌّ منهما ، لا في جوهره وغايته !

وحين نذكر كلمة عليّ هذه : « حاسب نفسك بنفسك » ونضعها موضع المكافحة مع أساس الفلسفة السقراطية : « اعرف نفسك بنفسك » قد يتهمنا قومٌ بتأويل كلمة عليّ تأويلاً لم يقصده ولم يرمِ إليه . ولسنا ننكر أنّ مثل هذه التهمة تجوز وتُقبل لو أنّ عليّاً قصّدَ بها غيرَ ما يقصده سقراط — من حيث الجوهر — بكلمته الشهيرة . وبدلنا على أنّ عليّاً إنّما يقصد بها مقصدَ سقراط بكلمته تلك ، قولٌ كثيرٌ أطلقه عليٌّ بمعناها ومبناها ، ثمّ إشاراتٌ صريحة إلى النتائج العملية التي ترتب على مضمونها . وإنّ هذه الأقوال وهذه الإشارات الصريحة إنّ لم يتبع صاحبها خطة التدريج والتنظيم التي اتبناها حكيم الأغارقة : لأعذارٍ مقبولة ، فإنّ فيها معناها وروحها وغايتها جميعاً .

وقد اعتاض عليٌّ عن خطة التدريج والتنظيم في هذا المعنى ، بخطة التقرير ثمّ الإعادة والتكرار حسب المناسبات والأحوال ، تهيئةً للمعنى المقصود ولفظاً للأنظار إلى أنّه حقيقة واقعة .

من ذلك أن علياً يلج على أن يعرف المرء نفسه معرفة مدروسة خالصة فيستجلي ما فيها من إمكانات الخير ويعمل بوحى هذه الإمكانات عملاً إرادياً عازماً حازماً لا يتردد ولا يتراجع ؛ ويستجلي نواحي الشر فيقضي عليها بالتمرس بالفضائل الخلقية مستجداً بالعقل وهو لدى علي "المقياس" الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يُخدع ولا يتخدع . وإذا عرف الانسان نفسه مثل هذه المعرفة الصريحة وثيق بما عنده من إمكانات وهي في الغالب — في نظر علي — إمكانات خيرة ، فبات من معرفته هذه فوق مدح المادحين وذم القادحين لأنّ التبصر في الذات يعطي صاحبته مثل هذه الثقة . يقول علي : « لكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك » .

وإناباً لصحة ما نحن فيه نذكر ما يردده علي في هذا المعنى تعقياً على القول السابق وتأكيذاً له ، قال : « ليس بعاقل من انزعج من قول الزور فيه ، ولا بحكيم من رضي ببناء الجاهل عليه » . ولم يرى علي ذلك ! لأنّ من عرف نفسه بات على ثقة مما هو فيه ، فلا المادح يغريه ولا القادح يثنيه . وعند ذلك يمكن للمرء في مذهب علي أن يزن نفسه بنفسه بعد أن يكون قد عرف مكان القوة والخير في خفاياها ؛ كما يمكنه أن يحاسبها حساباً شديداً بمنطق العقل الذي هو منطق الفضيلة على نحو ما رأينا في مذهب سقراط . يقول ابن أبي طالب : « زينا أنفسكم قبل أن توزنوا وحاسبوها قبل أن تحاسبوا » . وبعد هذه المحاكمة التي يقودها العقل — وهو وضع الأشياء مواضعها في مذهب علي — كما تقدم — يستطيع المرء أن يعمل عمله الإرادي فينهى نفسه عن المنكر ويأمرها بالمعروف ، فيقول مع علي : « قلّ خيراً واعمل خيراً » في معرض الأمر بالمعروف ، ويقول معه : « كن لنفسك مانعاً رادعاً » في معرض النهي عن المنكر . ويتم ذلك كله بفعل الإرادة كما هي الحال في مذهب سقراط المنبثق عن مبدأ معرفة النفس . فالإرادة في مذهب علي — كما هي في

مذهب سقراط - عقلٌ يرى ويثبِت بما يرى فيعمل عازماً صامداً . يقول عليّ :
« ما شككتُ في الحقّ مذ رأيتُهُ » ثم يعمل بما يرى عملاً لا يقف إلاّ بالموت !

فالإرادة في مذهب عليّ كما هي في مذهب الحكيم الإغريقي ، ليست إلاّ استقامة الانسان في سبل الفضيلة كي لا يناقض نصرته عقله . ويدهشك هذا الانسجام بين حكيم أثينا وحكيم الكوفة في ما يتعلق بربط الارادة بالعقل ، وربط الارادة والعقل بالمعرفة . فكما رأى سقراط أن معرفة النفس وقدرها قدرٌ حقيقياً صحيحاً هما أساس « العلم » ، رأى ابنُ أبي طالب أن « العلم » إنّما يقوم بمعرفة هذه النفس أولاً ، وأنّ حدود « الجهل » إنّما تبدأ حيث يجهل الانسان نفسه . فيقول : « العالم من عرف نفسه ، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره » . وكما ربط سقراط العلم بالفضيلة وهي تهذيب النفس بالعدل والرفق والمحبة ، رأى عليّ أن لا علم بلا فضيلة ولا معرفة بلا خلق ، قال : « رأس العلم الرفق » .

والمعرفة عند عليّ محبةٌ وحياةٌ وصداقةٌ للوجود . فإذا شئتَ أن تحبّ ونحيا وتصادق الكونَ في نهجه : فاعرف ! أمّا ما شئتَ أن تعاديه فامسك نفسك على الجهل به . وإذا كان الأمر كذلك ، أفليس الأولى بالمرء أن يعرف نفسه « أولاً » لئلاّ ينفصل عنها بظلمة الجهل ؟ وأي تأويلٍ غير هذا يمكن أن يصحّ بصدد هذه الكلمة العظيمة التي يقولها عليّ : « الناس أعداء ما جهلوا ! »

ويذهب عليّ أبعد من هذا المذهب في ضرورة معرفة الانسان نفسه ، إذ يرى أنّ جهل النفس مرتبطٌ بالهلاك ارتباطاً محتوماً ، فيقول : « هلك امرؤ لم يعرف قدره ! »

وما نحسب أننا مغالون كذلك حين نقول إن الفكرة الأصل التي خطرت في ذهن سقراط ساعة قرّر أن مبدأ معرفة الله إنما يكمن بمعرفة النفس أولاً على ما مرّ بنا ، قد خطرت هي أيضاً في ذهن عليّ فلخصّها على عادته تلخيصاً جامعاً مانعاً صريحاً لا يقبل تأويلاً قال : « من عرف نفسه فقد عرف ربه ! » .

ويقسو عليّ في مطالبة الناس بأن « يعرفوا » قسوة شديدة خيرة . ولما كان الخير والشرّ هما الطرفان للذات تروح بينهما المبادئ الأخلاقية ونجى ، ولما كانت « المعرفة » مرتبطة بالفضائل الأخلاقية عند حكيم الكوفة على النحو ذاته الذي رأيناه عند حكيم أثينا ، فإننا نرى عليّاً في قسوته الخيرة بمطالبة الناس بأن يعرفوا ، يستعرض هذين الطرفين ، قائلاً : « ومن لم يعرف الخير من الشرّ فهو بمنزلة البهيمة ! »

أمّا الخير في مذهب عليّ فقد مرّت بنا فصولٌ كثيرٌ تبحث في موضوعه ومعناه . وأظنّ القارئ قد أيقن أن موضوعه ومعناه عند عليّ لا يختلفان عنهما عند سقراط . بل إن مفهوم الخير عند ابن أبي طالب أكثر إنسانية في بعض الحالات منه عند سقراط ، وإن كان عرضه عند سقراط أشدّ التزاماً للحدود والشروط المنبثق بعضها من بعض . وكلا الرجلين لا يرى الخير حقيقياً إلاّ إذا قام على أسس ثابتة من خيرية الوجود العام ومن إحسانه . ولا يراه إلاّ زائفاً إذا انحصر في نطاق من اللذة الشخصية والرضا المنفرد .

أمّا الفضائل الأساسية في أخلاقيات سقراط المبنية على المعرفة – وتبدأ هذه المعرفة بمعرفة النفس على ما تقدّم – فإنّ موقف عليّ منها هو موقف سقراط . فالفضيلة الأساسية الأولى والكبرى وهي الحكمة ، أو المعرفة الشاملة التي تربط الانسان بكلّ ما في الوجود ، موضوع لأكثر من فصل واحد.

في هذا الكتاب عن عليّ . أمّا الفضائل الأخرى وفي طلبتها : الصبر والاعتدال والشجاعة والعدالة . فلابن أبي طالب فيها مذهبٌ متماسكٌ واحدٌ لعلّه أقرب مذاهب الحكماء إلى فلسفة سقراط ، والصّقةا جميعاً بمنهج الأخلاقي . وقد مرّ الكلام على الصبر ومعناه - بوصفه فضيلةً أخلاقيةً - عند كلٍّ من سقراط وعليّ ، فارجع إليه . أمّا الشجاعة الأدبية من تعاليم قيلت وأعمال عملت فتألف منها منهجٌ موحدٌ ، فلاصقةٌ في شخصية ابن أبي طالب وفي مذهبه أتى اتّجهت معه في هذا الكتاب . وأمّا العدالة بوصفها قانوناً من قوانين الأخلاق الشخصية ومنهجاً تلتزمه الجماعة إن شاءت أن تسعد ، فتكاد أن تكون الموضوع الرئيسي لكتابتنا عن ابن أبي طالب . ثم إننا سنشير إليها في الفصل التالي بصدّد الحديث عن معنى الحاكم وكيف يكون في مذهب كلٍّ من سقراط وعليّ . أمّا فضيلة الاعتدال . فها نحن نسوق إليك حديثاً قليلاً فيه :

لم يكن التطرّف في هوّى من أهواء النفس المشروعة والمقبولة إلّا نقيصةٌ في مذهب سقراط ، وقد أعطى بمنهج التعليمي . وبسيرته العامة ، ثم بجيانته الخاصة ، أجمل النماذج على ضرورة الاعتدال في كلِّ هوّى أو ميلٍ مشروع . وقد أثر بتعاليمه الداعية إلى الاعتدال كفضيلةٍ خلقيةٍ كريمة : في أشدّ رجال أثينا فجوراً وتطرّفاً في الفجور .

وإذا كان الاعتدال في الأهواء المشروعة فضيلةً ، فإنّه كذلك في أخذ الناس بأفكارهم ومذاهبهم ، وفي أخذ الدهر بما يأتي به من حسنات وسيئات ، ويكون ذلك اعترافاً منّا بأنّ لدى الناس أفكاراً ليست كلّها خاطئة ، وبأنّ لدينا أفكاراً يمكن أن تكون غير صائبة ، وبأنّ الصبر على ما نكره وعمّا نحبّ فضيلةٌ لا بدّ من ممارستها انتظاراً للكلمة الحقّ التي تكون هي الأخيرة في كلّ مجال .

والاعتدال . كفضيلة خلقية على هذا النحو السقراطي ، شرطٌ من شروط الأخلاق عند ابن أبي طالب . فأول ما يطالعك به عليّ بهذا الصّدَد - بعد أن عرفنا أنه ، كالحكيم الاغريقي ، يربط الفضائل بالمعرفة والردائل بالجهل - هو القول بأنّ العاقل لا بدّ أن يكون معتدلاً ، وأنّ الجاهل لا بدّ أن يكون متطرفاً : « لا ترى الجاهل إلاّ مُفرطاً أو مُفرطاً » . ثمّ القول بأنّ الاعتدال حقٌّ والتطرف ظلم : « من ترك القصد ^(١) جار » . ثمّ إنّ المبالغة في لزوم أهواء النفس المتأرجحة بين النعماء والسراء في حالتيهما ، نقيصةٌ في مذهب عليّ : « لا تكن عند النعماء بطيراً ولا عند البأساء فشلاً » . وتناول دعوة عليّ إلى الاعتدال حتّى صبغ الكلام التي يريدها في مكانٍ وسطٍ يجعلها قريبةً من طبقات الناس على السواء ، فيقول : « أحسن الكلام ما زانه حسن النظام وفهمه الخاصّ والعام » ، وحتى أمور الاقتصاد لتعلقها بصورة مباشرة أو غير مباشرة بأخلاق النفس : « كنّ سمحاً ولا تكن مبذراً ، وكنّ مقدراً ولا تكن مقتراً » و : « لم يهلك امرؤ اقتصد » .

وقد عاش عليّ هذه الفضيلة التي تولّف حلقةً في مذهبه الأخلاقي ، على صورة قلما نجد لها مثيلاً في أخلاق الرجال . أفليس هو القائل : « هلك فيّ رجلان : محبّ غالٍ ومبغضٌ قال ^(٢) » . وإنّك إن وجدت بين الناس من يابى أن يهلك فيه الرجال كرهاً ، فقلما نجد بينهم من يابى أن يهلكوا فيه حباً . وتلك من معجزات الأخلاق التي عاشها عليّ ، ودعا إليها ، وضمّها مذهبه في الأخلاق .

(١) القصد : الاعتدال .

(٢) المحب الغالي : الذي يزيده حبه عما يجب أن يكون عليه . والمبغض الغالي : الذي يبالغ في بغضه حتّى يحترق به .

ولماذا يؤثر عليّ مثلَ هذا الاعتدال في حبّ الناس إليّ أو في نفورهم منه ؟
إنّ الجواب عن هذا السؤال يعطيه عليّ بن أبي طالب نفسه . وإنّهُ لجوابٌ
عظيمٌ في كلّ مقياس ، وما عليك إلاّ أن تعرفه حتّى تدرك صحّة نعتنا له
بأنه جوابٌ عظيمٌ ، قال عليّ : « سيهلك فيّ صنفان : حبٌّ مفرطٌ يذهب به
الحبّ إلى غير الحقّ ، ومبغضٌ مفرطٌ يذهب به البغض إلى غير الحقّ . وخير
الناس في حالاً : الأوسطُ ، فالزموه ! »

وهناك أمورٌ أخرى تربط عليّاً بسقراط في معنى الفضائل الأخلاقية وفي
غايته العملية .

فالفضائل في مذهب كلّ من الحكّيمين لها غايةٌ عمليّةٌ أساسيّةٌ واحدة
هي : إسعاد الفرد والجماعة بالخير ، وإرساء النفس الانسانية على قواعد ثابتة
من معرفة الحقّ التي هي أساس كلّ فضيلة ، والدليل إلى الخير .

ولكي تكون الفضائل حقائقَ حيّةً ، بات على الداعي إليها والمدعو أنّ
يعيشها دماً في دمه ونفساً في أنفاسهما . فالقول والعمل وحدةٌ لا انفصامَ
لها ، ولا قيمة لقولٍ لا يكون صورةً صوتيّةً لعملٍ يُعمَل . ومن هنا
اكتسبتْ تعاليم الحكّيمين قوّةً وتأثيراً عظيمين إذ أنّها لم تنفصل عن وجودهما ،
ولم يكن وجودهما شيئاً سواها .

وإنّك واجدٌ في خاتمة الأمر خلاصةً واحدةً تجمع مذهب الحكّيمين في
« معرفة النفس » التي تنتهي إلى تحديد « الفضائل الخلقية » وإلى تقريرها .
هذه الفضائل التي تتجه إلى غايةٍ أخيرةٍ هي « الخير » إنّ شئت ، وإنّ شئت
فهي « الجمال » !

والمعرفة حقّ . والفضائل حقّ ، وكذلك الخير أو الجمال . وهتف بسقراط هاتفٌ يقول له : امضِ في الشعر والموسيقى وسائر الفنون الجميلة جمعاً لكل حقيقة . وما كان سقراط بشاعراً ولا بموسيقي ولا بمثال ، فجعلَ فنّه الحكمة . فكانت لديه صورةٌ عن الحقّ ! وهتفَ بآبن أبي طالبٍ هاتفٌ يقول له : امضِ في المعرفة والفضيلة جمعاً لكل حقيقة . فمضى فيهما . وكأنّ المعرفة والفضيلة والحكمة والفنون الجميلة ، في أصولها العميقة وغاياتها البعيدة ، حقيقةٌ واحدةٌ ذاتُ أسماء : فإذا بنا نجمع مذهب الحكّيمين فيها بهتفةٍ نجد أصداءها في آثارهما جميعاً ، ألا وهي : خُذْ نفسك بالحقّ !

وليس في أبناء آدم وحواء مَن أخذ نفسه بالحقّ فوق ما فعلَ عليّ وسقراط !

أمانة الحكماء

• وأما الأثرياء الأغنياء المستمتعون بجهدِ العاملينِ استمتاعاً رخيصاً ، والسائرون في الأرضِ سيرَ البهائمِ المُتخَمَةِ في المراعِ الخُضرِ بين الزرعِ والنبعِ ، فقد نفاهم عليٌّ وسقراطُ مِنَ الناسِ إلاَّ أنْ يكونوا كسائرِ الناسِ بشرّاً لا همجاً يكتنزون مالا وجهلاً !

• وألقى الوجودُ على المفكرينَ والحكماءِ أمانةً هي أنْ يعدلوا فيحكموا الناسَ ويقودوهم إلى مواطنِ الخيرِ والجمالِ !

تبينَ معنا في أكثرِ من مكانٍ أنَّ الدولةَ ضرورةٌ من ضروراتِ الطبيعةِ في مذهبِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ ، وذلك في بابِ المقابلةِ بينِ مبادئهِ ومبادئِ الثورةِ الفرنسيةِ الكبرى وآراءِ مفكرِها ، وفي غيره من الأبوابِ . وكان عليٌّ يَكسِبُ هذا المبدأَ دفءاً من عاطفةِ الأديبِ كما هي عادتهُ في كلِّ ما ما يتصدى له من موضوعاتٍ ، فيرى أنَّ الانسانَ قليلٌ بنفسه كثيرٌ بالجماعةِ ، وأنَّ يدَ الله مع السوادِ الأعظمِ ، وأنَّ سُخطَ الخاصةِ يُغتفرَ مع رضا العامةِ . وهكذا كان سقراطُ وتلاميذه العِظامُ من قبلِ .

وكان كلُّ من سقراطِ وعليٍّ في عهدِهِ فيه دولةٌ وحكّامٌ وأنظمةٌ

وقوانين . غير أن الدولة في عهد كل من الرجلين لم تكن لترعى إلا مفهوم الدولة في مراحل التاريخ التي انتهت بالثورة الفرنسية الكبرى . ففي عهد سقراط كانت الدولة منظّمة اجتماعية تُرعى فيها مصالح طبقة أو طبقات من الناس ، وتُهمّص فيها حقوق الأكثرية من الشعب . وكانت العدالة لا تعني شيئاً أكثر من مصلحة الأقوى ومنفعة الحاكم . وهي كذلك مهما تقلّبت عليها الأسماء واختلفت بين حكم الديمقراطية ، أو حكم الأرستقراطية ، أو حكومة الطغاة . وفي عهد علي لم تكن الدولة بأيام عثمان ومروان لتختلف عما كانت عليه في عهد سقراط ، من الناحية العملية . فقد كانت دولة لا تُرعى فيها إلا مصالح الوجهاء والنافذين الذين استعادوا ما كان لهم من نفوذ قبل الإسلام . أمّا العدالة فلم تكن تعني شيئاً غير مصلحة مروان والأمويين وأنصارهم ومن إليهم .

في هاتين الحالتين المتشابهتين من حيث المفهوم العملي للدولة وللعدالة ، نظر كل من سقراط وعلي في شأن الجماعة وكيف يجب أن تكون ، ورأى في الأمر رأيه وعمل بما رأى عازماً صامداً لا يلين . أمّا الذي يعنينا ممّا رآه الحكيمان في هذا المعنى ، فالأسس والأصول التي تُعنى بكرامة الانسان الذي له حقوق وعليه واجبات ، دون التفاصيل المرهونة بالزمان والمكان وسير التاريخ .

رأى سقراط أن الدولة إن لم ترع الناس على السواء وتجعلهم واحداً في الحقوق والواجبات ومتساوين أمام النظم والقوانين ، هي دولة مصيرها الضعف فالانحلال فالموت الأكيد . ورأى أن هذه النظم والقوانين فاشلة

حنماً إذا وُضعت لمصلحة فريقٍ من الناس دون فريق . وأنها فاشلة حتماً إذا وُضعت لمصلحة الناس جميعاً ثم وُجّهت غير وجهتها على أيدي الحاكمين . ذلك لأنّ العدالة السليمة الصريحة هي وحدها قانون البقاء للدولة، وبغير هذه العدالة يسود الظلم ونفسد الأخلاق وتعمّ الرشوة وتضطرب العلاقات والمقاييس فإذا الناسُ في غابٍ له مظهر المدينة وشريعة الغاب . والظلم إن ساد كان أكبر الشرور . وهو في النتيجة خاتمةٌ محزنة تقضي على المعرفة ، وعلى كرامة الانسان وفضائله الخلقية ، ثمّ على خير الوجود الذي هو صورةٌ جميلة عنه .

وأحسب أنك أدركتَ ما يربط عليّاً بسقراط في هذا الباب بعد أن عرفتَ مذهبَ عليٍّ في الدولة والعدالة والظلم وحكم العادلين والظالمين .

أمّا مذهب عليٍّ في بناء الدولة على أركانٍ صالحاتٍ فقد عرفناه . وأمّا مذهب سقراط فقد أشرنا إليه تلميحاً ولا يمكننا عرضه بإسهابٍ وتفصيلٍ في كتابٍ ليس موضوعه سقراط . وفي هذا التلميح ما يكفي لفهم الخطوط العامة والأصول الكبرى . غير أنّنا سنبحث في هذا الفصل بحثاً خاصاً في صفة الحاكم عند سقراط ، وهو ضرورةٌ لكثرة ما تحدّث سقراط عن الحاكمين ، ثمّ لما يتضمّن من روح التفاصيل التي أهملناها إذ أنّ رأي سقراط في الحاكم نابعٌ من مذهبه في بناء الدولة ومعنى وجودها ، وفي حقوق المواطنين وواجباتهم ..

آمن سقراط - كما آمن عليٌّ وروستو فيما بعد - بأنّ الطبيعة البشرية غير ميّالة للشرّ أصلاً ، وآمن بإمكانات الانسان على أن « يعرف » ثم بما يترتّب على هذه المعرفة من فضائل تمكّنه من أن يحيا عادلاً وينشئ دولة عادلة يديرها قومٌ من الشعب عادلون . وعلى هذا فإنّ الحاكم ليس معتدياً

فاجراً ولا مغتصباً ندلاً كما هي الحال في معظم دول التاريخ ، والسياسة ليست تهريجاً ونفاقاً فارغين رخيصين ، بل عملاً شريفاً خالياً من الادعاء والبهتان ، في سبيل عدالة اجتماعية لا انحراف عنها . ولا بد أن يكون صاحب هذا العمل رجلاً أضاعت نفسه أنوار المعرفة فشاعت فيها الفضائل الخلقية الضرورية في كل من يهوى ذاته لإدارة الدولة .

وهنا نساءل : ما هي صفة الحاكم تفصيلاً في مذهب سقراط ؟ أو من هو الحاكم الحقيقي ؟

الحاكم في دولة سقراط « معلم » يرعى الناس « المتعلمين » وينشئهم على حب الفضيلة واحترام القوانين ، وعلى أن يتعاطوا بالعدل فلا واجب إلا ويعمل ولا حق إلا ويوضع موضعه . وليس من واجب هذا « المعلم » في دولة سقراط أن يطلب جزاء أكثر من أن يشهد « تلاميذه » صالحين خيرين يسعون في مسالك الفضيلة وتضيء نفوسهم شعلة الإيمان بخير الانسان وقيم الحياة ، ويثقون بأن « معلمهم » عالم عامل لا هم له إلا رعاية العدالة - الناجمة عن المعرفة في كل شيء - بقلب المؤمن ودم الصديق .

ورعاية العدالة هي المحور الذي يدور عليه معنى الحاكم في دولة الفيلسوف الاغريقي ، وهي المعيار العملي الذي يقاس به صلاحه . ولكي يرعى هذه العدالة لا بد له من أن يأخذ نفسه أولاً بما يصعب على عامة الخلق أن يأخذوا به أنفسهم ، وهو الطاعة المطلقة للحق دون ما يفسد النفس من الإثم الذي يأخذ عليها طريق الخير والجمال .

قلنا إن الحاكم في دولة سقراط معلم . وليس لهذا المعلم أن يمنع عن الناس علمه وإلا عدّ آثماً وفاضلاً . ومن أجل ذلك فليس لأحد أن يكون

فاضلاً حقاً - في نهج الحكيم الاغريقي - حتى يولي فضيلته وكماله شطرًا صالح أمته ... لذلك كان سقراط يمشي إلى أهل العلم الصحيح فيحترضهم على أن يحملوا أمانة السياسة كما يتحدث تلميذه كسينوفون :

« فقد رأى سقراط أن شرميدوس بن غلوكون يتهيب السياسة فلا يُرشد أمته ، وكان أخا فضلٍ وعلم بالسياسة . فقال له سقراط :

« حدثني يا شرميدوس ، أرايت لو أن رجلاً كان أهلاً لأن يكسب تاج البطولة في الأولمب وكان أهلاً لأن يؤوب بالحمد ويرفع ذكر أمته في سائر بلاد الاغريق ، ثم رأيت بعد ذلك وقد أبى أن ينزل إلى مصارعة الأبطال ، فماذا عسى أن تعدّه ؟ قال شرميدوس :

« - إني أعدّه رجلاً جباناً لا خير فيه . فقال سقراط :

« - ما بالنا إن رأينا رجلاً أهلاً لسياسة مدبته قادراً على أن يوسع الخير عليها ثم لا يفعل ذلك ، ألا نعدّه جباناً عاجزاً لا خير فيه ؟ فقال شرميدوس :

« - هذا حق . ولكن ما حملك على أن تسألني هذا السؤال ؟ فقال

سقراط :

« - إني أجذك كفءاً لأن ترعى أمتك رعايةً صالحةً ، وأجذك تتخلّى عن سياستها ، وهو أمرٌ محترمٌ عليك لأنك واحدٌ من بنينا . فقال شرميدوس :

« - فيم عرفتني صالحاً لهذا الأمر ؟ قال سقراط :

« - عرفت ذلك في المجامع التي تجمع بينك وبين ساسة أثينا ، فإن شاوورك في أمرٍ أشرت بالسداد ، وإن أخطأوا في أمرٍ عدلت أخطاءهم . فقال شرميدوس :

« — شتان ما بين ما نبدية في مجامعنا الخاصة من رأي وبين منازل الخصوم في المجالس السياسية . فقال سقراط :

« — إنه يستوي على العالم بالحساب أن يحب وحده وأن يحسب بين الناس . ويستوي على من يحسن العزف على القيثارة أن يعزف وحده وأن يعزف في المحافل . ثم ما يزال به سقراط حتى يقنعه أن يدخل في حلبة السياسة كي تسعد بفضلها وعلمه أمته ، فإن سعدت أمته امتدت سعادتها إليه وإلى أصدقائه (١) » .

وفي هذا دلالة واضحة على أن العالم القادر ملتزم بالضرورة أن ينفع الآخرين فيما يمكنه أن ينفع . ويبدو أن هذا المذهب واحد لدى بُناة الفضيلة جميعاً . فكما أوجب سقراط على المعلم — أو الحاكم — أن يفيد أمته بعلمه ، ألزم عليّ بن أبي طالب أهل العلم أن ينفعوا الناس بما أوتوا من العلم ، وجعل هذا الإلزام ضرورة تقضي بها طبيعة الأشياء قضاءً محتوماً ، قال : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا » . ففي هذه الكلمة العلوية خلاصة رائعة للحوار الذي دار بين سقراط وشرميدوس . ثم إنّ عليّاً يربط بين العلم والعمل ربطاً حيويّاً من شأنه أن يجعل العلم لغواً إن لم يواكبه العمل به ، فيقول : « العلم مقرون بالعمل : فمن علمَ عمل ، والعلم يهتف بالعمل : فإن أجابه وإلا ارتحل ! » ويقول أيضاً : « يا حملة العلم اتحملونه ؟ فإنما العلم لمن علم ثم عمل بما علم ووافق عمله علمه ! » ثم يؤكد مذهبه بهذا القول الجامع المانع : « إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله ، بل الحجّة عليه أعظم ! » . ثم يقول جامع

(١) بعض التصرف عن « سقراط » للدكتور جهني ص ٧٤ - ٧٦ .

آخر جاء فيه : « لا خير في الصمت عن الحكمة ، كما أنه لا خير في القول بالجهل !

أرأيتَ إلى أيِّ حدٍّ يلتقي عليٌّ وسقراط في إلزام العالم بأن يعمل بعلمه وإلاَّ عدَّ جباناً أو أحمقاً !

أرأيتَ إلى سقراط وهو يقول إنَّ القادر على أن يُوسع الخير على أمته ثم لا يفعل ذلك ، جبانٌ عاجزٌ لا خير فيه . ثم إلى عليٍّ وهو يرى أنَّ الحجَّة على العالم العامل بغير علمه ، أعظم !

وهذا المعلم في دولة سقراط لا يجوز له أن يطلب من الجزاء على تعليمه أكثرَ من بذل العلم نفسه ، وأكثرَ من خدمة الناس بهذا العلم وهو الدليل إلى الفضيلة . وقد أعطى هو نفسه المثلَ على ذلك فكان يعلم ولا يزن درسه بثمنٍ أعظم من هداية الناس إلى الخير والجمال . ومما قاله للسفسطائي انتيفون مرَّةً :

« اسمع يا انتيفون ؛ إننا نعدُّ حكيماً كلَّ امرئٍ يكتسب صداقة الذين يحبُّون الجمالَ والخير . ونسمي سفسطائيين أولئك الذين يتجرون بالعلم فيبيعونه . فأمَّا مَنْ رأى إنساناً فعلمه ما يعرف من خير فإنما يفعل ما ينبغي أن يفعله الخيرون الطيبون . أما أنا يا أنتيفون ، فاحبُّ أن أجد أصدقاء صالحين وأن أعلمهم ما أعلم من خير وأبين لهم ما انطوت عليه حكمةُ السابقين من قديمٍ ، فإنَّ أصبنا خيراً وجدنا كسباً كبيراً بما يجني بعضنا من بعضٍ من نفعٍ » (١) .

ومن مآخذ سقراط على السفسطائيين أنهم « يبيعون علمهم بضاعةً لمن

(١) بتصرف واختصار عن « سقراط » للدكتور هنجي ص ١٧ .

أراد أن يتعلمها لقاء أجرٍ معلوم ! »

وكما يتفق سقراط وعليّ في مذهبٍ واحدٍ يلزم العالم أن يعلم ، نراهما يتفقان كذلك اتفاقاً كاملاً في أن باذل العلم لا أجر له أعظم من بذله . وإنها للمثالية رائعة هذه المثالية . وإنه لإيمانٌ عظيمٌ بالقيم الثابتة هذا الإيمان . وإنه لاندفاعٌ في سبيل الخير لا أشرف منه ولا أنبل في مقاييس الفضائل . يقول عليّ بن أبي طالب وكأنّ سقراط هو الذي يقول : « شكّر العالم على علمه أن يبذله لمن يستحقّه ! »

أرأيت إلى أيّ حدٍّ يلخصُ عليّ سقراط ؟ !

وهكذا ، فإنّ الحاكم في مذهب سقراط لا يمكن أن يكون إلّا العالم الحكيم الذي دّله علمه على الفضائل فسمى إليها فإذا هو خادمُ أمته بعلمه ومخلقه . ومما أعلنه أيام حكم الطغاة أنّ قوّات الدولة الثلاث : التشريعية والتفذيّة والقضائية يجب أن تكون في أيدي العلماء ، أو الحكماء ، أو « معلّمي الحكمة » . لا في أيدي نفرٍ من الأغبياء والتافهين الذين ساقنهم ظروفٌ جاهلةٌ حمقاء إلى إدارة شؤون الدولة . وكان إصرار الفيلسوف الاغريقي على أن يكون العلماء هم وحدهم الحكماء ، وجرأته الصارمة في إعلان هذا الرأي ، السبب المباشر في موته على ما تبين معنا سابقاً : وفي المختارات القليلة التي سنثبتها بعد هذا الفصل من أدب سقراط ، بيانٌ مفصلٌ عن مذهبه في ماهيّة الحكم وكيف يكون ، ومعنى الحاكم ومن هو ! .

وما أشبه تلك الظلمات من السفطائية والوجاهة والاستبدادية والفردية والثرائية . والانتفاعيّة واستباحة الحكم ، التي حاربها عظيمُ الاغريق في محته عن الحقيقة التي هي العلم أولاً ، وعن الحاكم الحقيقي الذي هو العالم ،

بتلك الظلمات التي حارَبها عليّ بن أبي طالب في سعيه الحثيث إلى توضيح الحقّ وتثبيته ، وفي بحثه عن الحاكم الحقيقي ، أو الحكيم العالم الذي يُقيم الحقّ ويرعى العدالة .

أفلا يشبه السفسطاويون الذين كانوا يلهون بالقيسم الانسانية الجليلة ويلغون بالبيان في خدمة العيوب والنقائص ، كأنّ يأخذ الواحدُ من زعمائهم في مدح شيء ، ثم في ذمّ هذا الشيء عينه بعد لحظات ، حبّاً بالمغالطة ، وتهريجاً ، وتضليلاً عن الحقائق ، ثم لهواً ولغواً ؛ أقول أفلا يُشبه هؤلاء السفسطاويون الذين حطّمهم سقراطُ تحطيماً ودكّ بنيانهم أساساً وجداراً ، أولئك اللاهين اللاغين من طلابِ الوجاهة والحكم الذين قال لهم ابنُ أبي طالب : « ما خلُق امرؤُ عبثاً فيلهو ، ولا تُترك سُدى فيلغو ؟ » وهذا الذي يخاطبه قائلاً له : « سلّ تفقّها ولا تسأل نعتاً » ، ألم يكن سفسطائياً وإن لم يكن في عرب زمانه سفسطاويون لهم منهجٌ معروف على نحو ما كان في قوم سقراط ؟ وأخيراً ، أي فرق حقيقي يجده القارىء بين السفسطاويين الأغارقة - وكانوا أصحاب جدلٍ وحيلةٍ ، وطلاب مالٍ ومغنم - وبين أشباههم العرب الذين عتّاهم عليّ في بعض هذا القول الذي يصف به حال العلم وطلابّه في أيامه :

« طلبّة العلم على ثلاثة أصنافٍ ألاّ فاعرفوهم بصفاتهم : صنف منهم يتعلّمون العلمَ للمراء والجدل ، وصنف للاستطالة والحيل ، وصنف للفقّه والعمل . فأما صاحب المراء والجدل فإنك تراه ممارياً للرجال في أندية المقال قد تسرّبَل بالتخشع وتخلّى عن الورع . وأما صاحب الاستطالة والحيل فإنه يستطيل على أشباهه من أشكاله ويتواضع للأغنياء ومن دونهم فهو لحتّواثهم هاضم ... الخ » .

أما محاربة عليّ لطبقة من البشر كانت وراء كل غبن يلحق بالناس .
 ووراء كل طغيان ، ووراء كل حقيقة دارسة وفضيلة ذاهبة ، ثم وراء كل
 حاكم لا يريد الحق مذهباً والمعرفة دليلاً ، وأعني بها طبقة الوجهاء والأثرياء
 المستمتعين بمجهود الآخرين استمتاعاً رخيصاً والمستغنيين على غباوة وجهل ،
 فأمرها معروف وقصتها في هذا الكتاب طويلة ومؤلة !

أما قصة سقراط مع هؤلاء ، وكأنتهم هم هم في كل زمان ونحت كل
 سماء ، فتكاد نشبة قصة عليّ . وقد نفاهم سقراط من مجتمعه إلا أن يتعلموا
 ويعملوا ويكونوا كسائر الناس بشراً لا همجاً يكتزون مالاً وجهلاً ! وكان
 من الطبيعي أن يقاوموه وينضموا إلى خصومه ومعارضيه ، فراح يهدمهم
 ويضرج بلاهتهم بأناب وأضرار ، ويسخر منهم ويقسو بسخريته حتى
 يتأسى بعضهم منه ببعض .

والذين حاربهم عليّ بن أبي طالب فوق ما حارب غيرهم من نماذج
 المستهترين ، هم الحكّام الذين لا يحكمون بعلم ولا ينزعون عن فضيلة ولا
 يخدمون غاية كريمة ولا يعدلون . ثم يستيحيون الأرزاق والأعناق ملكاً لهم
 حراماً . وقصته مع هؤلاء معروفة وهي في هذا الكتاب طويلة ومؤلة !

أما سقراط فيحارب هذا النمط من الحكّام حرباً لا تنكشف إلا عن
 فيلسوف عادل حكيم يرئس الدولة ، أو عن الموت . ولكي يضع سقراط
 الحاكم العادل الموضع اللائق به في النظر وفي العمل على السواء ، لجأ في جملة
 ما عمل إلى إظهار مساوئ الاستبداد ، ونفاة المستبد الذي لا يصوره -
 ولا يتصوره - إلا جاهلاً مؤذياً ومبتدلاً غيباً . وكانت في زمانه فلسفات
 تبيح الاستبداد لمن يستطيعه كما تبيح الحكم لمن يحتال للحصول عليه ، ودوماً

نظري إلى عدالة أو رفق أو فضيلة أو خير . « وقد ذهب أصحاب هذه الفلسفات في إقناعهم بمذاهبهم إلى شأو قصي ، وهو أن الظلم أشهى إلى النفس من العدل ، وأن أcha المظالم سعيد وأcha العدالة شقي . فحسب الظالم أن يبرع في الظلم وأن يبلغ في المظالم المثل الأعلى ، وهو أن يستلب العدالة ثوبها الجميل فيتزيّا بثوبها أمام الناس فيخدع به الجاهلون ويلقوا إليه أعنة أمورهم ويأخذ نفسه بالقاعدة المشهورة : « مراعاة الناس وعدم الاكتراث بالحق » ، ثم يقترف بعد ذلك ما طوعت له نفسه من إثم حتى يبلغ مأربه ، فيكون له الحول والقوة ويشترى أصدقاء ويتألف قلوباً ويعيد الناس ويمنتهم وينثر النذور للآلهة فيغفر له الآلهة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ويتكاثر أجبازؤه ويملا ذكره الأسماع .. أما العدالة في زعمهم فلأنها تردي أهلها دار البوار ، وذلك بأنّ العادل الحق لا يزور أمر نفسه على الناس ، فهو قانع بجوهر العدل لا بمظهره ، ولا يحفل بحكم الأحياء على خلقه ، ويمضي بين الناس بسيطاً لا ينمّ ظاهره عن شيء ، وقد يتشابه أمره على الجاهلين فلا يدري الجاهلون أعادل هو أم ظالم ، لأنه خلع ثوب الرياء وعاش عيش البسطاء . وقد يذهب رياء الظالمين بفضلهم لأنهم لبسوا ظاهر العدل ونزلوا في أفئدة العامة منازل العادلين وما هم بعادلين في شيء . والعادل الحق لا يأتي زوراً ولا كذباً فإذا فرضت فريضة على العادل والظالم على السواء ، أخفى الظالم بعض ماله وقدم العادل كلّ ماله ، فاحتل من الأعباء أضعاف ما يحتل الظالم ، وفاز الظالم بعد ذلك بالسعة الطيبة وقد تتعرض صفحة العادل للوم اللاتمين (١) . وليس أمامك إلا أن تقرأ الجزء الأول من جمهورية أفلاطون ، وهو الكتاب الذي يتحدث فيه عن العدالة ومعناها ، لكي تعرف إلى أيّ مجال اتسعت هذه الآراء لدى الداعين إليها !

(١) عن كتاب « سقراط » للدكتور بهني ص ٨٦ .

وكانت في إغريقيا نفوس^١ تقبل هذه الفلسفات وتؤمن بمضمونها وتهتدي بما فيها من وقاحة وفجور وإهانة للكرامة الانسانية . لذلك راح سقراط يحارب على جبهتين : سلبية يهدم فيها المستبد ويفضح مخزيات الاستبداد ، ثم يعرك في وحولها الظلم وجباه الظالمين ، ولإيجابية يشيد فيها بالعدالة المنبثقة عن العلم والحلم والموصلة إلى السعادة .

وسوف يطالع القارئ في الفصل التالي على نموذج من هذه الآراء الغريبة التي تبيح الظلم والتعدي وتدعو إليهما حتى ليقول أحدهم لسقراط إن المتعدين والظالمين قوم^٢ حكماء ، وإن أحكمهم القادرون منهم على أن يمارسوا التعدي إلى حد التمام فيهدموا مدناً وأما برمتها ، ويستعبدوها . ويوقعوا بالناس كل ما أمكنهم من الويلات . وسوف يطالع كذلك على السخرية القائلة التي كان سقراط يردّها على أصحاب هذه الآراء ، وينظر في أسلوبه الممتع الطريف في أخذهم ورميهم بالمتناقضات الفاضحة ، ثم يدرك حجته الهائلة التي ذهبت مثلاً !

ونوجز قائلين إن حاكم الناس في مذهب علي^٣ وسقراط واحد لا يخلقي مكانته لسواه . أمّا ميزته الأولى فأن يكون عالماً حكيماً لأن العلم يؤدي بصاحبه إلى الفضيلة . وأمّا سبيله في الحكم فالعدالة والحق ورعاية النظام في خدمة العدالة والحق ، وهي سبيل^٤ طبيعية لا بدّ للحكيم وصاحب الخلق الرفيع من سلوكها بعفوية وبداهة أصيلتين . وأمّا غايته من الحكم فإسعاد الناس جميعاً دون استثناء ، والسير معهم في طريق الخير والجمال !

قال سقراط : « لا يمكن زوال تعاسة الدول وشقاء النوع الانساني ما لم يحكم الفلاسفة » .

وقال علي^٥ : « من أفتى بغير علم لعنته الأرض والسماء ! »
وقال علي^٦ أيضاً : « لا ينبغي أن يكون الوالي على الناس الجاهل فيضلّهم بجهله ! » .

سَمْعُ رَوَالِغِ سَفَرِاط

توطئة

يُعتبر تاريخُ الانسانية أدبَ سقراط في ذروة ما خلّفه الانسانيةُ من نفاج الفكر والذوق الأصيلين ، سواءً في ذلك ما وصلنا من هذا الأدب عن طريقه المباشرة وهو القليل القليل ، وما وصلنا عن لسانه في آثار تلاميذه العظام وهو الكثير الكثير . وها نحن نقطع فصلاً مما يُنسب إليه من هذه الآثار توضيحاً لِمَا تحدّثنا عنه في الفصول السابقة من مذهبه في المعرفة والفضائل والعدالة والاستبداد وما إليها جميعاً ، ثم تدليلاً على أسلوبه الحواريّ الفريد الذي يستخدمه في الإيضاح والتقرير والإقناع ويجعله مجرّياً كريماً لحجته التي قلّ أن يكون لها نظيرٌ في حجج المفكرين ، وللسخرية المتهكّمة اللاذعة التي تشفّ عمّا في قلبه من حرارة ، وعمّا في ذوقه من رهاقة ، وعمّا في فكره من منطقٍ مستقيم :

العدالة والتعدي

نقتطف هذا المقطع من حوارٍ طويلٍ يجري بين سقراط وغلوكون والسفسطائي ثراسيماخوس . وفيه سفاهة السفسطائيين ومنطقهم العاجز في الدفاع عن الظلم والتعدي ، وفيه عظمة سقراط في الدفاع الحارّ عن العدالة . وقد

جرى هذا المقطع من الحوار على مشهدٍ من الاثنينين وسمع . فبعد أن تناول سقراط والسفطائي شتى الموضوعات التي تدور حول معنى العدالة والتعدّي ، ظهر عجز السفطائي خصوصاً بعدما أعلن عن غبطته بالتعدّي الذي « إذا تعدّي على الأشخاص أنفسهم بدلاً من ممتلكاتهم لُقّب بصاحب السعادة والغبطة ، لا بلسان مواطنيه فقط ، بل أيضاً بلسان الكثيرين من الناس ، الذين علموا ما اقترّقه من جرائم » . فأوقعه سقراط على رأسه ، فسعى في التخلص من الإجابة ، فإذا بالحوار يستمرّ على الصورة التالية التي انتهت بإسقاط السفطائي بالتناقض المخجل أمام الألوف من أبناء أثينا :

سقراط - يا ثراسيماخوس البار ، أتركنا بعد ما أُلقيت على مسامعنا هذا البحث الغريب قبلما تكملّ تعليمنا ، أو قبلما تعلّم هل كلامك في محله أو لا ؟ أنظنّ أنك تعاني أمراً طفيفاً هو دون المبادئ التي عليها يشيد كلُّ منا حياته ليلبغ أوج السعادة ؟ .

ثراسيماخوس - ليس هذا هو الواقع في حسابي .

س - هكذا يظهر ، وإلاّ فلا يهلك أمرنا ، وسيّان عندك أشقياء عشنا أم سعداء ونحن نجهل ما قلتَ إنك تعرفه . فأرجوك يا ثراسيماخوس الصالح أن تجود علينا بأن نشاطرك تلك المعرفة . ومهما تُسبغ على هذه الجماعة الغفيرة من نفع فلن يضيع لك فضل . أمّا أنا فأصارعك أنني لم أقتنع بصحة ما قلته ، ولا أصدق أنّ التعدّي أنفع من العدالة ، ولو أطيلت يدُ المتعدّي دونما قيدٍ أو نظامٍ فعمل ما تشبهه نفسه بلا معارض . وبالعكس ، يا سيدي الكريم ، هبّ أنّ إنساناً تعدّي فأفلق بالتعدّي ، إمّا بالتسترّ أو بالقوة . مع ذلك لا يمكنك أن تقنعي أنّ التعدّي أنفع من العدالة . وربّما كان بعض الحاضرين من رأيي ، فأقنّعنا يا صديقي الفاضل أننا نخطئون بوضعنا العدالة فوق التعدّي !

ث - وكيف أقنعكم إذا كان ما قلته آنفاً لم يقنعكم ؟ .
وهنا يطول الجدل بين ثراسيماخوس وسقراط ، فيتدخل غلوكون
قائلاً :

غلوكون - أرى أن حياة العادل خيرٌ من حياة المتعدّي .
سقراط - أوسمعتَ كم عدد ثراسيماخوس من الجواذب المغرية في
حياة المتعدّي ؟

غ - سمعت ولكنني لم أقنع .
س - أفستحسن أن أقنعه ، إذا كان إبراز الحجج ميسوراً لنا ؟ إنّه ليس
من صحّةٍ في ما قال .

غ - بلا شك أستحسن .
س - هلمّ يا ثراسيماخوس نستأنف البحث ، ونفضّل علينا بالحواب .
أتدعي أن التعدّي الكلّي خيرٌ من العدالة التامة التي توازنه ؟
ث - بأعظم تأكيدٍ ادّعتُ ، وقد اوردتُ الأسباب .
س - فكيف تنعتهما باعتبارٍ آخر . الأرجح أنك تدعو أحدهما فضيلة
والآخر رذيلة .

ث - بلا شك .
س - أي أن العدالة فضيلة والتعدّي رذيلة .
ث - على كيفك يا صديقي المازح ! ألاني أسلم أن التعدّي مفيد والعدالة
بالعكس ؟

س - فماذا تقول إذن ؟
ث - بالعكس فيهما تماماً .

س - أفندعو العدالة رذيلة ؟

ث - لا ، بل أَدعوها فطرة صالحة خارقة .

س - أفندعو التعدي إذن فطرة رديّة ؟

ث - لا ، بل أَدعوه حُسن سياسة .

س - أفُتظنّ يا ثراسيماخوس أنّ المتعدّين ، حتماً ، حكماء وصالحون ؟

ث - نعم . القادرون منهم أن يمارسوا التعدي إلى حدّ التمام ، ولهم نوة على إخضاع مدن وأمم برمتها ، واستعبادها . ربّما نظنّ أنّي أتكلّم في النشأين . ولكنّ حتّى عمل هؤلاء أُسلم بأنه مفيد إذا ظلّ أمرهم مكتوماً . على أنهم لا يستحقّون المقابلة مع من ذكرتهم الآن .

س - فهمتُ مرادك تماماً ، وأنعجب من إدراجك التعدي في سلك الفضيلة والحكمة ، ووضعك العدالة في ما هو عكس ذلك .

ث - ولكنني هكذا أرتبهما .

س - إنك الآن اتخذت موقفاً أكثر تعنّياً فلم يبقَ سهلاً علينا الكلام معك . ولو أنك جعلت التعدي مفيداً وحكمت أنه رذيلة ، كما يفعل بعضهم ، لكان عندنا ما نجيبك به بناءً على المبادئ المسلّم بها عموماً . ولكنه واضح تمام الوضوح أنك مصرّ على حسابه جميلاً وفعالاً ، وتنسب إليه كل ما تنسبه إلى العدالة . حتّى بلغت بك المرأة أنك تحسبه قسماً من الفضيلة والحكمة .

ث - إنك تتكهّن بدقّة فائقة .

س - ولأنّني أراك تعني ما تقول فلا أتكلّم عن البحث معك لأنّني ، إذا لم أكن مخطئاً ، لا أراك تمزح يا ثراسيماخوس ، بل تقول ما تعتقده حقّاً .

ث - وما الفرق عندك اعتقده أو لم أعتقده ، أفلست بقادر على دفع حججي ؟

س - لا فرق عندي . ولكن أتريد أن نجيبني عن مسألة أخرى وهي : أنظن أن العادل يرغب في تجاوزٍ عادلٍ نظيره ؟

ث - كلاً ، وإلا لما كان ساذجاً كما هو .

س - أفيتجاوز العادلُ حدَّ العدالة في سلوكه ؟

ث - لا . ولا في هذا يرغب .

س - أفيرمي إلى تجاوزٍ حدودِ المتعدّي دون تردّد ، حاسباً ذلك عدلاً أو لا ؟

ث - بل يحسبه عدلاً لا يتردّد في فعله . لكنه لا يقدر .

س - لم أسأل عن ذلك ، بل هل يروم العادل أن يتجاوز رجلاً متعدّياً ، لا رجلاً عادلاً ، وبرغبةٍ يفعل ذلك ؟

ث - هذا هو الواقع .

س - أفلا يتجاوز المتعدّي حدودَ متعدّدٍ آخر نظيره ، موغلاً في التعدّي ، قصّداً بلوغ ما لم يبلغه سواه ؟

ث - بلى ، يتجاوز .

س - فلنفرغ الحملة في هذه الصيغة : إنَّ العادل لا يتجاوز نده ، بل ضده ، أمّا المتعدّي فيتجاوز الاثنين ، نده وضده .

ث - أحسنت .

س - وإنَّ المتعدّي حكيمٌ وصالح ، والعادل خلافه في الأمرين .

ث - وبهذا أيضاً أحسنت .

س - أفلا يماثل المتعدّي الحكيمَ والصالح ، بينما العادل لا يماثلهما .

ث - من كلّ بدّة . فإنّ من كان ذا سجيّة ، فإنه يماثل أربابها ، أمّا مدّة فلا يماثلهم .

س - فسجيّة كلّ أمرئٍ باديةٌ في مَنْ يماثلهم هو ؟

ث - أوَعندك غير ذلك ؟

س - جيّدأ يا ثراسيماخوس ، أفندعو أحدهما موسيقياً ، والآخر لا وسيقياً ؟

ث - نعم ، أدعوهما .

س - فأَيّ الاثنين ندعوه حكيماً ، وأَيّهما غير حكيم ؟

ث - الموسيقي حكيم ، واللاموسيقي غير حكيم .

س - أفلا تحسب هذا صالحاً بقياس كونه حكيماً ، وذلك شريراً بقياس جهله ؟

ث - بلى .

س - أوَتقول هذا في الطبيب ؟

ث - أقوله .

س - أفنظنّ يا صديقي الفاضل أنّ الموسيقي يرمي حين دوزنة أوتاره إلى تجاوزِ موقفِ موسيقي نظيره ، وادّعاء التفوّق عليه ؟

ث - لا أظنّ .

س - أبروم أن يدّعي التفوّق غيرَ الموسيقي ؟

ث - لا ريب في أنه يروم .

س - أوَبروم أن يتجاوز طيباً طيباً آخر ، ويفوت حدودَ الطباقة في ما بالأطعمة ؟

ث - كلاً البتة .

س - فهل ينبغي أن يتجاوز غير الطيب ؟

ث - نعم .

س - فانظر الآن ، باعتبار كل أنواع المعرفة وأضدادها . هل تحسب العالم عالماً من أي نوع كان إذا هو اختار أن يتجاوز عالماً آخر ، قولاً أو فعلاً ، غير مكثف بمثالته في فعله ، وهو نذّه في حذقه ؟

ث - الرأي الثاني هو الصحيح .

س - وما قولك في الجاهل ؟ ألا يتجاوز العالم غير العالم على السواء ؟

ث - أرجح ذلك .

س - ولكنّ العالم حكيم .

ث - نعم .

س - والحكيم صالح .

ث - نعم .

س - فالحكيم الصالح لا يرغب في تجاوز من مثله ، بل من غايته وضادّه ؟

ث - هكذا يظهر .

س - أمّا الشرير الجاهل فيروم تجاوز الاثنين ، نذّه وضدّه ؟

ث - بكلّ وضوح .

س - حسناً يا ثراسيماخوس ، أفلا يتجاوز الجاهل حدود نذّه وضدّه ؟

أليس هذا حكمك ؟

ث - هذا هو .

س - ولكنّ العادل لا يروم سبقَ نده ، بل سبقَ ضده فقط ؟
ث - نعم .

س - فالعادل يشبه الصالح الحكيم ، أمّا المتعدّي فيشبه الشرير الجاهل ؟
ث - هكذا ظهر .

س - ولكنّا اتفقنا أنّ صفات كلّ منهما تحكي صفات نده .
ث - اتفقنا .

س - فوضّح أنّ العادل حكيمٌ وصالح ، والمتعدّي شريرٌ وجاهل .
وهنا احمرّ ثراسيماخوس خجلاً . ولما تقرر أنّ العدالة من الفضيلة والحكمة ،
وأنّ التعدّي رذيلة وجهل ، استأنف سقراط قائلاً :

س - حسنٌ جدّاً ، فقد انتهت المسألة ، ولكنّا قلنا إنّ التعدّي شديد
الساعد ، ألا تذكر ذلك يا ثراسيماخوس ؟

ث - أذكره ، ولكني غير مقتنع باستنتاجاتك الأخيرة . وعندي ما يقال
فيها . على أيّ إذا أفصحتُ عن أفكاري فلاني مؤكّد أنّك تقول إنني أخطب
خطابة . فاحترّ لنفسك إذن أحدَ أمرين : إمّا أنّ تأذن لي بأنّ أتكلّم قدر ما
أشاء ، أو اني ألتزم جانب السؤال إذا كنت تُؤثر ذلك ، وأنصرف معك
تصرف العجائز في حال القصص ، فأقول : حسناً ، وأخفض رأسي مصادقة ،
وأهزه إنكاراً ، حسب مقتضى الحال .

س - إذا كان هكذا فلا نُسيء إلى آرائك .

ث - إنني أعمل ما يسرك ، لأنك لا تأذن لي أن أتكلّم ، أفريد مني أكثر
من ذلك ؟

س - أوكدّ لك أنّي لا أريد أكثر ولا أقلّ . ولكنّ إذا كنت تفعل ذلك

فافعله ، وأنا أسألك .

ث - فابتدىء إذن .

س - إني أكرّر السؤال الذي قدّمته سابقاً ، فنستأنف البحث فيه ، فبماذا تقوم المقابلة بين العدالة والتعدّي ، قد قيل إنّ التعدّي أقوى من العدالة وأعظم فعلاً : أمّا الآن ، وقد رأينا أنّ العدالة حكمة وفضيلة والتعدّي جهل مُطْبِقٌ ، فسهولة يثبت أنها أقوى من التعدّي ، وليس من يجهل ذلك . ولكني لا أختار فصل الخطاب بهذه الصورة الجازمة ، يا ثراسيماخوس . بل أعالج القضية بهذه الصورة : أُنسَلِّمُ أنّ الدولة المتعدّية قد تستعبد غيرها ظلماً ، وتنجع في ذلك فتخضع لها الأمصار ؟

ث - دون شكّ إني أُنسَلِّمُ ، فإنّ أفضل الدول - أي أكثرها غزواً - هي أكثر من سواها إغتناباً .

س - فهتُ أنّ هذا مركزك . ولكنّ المسألة التي نعالجها هي : أتتوطّد صولةُ الدولة الغاصبة دون عدالة ، أم بحكم الضرورة لا غنى لها عن التّزام العدالة ؟

ث - إذا صحّ رأيك أنّ العدالة حكمة ، فمن اللازم الحصولُ على نَجْدَتِها . ولكن إذا صحّ رأيي ، فالتعدّي هو المُستَنَد .
س - ويسرّني أنك لم تكتفِ بخفض الرأس وهزّه ، بل أراك تجيب بكلّ وضوح .

ث - قد فعلتُ ذلك لأسرّك .

س - فلك عليّ الفضلُ والمنة ، فسرّني أيضاً بالإجابة عمّا يلي : هل من مدينة أو جيش ، أو عصابة لصوص ، أو أمة جماعة أخرى ، وطنت النفس على انتهاج منهج التعدّي بالتضامن ، أتنجّع في مسمى وقد انتشر

التعدي في ما بين أفرادها ؟

ث - مؤكّد لا .

س - وإذا تخلّوا جميعاً عن الشّتّان ^(١) المتبادّل ، أفليس ميسوراً
نجاحهم ؟

ث - بلى تأكيداً .

س - لأنّ التعديّ ، يا ثراسيماخوس ، يُنشئ انقساماً وبغضاً بين
الإنسان وأخيه ، أمّا العدالة فتوثّق أواصر الصداقة والوفاء . أليس هذا
أثرها ؟

ث - ليكن كذلك ، لكي لا أنازعك .

س - شكراً لك يا صديقي الفاضل ، فقل لي إذا كان شأنُ التعديّ ، أبرزَ
فناً ^(٢) ، خلّقَ العصيان والشّتّان ، أفلا يلزم عن ذلك أنه متى شجّر
التراع بين الأفراد أبغضوا بعضهم بعضاً ، فتوترت علاقاتهم وتخاذلوا فعجزوا
عن العمل ؟

ث - هكذا الحال بالتأكيد .

س - وفي حال سقوط العدالة بين فردين ، ألا يدبّ بينهما ديبُ الخلاف ،
فيبغض واحدُهما الآخرَ ، ويبغضان العادلين من الرجال أيضاً ؟

ث - يبغضان . .

س - أفيفقد التعديّ في الفرد الأثر الذي له في الجماعة ، أم يحتفظ به ؟
قل يا ثراسيماخوس الحبيب !

ث - نقول إنه يحتفظ به .

(١) الشّتّان : البغضاء والتعديّ وسوء الخلق .

(٢) فناء : انتشر .

س - أفليس ذلك الأثر هو هو أين حَلَّ ، سواءً في مدينة ، أم في عائلة ، أم في جيش ، أم في غير ذلك ؟ فإن التعديَّ يستحيل معه التعاونُ في العمل لما ينشئ بين الناس من الشقاق والتزعاج ، بل إنه يجعل المرءَ عدوَّ نفسه ، وعدوَّ كلِّ إنسان ، ولا سيَّما العادلين . أليس هكذا ؟

ث - مؤكَّد هكذا .

س - فإذا ملأ التعديُّ قلبَ امرئٍ كانت مآتيه الطبيعية ما يأتي : أولاً : العجز عن العمل لسبب التزعاج ، والتقسُّم في داخله . ثانياً : يصير عدوَّ نفسه وعدوَّ العادلين . أليس كذلك ؟

ث - بلى !

س - ولكنَّ الآلهة عادلة أيها الصديق .

ث - هكذا نفرض .

س - فحليف البطل والتعديُّ عدوَّ الآلهة ، أمَّا العادل فصديقها .

ث - علَّل النفسَ بالحجج ، فإني لن أعارضك لثلاثِ أكون خصماً للجماعة الآلهة .

س - فلنكملَّ التعلُّلَ ، فأجبي كما قلتُ آنفاً . إنَّ العادلين أوفرُّ حكمةً وفضلاً ، أو أوفرُّ قوَّةً على العمل متساندين . أمَّا المتعدُّون فيتعدَّون عليهم السير معاً . وما أوردناه من أنَّ الأشرار يعملون متعاونين هو غير واقع فإنَّه لو بلغ الظلمُ في نفوسهم حدَّه الأقصى لاستحال عليهم الاتِّفاق . إنَّ الذين تتَّفَقَمَ شرُّهم وفقدوا العدالة والإنصاف كلَّ الفقد ، يستحيل عليهم التعاونُ والاتِّفاق . هذا هو الواقع على ما أعلم . ولننظر الآن في هل يحيا العادلون حياةً أفضل من حياة المتعدِّين وأسمى وأسعد (١) الخ ...

وهنا يتابع سقراط حوارَه مع السفسطائي فبلقته درساً جديداً في فضل العدالة وسعادة العادلين .

(١) بتصرُّف واختصار عن « جمهورية أفلاطون » ، الكتاب الاول .

الاستبداد

ونقتطف هذا المقطع من حوارٍ طويل دار بين حكيم الإغريق وأديمتوس ، وفيه يتحدث الحكيم عن طبيعة الاستبداد ، وصغر شخصية المستبد وأساليه المتبدلة ، وعن عداوته الدائمة لأصحاب المواهب الممتازة لشعوره بأنه ضئيل أمامهم . ثم عن حاجته إلى أن يعيش بين قوم أكثرهم عديم النفع . قال سقراط :

سقراط - متى رأى الحاكم من العامة هذا الرضوخ ، إلى حد أنه لا حاجة فيه إلى إراقة دم القريب - أفلا يضطهدهم بدعوى مختلفة ، شأن أمثاله ، فيلطح يديه بالدم ، وبزهر الأرواح البشرية ، فيمتص دماءهم بشفتين نجستين ويلحسها بلسان غير طاهر ، فينفي ، ويقتل ... ألا يلزم أن رجلاً كهذا إما أن يقتاله أعداؤه ، أو أنه يزداد استبداداً فيتحول ذئباً ؟

اديمتوس - لا مندوحة عن أحد هذين الأمرين .

س - وتداركاً لكل خطر ، ابتكر كل من ولى الأحكام الحيلة المتبدلة ، وهي أنه يطلب من الأمة أن يعين لنفسه حراساً لئلا تخسر الأمة صديقها المفدى ...

اد - تماماً هكذا .

س - فيلبي العامة هذا الطلب الجزعهم عليه ...

اد - تماماً هكذا .

س - ومتى تم له ذلك ، يحدث ما نصّ عليه الوحي ... وهو :

بطيرٌ مُلتفتٌ بثوبِ هرمسٍ دون وقوفٍ في دياجي الفلكسِ
لحبّنه شأنٌ أخسُّ الأنفسِ

اد - لا مندوحة له عن الجبن .

س - ومن قبضَ عليه مِن أعدائه فإلى الإعدام .

اد - بالتأكيد .

س أفنبحث في سعادة الانسان ، وسعادة المدينة التي ينشأ فيها ابنُ الموت هذا ؟

اد - بكل تأكيد . فدعنا نفعل ذلك .

س - أفلا يهشّ في مستهلّ حكمه وأوائل استبداده ، ويهشّ ؟ أولاً يحیی مَنْ قابله منكرأ أنه مستبدّ ؟ ويكثر من الوعود في السرّ والعلن ؟ أوليس ممّا يفعله أيضاً أن يتظاهر بالوداعة والحنان على الجميع ؟

اد - لا يمكن أن يكون غير ذلك .

س - ومتى أراح نفسه من أعدائه ، بعضهم نفياً ، وبعضهم صلحاً ، يشرع في شتّن الغارات ليظلّ الشعبُ في حاجةٍ إلى قائد .

اد - هذا مسلكه الطبيعي .

س - أوليس من مقاصده أن يُفقر شعبه بكثرة الضرائب فيصيروا محتاجين إلى القوت اليومي . ولهذا السبب يصبحون أقلّ استعداداً للتأمر عليه .

اد - واضح أنه كذلك .

س - أوخطئ؟ أنا في ظني انه إذا ارتاب في بعضهم بأنهم يبتشون في الأمة روحَ الحرّية لكي لا يدعونه بملك بسلام ، وطنّ النفس على القذف بهم إلى ميدان الأعداء لينجو منهم ، فيكون شغله الشاغل لإصلاء نار الحرب ؟

اد - من كلّ بدّ .

س - أولاً ينتج بالضرورة ان بعض اشياعه يصارحونه بأراهم
ويبادلونه الأفكار عاين عليه إدارته ؟

اد - هكذا ينتظر الإنسان .

س - فإذا رام المستبد أن يستتب له الأمر ، وجب أن ينحني كل
هؤلاء من طريقه ، فلا يَبْقَى على ذي جدارةٍ من أعدائه ولا من
أصدقائه .

اد - واضح أن يفعل ذلك .

س - فبرقبهم مدققاً ليرى مَنْ فيهم رجل ، ومَنْ كريم النفس ،
ومن ذكّي . ولحسن حظّه أنه ، أراد أو لم يُرِدْ ، فالضرورة قاضية
عليه أن يكون عدوّاً للجميع وأن يكيد لهم حتى يطهر المدينة منهم .

اد - واضح أنه يفعل ذلك ويا له من تطهيرٍ عظيم . . .

س - نعم ، فإنه يفعل عكس ما يفعله الأطباء في تطهير الأجسام ،
أولئك يُخرجون من الجسم الموادّ الفاسدة ويُبْقون الحيّدة . أمّا المستبدّ
فَيُخرج الحيّدة ويُبقي الفاسد .

اد - هذه خطئته الوحيدة ليستتب له الحكم .

س - فهو مقبّد ، بأقصى ضرورة ، إمّا أن يعيش بين أشخاصٍ
منحطّين أكثرهم عديم النفع ، ويكون مكروهاً منهم ، أو أنه
لا يعيش .

اد - هذا هو التخيير .

س - وبقياس ازدياد بغضهم له لسوء سلوكه ، يرى أنه في حاجةٍ إلى
حرسٍ أوفر عدداً وأصفى إخلاصاً له . أليس كذلك ؟

اد - من المعلوم أنه كذلك .

س - فَمَنْ يَأْتُنْ إِذْنُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِي بِحَرَسٍ أَمْنَاءٍ (١) ؟ .
ويستمرّ الحكيم الإغريقي في إظهار سينات الاستبداد وهزال شخصية
المستبدّ ، في حوارٍ طويل .

نعل الاسكافي

في هذا المقطع من الحوار يلجأ سقراط إلى السخرية الفذّة ، وإلى الحجة
القادرة القاهرة ، في تهديم مذاهب الحكّام الذين كانوا يستأثرون بأوفر
نصيب من الأموال ويختلسون ما أمكنهم اختلاسُه من الثروات ، وهم
يزعمون أنّ ذلك ناموسٌ طبيعي لا غبار عليه . وقد أعلن سقراط ، كل
أيام حياته ، حرباً قاسيةً لا تلين ، على هذه الطغمة من الحاكين :

كالليكلس - إنني أعتقد أنّ العدالة الطبيعية قد أملت أنّ يحكم القادرُ
الضعيفَ ، وأنّ يحكم العالمُ الجاهلَ ، وإن كانوا شركاء في أمرٍ فاز العالم
بنصيبٍ أكبر من نصيب الضعفاء والجاهلين .

سقراط - لَبِثُ قَلِيلاً فما عسى أن تقول الآن ؟ فهبنا التقينا جميعاً في
مكانٍ كما نلتقي اليوم ، وكنا كثيرين عدداً وتوفّرَ لجماعتنا طعامٌ كثيرٌ
وشرابٌ كثيرٌ ، وكان ذلك شركةً بيننا جميعاً ولم نكن سواءً في قوتنا وكان
فينا الضعيف والقوي ، وكان بيننا طبيب وهو أعلمنا بهذا الأمر . ولكنه
كان بطبيعة الحال أقوى جسداً من بعضنا وأضعف جسداً من بعضنا الآخر ،
وهو أعلمنا جميعاً بالطب . أفلا ترى أنّ نعدّه أصلاً وأقواناً ؟

(١) بتصرف واختصار عن جمهورية أفلاطون ، الكتاب الثامن .

كالليكلس - لاشك في ذلك .

سقراط - فهل ينبغي له أن يختص نفسه بنصيب أكبر منا في الطعام والشراب لأنه أصلحنا في الطب ، أم عليه وهو حاكنا أن يقسم بيننا الطعام والشراب بالعدل ولا يتأثر بقسط أكبر من حاجة جسمه إن أراد ألا يشكو تخمة . وعلى ذلك فسيكون نصيبه أصغر من نصيب بعضنا وأكثر من نصيب بعضنا ، بحسب حاجته . فإن حدث أن كان ذلك الطبيب ، أضعفنا جسماً كان نصيب أصلحنا وأعلمنا وحاكنا أقل نصيب في الجماعة . أوليس كذلك أيها العزيز

كالليكلس - إنك لا تكف عن الحديث عن الطعام والشراب وأنا لا أكلمك عنهما .

سقراط - ولكن ذلك الذي نسميه « الأصلح » أوليس هو أعلم الناس ؟

كالليكلس - نعم .

سقراط - وهل يجب أن تختص ذلك الأصلح بأكبر نصيب من المال العام ؟

كالليكلس - ولكني لا أقول في الطعام ولا في الشراب .

سقراط - إني أرى ، ولعلك تريد الثياب ، وينبغي بعد ذلك أن يلبس أعلم الناس بالنسيج أكبر ثوب في الدنيا ! وأن يمضي في الأسواق ملفعاً بأجمل الثياب وأكثرها عدداً . . .

كالليكلس - ولكن مالك وللثياب ؟

سقراط — ولا شكّ في أنّ أعلم الناس بصناعة النعال يجب أن يكون أغنى الناس في النعال ، وعلى ذلك ينبغي أن ينتزه في المدينة بأكبر النعال . . .

كالليكلس — ما هذه النعال ، عمّ تتحدث يا سقراط ؟

سقراط — فإذا كنت لا تتحدّث عن هذه الأشياء فلعلّك تريد شيئاً كالزراعة ، ولعلّك تريد أن أعلمنا بالزراعة يجب أن يستأثر بأكبر مقدار من البذور ليزرعها في أرضه الخاصة .

كالليكلس — إنك تُبدي وتُعيد في نفس الشيء يا سقراط

سقراط — إنني أبدي وأعيد في نفس الموضوع (١) . . .

السفسطائيون

من حوارٍ دار بين سقراط وأنتيوس عن السفسطائيين :

سقراط — هذا الضيف الغريب يا أنتيوس حدّثني منذ حين أنه يشتهي أن يتعلّم الحكمة ، وأن يتعلّم هذه الفضيلة التي تقدّر للناس أن يحُسّنوا سياسة بلادهم وأوطانهم . فانظر أيّ معلّم ترى أن نرسل إليه هذا الغريب ليأخذ عنه هذه الفضيلة . أو لا ترى أننا ينبغي أن نرسله إلى الذين يدعون تعليم الفضيلة وبيعون علمهم بضاعة لمن أراد أن يتعلّمها لقاء أجرٍ معلوم ؟

أنتيوس — ومن هؤلاء الذين تعني يا سقراط ؟

سقراط — إنك تعرف هؤلاء الذين يسمّونهم السفسطائيين .

أنتيوس — تجنّب هذا الفأل بحق هيراقليس يا سقراط ، وادع الله أن

(١) يتصرّف عن كتاب « سقراط » لـ لكتور هيني ص ١٠٠ - ١٠٢ .

لا يمسّ الخيال أحداً من عشيرتي وأهلي وأصدقائي ، المواطنين منهم والغريباء ،
فيلقي به بين أيدي هؤلاء المفسدين فإتهم وباء وفساد لمن يجاورهم .

سقراط - ماذا تقول يا أنيتوس ؟ وهل خالف السفسطائيون سائر الذين
بدّعون إصلاح ما يسلّم الناس إصلاحه فلا يصلحون ما يلقي إليهم
وانتما بردونه أشدّ فساداً من ذي قبل وهم بعد هذا يسألون أجراً على
هذا الفساد . إني لا أكاد أصدق ما تقول . إني أعرف رجلاً واحداً منهم
« بروتاغوراس » جمع وحده من هذه المعرفة ثروة مالية لم يجمعها
فيدياس الذي أبدع أجملّ التماثيل ، بل لم يجمعها فيدياس وعشرة
مثالين معه ! إنك تحدثنا عجباً يا أنيتوس ! أرايت لو أن إسكافياً
يُصلح النعال البالية ورائقاً يرقع الثياب القديمة ردّاً النعال والثياب أفسد
حالا مما أخذها كانت عاقبتهما أن يهلكا جوعاً ، ولا يستطيعان أن
يُخفيا فعلتهما على الناس ثلاثين يوماً ، على حين يخفي بروتاغوراس على
كافة الأغريق أنه يردّ تلاميذه أسوأ مما أخذهم ويخفي ذلك على الناس
أربعين عاماً .

الطبيعة الحلوة

بهذا الحوار القليل الشهّي ، يدعو سقراط تلميذه « فيلدر » إلى الطبيعة ،
هذه العروس الصادقة الضاحكة ، ليقرا بين أحضانها كتاباً جميلاً :
سقراط - تقدّم وانظر أين نجلس .
فيلدر - ألا نرى هنالك شجرة « بلاتان » عالية ؟

سقراط - بلى . وما شأنها ؟

فيدر - سنجد لها ظلاً ونسيماً عليلاً ونجد تحتها عشباً ينبسط فوقه .

سقراط - نقدّم إذن .

فيدر - إننا قد بلغنا الشجرة .

سقراط - بحق « هيرا » إنّه لموضعٌ جميل ، وهذه الشجرة عالية باسقة ضخمة . وشجرات « الاخترس » شجراتٌ عالية ذاتُ ظلٍّ ناعم ، وهي في أكمل ازدهارها وتعلأ الفضاء بشذا زهورها ، ويمجري من تحت « البلاتان » نبعٌ جميلٌ باردٌ مأوّه كما نحسّ ذلك قدمي . ولعلّ هذا النبع قد نذر لبعض الجحور أو لأخيلاوس ، وأكاد أرى ذلك من هذه التماثيل الصغيرة . ونسيم هذه الأرض رقيقٌ عليل وتسمع لديه ألسان « السيكال » تجاوب أنشودة الصيف المطربة . وأنعم ما في هذه الأرض هو ذلك العشب المنحدر الطبيعي الذي يميّء لمن ينبسط فوقه وساداً مريحاً لرأسه (١) .

نبع الجمال

كان سقراط يستعمل مع تلاميذه منهجاً حوارياً خالياً من السخرية وروح النقاش ، فيتدرّج بهم من المحسوس إلى المعقول ، ومن صغار الأشياء إلى كبارها ليهديهم عن طريق الاقتناع إلى معرفة أنفسهم بأنفسهم ، ثم إلى المعارف العامة التي تنتهي بالفضيلة ثم بالخير والجمال . وفي هذا الحوار القصير الرائع بين سقراط وكسينوفون نموذجٌ عن هذا المنهج :

سقراط - أتعرف أين يُباع الخبز ؟

كسينوفون - يباع في مكان كذا .

سقراط - أوتعرف أين يباع اللحم ؟

كسينوفون - في مكان كذا .

سقراط - وهل تعرف أين تباع الأقمشة والأحذية ؟

كسينوفون - إنها تباع في السوق .

سقراط - وهل تعرف مصدر الفضيلة أو الخير المطلق ؟

كسينوفون - كلا !

سقراط - أليس من العار أن تعرف مصدر الخبز واللحم والأقمشة والأحذية

وتجهل مصدر الفضيلة مع أنها الميزة الوحيدة بين الانسان والحيوان ؟ (١) .

بيت عمك !!

وكان يستعمل المنهج الساخر مع خصومه في المذهب والرأي ، ويقسمه إلى مرحلتين : الأولى سلبية ، وفيها يجاري خصمه في ضلاله ويُغريه بلبنه ومجاراته إياه حتى يهوي به إلى حضيض التناقض أو الخطأ ، فإذا أوصله إلى هذا الحضيض تمسك عليه بما سقط فيه ، وأخذ يتهم به وييدي للناس خطاه وتناقضه حتى يُجنِّقه عليه ويثير ثائرته ويُخرجه عن طوره ، فتزبد حجته ضعفاً ، ويكثر منطقُه اضطراباً وتناقضاً . وحين ذاك لا يسهه إلا التسليم بما يقول . وعندئذٍ يعد سقراط نفسه أنه قد نجح في انتزاع الأباطيل من نفس خصمه . وهذه غايته الأساسية من سخريته اللاذعة التي كان يصلي بها خصومه ناراً حامية ، لا عن خبثٍ وشرٍّ ، وإنما ابتغاء هدايتهم وإرشادهم . وهو لهذا كان يقول : « إن السخرية هي التي تخلصنا من الخطأ وتعدّ عقولنا لقبول المعرفة ، ولأنها هي أمضى سلاح

(١) الفلغة الاغريقية الجزء الاول ١٥٦ .

للقضاء على الأباطيل والأضاليل . فإذا نال بغيته من السخرية بدأت المرحلة الثانية التي تتناول موضوع المسألة المنشورة بينهما على بساط البحث .

ومن أقسى الحواريات سخرية وتهكماً لاذعين ، نقاش دار بين سقراط وبين « غلوكون » وهو رجلٌ تافهٌ مغرورٌ كان يزعم لنفسه أنه من رجال الفطنة الذين سيستولون على الحكم في البلاد ، وكان سقراط يعلم أنه من الجهال الفسارغين الذين لا يعرفون قدرهم الحقيقي ، فاشتبك معه في حوار طويل هشته فيه تهشماً . ومما جاء في هذا الحوار :

سقراط — أليس من الجلي أنك إذا أردت أن يحترمك الشعب يجب عليك أن تقدم خدمةً إلى الجمهورية ، فهل تريد مثلاً أن تُغنيها ؟
غلوكون — إنني أودّ ذلك .

سقراط — أفليس الطريق الناجع لاغنائها أن تزيد في دخلها ؟
غلوكون — إن هذا طبيعي .
سقراط — قل لنا أذن ، من أي المصادر يتكوّن اليوم دخل الدولة ؟
وما أرقام هذا الدخل ؟

غلوكون — أقسم : « زوس » أنني لم أفكر في ذلك قط .
سقراط — قل لنا على الأقل : ما هي نفقات المدينة ؟
غلوكون — إنني لم أنشغل قط بهذا ايضاً .
سقراط — قل لنا على الأقل : ما هي قوى دولتنا على الأرض ، وعلى البحر ؟ وما هي قوى أعدائنا ؟

غلوكون — حقاً يا سقراط إنني لا أستطيع أن أجيب عن هذه الأسئلة بدون تحضير . . .

ولكن سقراط لم يَعْفُهُ من هذا الموقف الحرج ، بل أخذ يضايقه ويوجه إليه أسئلةً مختلفة عن مقادير ما في الدولة من حبوب ، وعدد ما فيها من مناجم وغير ذلك حتى ضيق عليه الخناق دون أن يظفر منه بجواب واحد . فاستخلص من ذلك الحكم الآتي وهو : أنه لا يستطيع أحد أن يُدير منزلاً خاصاً دون أن يحيط علماً بجميع حاجاته ، فكيف إذا تعلق الأمر بالدولة !

وبعد أن انتهى من هذا الحكم وجه إليه سائراً هذا السؤال :

سقراط - حيث قد تبين أنه من الصعب عليك أن تشتغل بإسعاد أسرِ الدولة الكثيرة العدد ، فلماذا لا تشتغل على الأقل بإسعاد أسرةٍ واحدة وهي أسرةُ عمك التي هي في أشد الحاجة إلى الإسعاد ؟

غلوكون - من المؤكد أنه لو سمع عمي نصائحي لكنتُ نافعاً لأسرته .

سقراط - ماذا ؟ أنت لم تستطع أن تقنع عمك وحده ، ومع ذلك تريد أن تقنع جميع الأثينيين ومن بينهم عمك ؟ !

(١) « الفلسفة الاغريقية » الجزء الاول ص ١٥٧ - ١٦٠ ، عن جانيه وسياسي .

بِلاَغَةِ عَلِيٍّ
فِي حِكْمَةِ الْوُفَاةِ

حُدُودُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ

• وكان شديداً ، قاصفاً ، مُزْمَجِراً ، كالرَّعْدِ في

ليالي الويل !

• فالينبوعُ هو الينبوعُ لا حسابُ في جَرِيهِ لِلَّيْلِ أو

نهار !

مَنْ تَتَبَعَ سَيْرَ الْعِظَمَاءِ فِي التَّارِيخِ لَا فَرْقَ بَيْنَ شَرْقِيٍّ مِنْهُمْ وَغَرْبِيٍّ ،
وَلَا بَيْنَ قَدِيمٍ وَمُحَدَّثٍ ، أَدْرَكَ ظَاهِرَةً لَا تَخْفَى وَهِيَ أَنَّهُمْ ، عَلَى
اِخْتِلَافِ مِيَادِينِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ وَعَلَى تَبَايُنِ مَذَاهِبِهِمْ فِي مَوْضُوعَاتِ النِّشَاطِ الذِّهْنِيِّ ،
أَدْبَاءٌ مُوْهَبُونَ عَلَى تَفَاوُتٍ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، فَهَمٌّ بَيْنَ مَتْنَجٍ خَلَاقٍ ،
وَمَتَذَوِّقٍ قَرِيبِ التَّذَوِّقِ مِنَ الْإِنْتِاجِ وَالْخَلْقِ . حَتَّى لِكُلِّ أَحَدٍ الْحَسَنُ الْأَدَبِيُّ ،
بِوَسْعِ دُنْيَوَاتِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَشْكَالِهِ ، يُلْزَمُ كُلُّ مُوهَبَةٍ خَارِقَةٍ فِي كُلِّ لَوْنٍ مِنْ
أَلْوَانِ النِّشَاطِ الْعَظِيمِ !

فَنَظَرَةٌ وَاحِدَةٌ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ، مِثْلًا ، تَكْفِي لِتَقْرِيرِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي
الْأَذْهَانِ . فَمَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَشْعِيَا وَأَرْمِيَا وَأَيُّوبَ وَالْمَسِيحَ وَمَعْمَدَ إِلَّا
أَدْبَاءٌ أَوْتَوْا مِنَ الْمَوْهَبَةِ الْأَدَبِيَّةِ مَا أَوْتَوْا مِنْ سَائِرِ الْمَوَاهِبِ . وَهَذَا نَابُولِيُونُ

القائد ، وادوار هربو السياسي ، ولينين المشرع والزعيم ، وأفلاطون الفيلسوف ، وباسكال الرياضي ، وجواهر لال نهرو رجل الدولة والفكر ، وباستور العالم الطبيعي ، وجمال الدين الأفغاني المصلح الاجتماعي ، لأنهم جميعاً أدباء لهم في الأدب ما يجعلهم في مصاف ذوي الشأن من أهله ! فلكل منهم لون من ألوان النشاط الفكري حدّده الطبعُ والموهبة ، ثم رعتِ التزعةُ الجماليةُ ما دخل منه في نطاق التعبير ، فإذا هو من الأدب الخالص .

هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن أبي طالب ، فإذا هو الإمام في الأدب وسره البلاغة ، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علّم وهدى ! وآيته في ذلك « نهج البلاغة » الذي يقوم في أسُس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسُس ، وتتصل به أساليب العرب في نحو ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه وبجيا جيدها في نطاق بيان الساهر !

أمّا البيان فقد وصل عليٌ سابقه بلاحقه ، فضمّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً ، إلى البيان الاسلامي الصافي المهدّب المتحد بالفطرة السليمة والمنطق القوي اتحاداً لا يجوز فيه فصل العناصر بعضها عن بعض . فكان له من بلاغة الجاهلية ، ومن سحر البيان النبوي ، ما حدّأ بعضهم إلى أن يقول في كلامه إنه « دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق » .

ولا غرو في ذلك ، فقد تهيأت لعلّي جميع الوسائل التي تعدّه لهذا المكان بين أهل البلاغة . فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو ، ثم

لأنه عايش أحكم الناس محمد بن عبد الله . وتلقى من النبي رسالته بكل ما فيها من حرارة وقوة . أضف إلى ذلك استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة ، فإذا بأسباب التفوق تجتمع لديه من الفطرة ومن البيئة !

•

أما الذكاء ، الذكاء المفرط ، فتلقى له بكل عبارة من « نهج البلاغة » عملاً عظيماً . وهو ذكاء حي ، قدير ، واسع ، عميق لا تفوته أغوار . إذا هو عمل في موضوع أحاط به بعداً فما يُفليت منه جانب ولا يُظلم منه كثير أو قليل ؛ وغاص عليه عمقاً ، وقلبه ثقیلاً ، وعركه عركاً ، وأدرك منه أخفى الأسباب وأمعنها في الاختفاء كما أدرك أصدق النتائج المرتبة على تلك الأسباب ، ما قرب منها أشدّ القرب ، وما بعد أقصى البعد .

ومن شروط الذكاء العلويّ النادر ، هذا التسلسل المنطقي الذي تراه في النهج أنى اتجهت . وهذا التماسك بين الفكرة والفكرة حتى تكون كلّ منها نتيجة طبيعية لما قبلها وعلّة لما بعدها . ثم إن هذه الأفكار لا تجد فيها ما يستغنى عنه في الموضوع المعالج . بل لا تجد فيها ما يستقيم البحث بدونه . وهو ، لاتّساع مداه ، لا يستخدم لفظاً إلاّ وفي هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل وتمعن في التأمل ، ولا عبارة إلاّ وتفتح أمامك آفاقاً وراءها آفاق من النظر الجليل .

فمن أيّ رجبٍ وسعٍ من مسالك التأمل والنظر يكشف لك قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » أو قوله : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » . أو « الفجور دارُ حصنٍ ذليل ! » وأيّ إيجاز مُعجز هو هذا الإيجاز :

« مَنْ تَخَفَّتْ لَحَى ، وَأَيَّ جَلِيلٍ مِنَ الْمَعْنَى فِي الْمُبَارَاتِ الْأَرْبَعِ وَمَا
نَحْوِهِ مِنَ الْأَفَاقِ قَلَائِلُ فَصَلَّتْ تَفْصِيلاً ، بَلْ قُلْ أَنْزَلْتُ تَتْرِيلاً !

ثُمَّ عَنْ أَيِّ حَدَثٍ فِي الذِّكَاءِ وَاسْتِعَابِ الْمَوْضُوعِ وَعَمَقِ فِي الْإِدْرَاكِ ،
يُشْفَى هَذَا الْكَشْفُ الْعَجِيبُ عَنْ طَبْعِ الْحَاسِدِ وَصِفَةِ نَفْسِهِ وَحَقِيقَةِ حَالِهِ :
« مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الْحَاسِدِ : نَفْسٌ دَائِمٌ وَقَلْبٌ هَائِمٌ وَحُزْنٌ
لَازِمٌ ، مَغْتَاظٌ عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، بِخَيْلٍ بِمَا لَا يَمْلِكُ ! »

وَيَسْتَمِرُّ تَوْلَدُ الْأَفْكَارِ فِي « نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » مِنَ الْأَفْكَارِ ، فَإِذَا أَنْتَ
أَمَامَ حَشْدٍ مِنْهَا لَا يَنْتَهِي . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَتَرَاكُمُ بَلْ يَتَسَاوَقُ وَيَتَرْتَبُ
بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ . وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَا يَكْتُبُهُ عَلَيَّ وَبَيْنَ مَا يُلْقِيهِ
ارْتَجَالًا ، فَالْيَبُوعُ هُوَ الْيَبُوعُ وَلَا حِسَابَ فِي جَرِّهِ لِلَّيْلِ أَوْ نَهَارٍ .

فَفِي خُطْبِهِ الْمُرْتَجَلَةِ مَعْجَزَاتٌ مِنَ الْأَفْكَارِ الْمَضْبُوتَةِ بِضَابِطِ الْعَقْلِ
الْحَكِيمِ وَالْمُنْطَقِ الْقَوِيمِ . وَإِنَّكَ لَتَدْهَشُ ، أَمَامَ هَذَا الْمَقْدَارِ مِنَ الْأَحْكَامِ
وَالضَّبْطِ الْعَظِيمِينَ ، حِينَ تَعْلَمُ أَنَّ عَلِيًّا لَمْ يَكُنْ لِيَعْدَ خُطْبَهُ وَلَوْ قَبِيلَ
إِلْقَائِهَا بِدَقَائِقَ أَوْ لِحْظَاتٍ . فَهِيَ جَائِشَةٌ بِقَلْبِهِ مُنْطَلِقَةٌ عَلَى لِسَانِهِ عَقْفَوُ الْخَاطِرِ
لَا عُنَتْ وَلَا إِجْهَادَ ، كَالْبَرْقِ إِذْ يَلْمَعُ وَلَا خَيْرَ بِأَخْذِهِ أَوْ يُعْطِيهِ قَبْلَ وَمِيزِهِ .
وَكَالصَّاعِقَةِ إِذْ تَرْجَحُ لَا تُنْهِي نَفْسَهَا لِصَعْقٍ وَزَجْرَةٍ . وَكَالرَّيْحِ إِذْ تَهْبِ
فَتَلْوِي وَتَمِيلُ وَتَكْسَحُ وَتَنْصَبُّ عَلَى غَايَةٍ ثُمَّ إِلَى مَدَاوِرِهَا تَعُودُ وَلَا مَا يَدْفَعُهَا
إِلَى أَنْ تَرُوحَ وَتُجِيءَ إِلَّا قَانُونُ الْحَادِثَةِ وَمُنْطَقُ الْمُنَاسِبَةِ فِي حُدُودِهَا الْقَائِمَةُ ،
لَا قَبْلَ وَلَا بَعْدَ !

وَمِنْ مَظَاهِرِ الْعَقْلِ الْقَوِيِّ فِي « نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » تِلْكَ الْحُدُودُ الَّتِي كَانَ عَلِيٌّ
يَضْبِطُ بِهَا عَوَاطِفَ الْحُزَنِ الْعَمِيقِ إِذْ تَهَيَّجُ فِي نَفْسِهِ . فَإِنَّ عَاطِفَتَهُ الشَّدِيدَةَ مَا

تكداد تُغرقه في محيط من الأحزان والكآبات البعيدة ، حتى يبرز سلطان العقل بجلاء ومضاء ، فإذا هو أمرٌ مطاع .

ومن ذكاء عليّ المفرط في نهجه أنّه نَوَّع البحث والوصف فأحكم في كلّ موضوع ولم يقصر جهده العقليّ على ناحية واحدة من الموضوعات أو من طرق البحث . فهو يتحدث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس ، وطبائع الأفراد والجماعات . وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء . ويسهب في القول في التاريخ الطبيعي فيصف خفايا الخلق في الخفاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها . ويضع للمجتمع دساتير وللأخلاق قوانين . ويبدع في التحدث عن خالق الكون وروائع الوجود . وإنك لا تجد في الأدب العربي كلّ هذا المقدار الذي تجده في « نهج البلاغة » من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم في مثل هذا الأسلوب النادر !

•

أما الخيال في « نهج البلاغة » فمديدٌ وسيع ، خفّاق الجوانح في كلّ أفق ! وبفضل هذا الخيال القوي ، الذي حرّم منه كثيرٌ من حكماء العصور ومفكرّي الأمم ، كان عليّ يأخذ من عقله وتجاربه المعاني ذات الموضوعية الخالصة ، ثم يطلقها زاهيةً متحركة في إطارٍ تثبت على جنباته ألوانُ الجمال على أروع ما يكون اللون . فالمعنى مهما كان عقلياً جافاً لا يمرّ بمخيّلة عليّ حتى تثبت له أجنحةٌ تقضي فيه على صفة الجمود وتُبَلِّورُ ما فيه من حقيقة .

فخيال عليّ هو نموذج للخيال العبقريّ الذي يقوم على أساسٍ من الواقع

العميق ، فيحيط بهذا الواقع ويُبْرِزُه ويَجْلِيه ، ويجعل له امتداداتٍ من معدنه وطبيعته ، ويصبغه بألوان كثيرة من مادته ولونه . فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً وإذا بطلها يقع عليها أو تقع عليه !

وقد تميز عليٌّ بقوة ملاحظة نادرة ، ثم بذاكرة واعية تخزن وتتسع . وقد مرّ من أطوار حياته بعواطف جَرَّها عليه حقدُ الحاقدين ومكرُ الماكرين ، ومرّ منها كذلك بعواطف كريمة أحاطه بها وفاءُ الطيبين وإخلاص المخلصين . فتبسّرت له من ذلك جميعاً عناصرُ قويّة تغذي خياله المبدع . فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتساق في لوحات رائعة حيّة ، شديدة الروعة والحيوية ، تتركز على واقعية صافية تمتدّ لها فروعٌ وأغصان . ذات أوراق وأثمار !

ومن ثمّ يمكنك . إذا شئت . أن تُحوّل عناصر الخيال القوي في « نهج البلاغة » إلى رسومٍ مخطوطة باللون . لشدة واقعيّتها واتساع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها . ألا ما أروع خيال الإمام إذ يخاطب أهل البصرة وكان بنفسه ألمّ منهم بعد موقعة الجمل ، قائلاً : « لَتَغْرِقَنَّ بِلَدُنْكُمْ حَتَّى كَأَنَّي أَنْظَرُ إِلَى مَسْجِدِهَا كَجَوْجُو طَيْرٍ فِي بُحْتَةِ بَحْرٍ »^(١) . أو في مثل هذا التشبيه الساحر : « فَيَتَنُّ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ » . أو هذه الصورة المتحرّكة : « وَإِنَّمَا أَنَا كَقُطْبِ الرَّحَى : تدور عليّ وأنا بمكاني » . أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشبه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم القيلة : وتبدو له شُرْفَاتُهُنَّ كَأَنَّهَا أَجْنَحَةُ النُّورِ : « وَيَلُّ لَسِيكَكُمْ الْعَامِرَةَ ، والدور المزخرفة التي لها أجنحة كَأَجْنَحَةِ النُّورِ وخراطيم كخراطيم القيلة » .

(١) الجوّجُو : المصدر .

ومن مزايا الخيال الرحبِ قوّةُ التمثيل . والتمثيلُ في أدب الإمام وجهٌ ساطعٌ بالحياة . وإن شئتَ مثلاً على ذلك فانظرُ في صاحب السلطان الذي يغطيه بعضُ الناس ويتمنّون ما هو فيه من حال ، ولكنه أعلمُ بموضعه من الخوف والحدَر ، فهو وإن أخافَ بمركوبه إلا أنّه يحنّى أن يغتاله ؛ ثمّ انظرُ بعد ذلك إلى عليّ كيف يمثّل هذا المعنى يقول : « صاحب السلطان كراكب الأسد : يُغبِط بموقعه ، وهو أعلمُ بموضعه » . وإن شئتَ مثلاً آخرَ فاستمعْ إليه يمثّل حالةَ رجلٍ رآه يسعى على عدوٍّ له بما فيه إضرارٍ بنفسه ، فيقول : « إنّما أنت كالطاعن نفسه ليقتلَ رِدقَه » . والرِدْف هو الراكبُ خلفَ الراكب . ثمّ إليك هذا الأسلوب الرائع في تمثيل صاحب الكذب : « إياك ومصادقةَ الكذاب فإنه كالسراب : يُقَرِّبُ عليك البعيد ويُبْعِدُ عنك القريب ! »

أمّا النظرية الفنيّة القائلة بأنّ كلّ قبيح في الطبيعة يصبح جميلاً في الفنّ ، فهي إن صحّت فإنّما الدليلُ عليها قائمٌ في حديث ابن أبي طالب عن سكّان القبور . فما أهولَ الموت وما أبشعَ وجهه . وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجمل وقعته . فهو قولٌ آخذٌ من العاطفة الفيّاضة نصيباً كثيراً ، ومن الخيال الخصب نصيباً أوفر . فإذا هو لوحةٌ من لوحات الفنّ العظيم لا تُدانيها إلا لوحات عباقرة الفنّ في أوروبا ساعة صوّروا الموت وهوّله لوناً ونغماً وشعراً .

فبعد أن يُذكر عليّ الأحياء بالموت ويُقيم العلاقة بينهم وبينه ، يوقظهم على أنّهم دائنون من منزل الوحشة بقولٍ فيه من الغربة القاسية لونٌ قائمٌ ونغمٌ حزين : « فكأنّ كلّ امرئٍ منكم قد بلغ من الأرضِ منزلَ وحدته ، فياله من بيتٍ وحدة ، ومنزلٍ وحشة . ومقرّدٍ غربة ! »

ثم يهزّهم بما هم مسرعون إليه ولا يدرون ، بعبارة متقطّعة متلاحقة
وكانَ فيها دويّ طبولٍ تُشدّر تقول : « ما أسرع الساعات في اليوم ،
وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ، وأسرع السنين في
العُمر ! » بعد ذلك يُطلق في أذهانهم هذه الصورة الرائعة التي يأمر بها
العقلُ ، وتُشعلها العاطفة ، ويجسّم الخيالُ الوثابُ عناصرها ثم يعطيها
هذه الحركات المتتابعة وهي بين عيونٍ تدمع وأصواتٍ تنوح وجوارحٍ
تئنّ ، قائلاً : « وإتّما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم » .
ثم يعود فيطلق لعاطفته وخياله العنانَ فإذا بهما يُبدعان هذه اللوحة الخالدة
من لوحات الشعر الحيّ :

« ولكنهم سُفُوا كَأْساً بَدَلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً ، وبالسَّمْعِ صَمّاً ،
وبالحركات سكناً . فكأُتْهُمْ في ارتِجَالِ الصِّفَةِ صرعى سُبَات (١) .
جيرانٌ لا يتَأَنُّون . وأحِبَّاءٌ لا يتزاورون . بَلَّيْتُ بَيْنَهُمْ عُرَى التَّعَارُفِ ،
وانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسَابُ الْإِخَاءِ . فَكَلَّمْتُ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وبجانب
الهِجَرِ وَهُمْ أَخْلَاءٌ ، لا يتعارفون لَيْلٍ صَبَاحاً ، ولا لِنَهَارٍ مَسَاءً .
أَيُّ الْجَدِيدَيْنِ (٢) ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا (٣) » .

ثم يقول فيهم هذا القول الرهيب : « لا يعرفون مَنْ أَنَاهُمْ ، ولا
يُخْفِلُونَ مَنْ بَكَاهُمْ ، ولا يجيئون مَنْ دَعَاهُمْ ! »

فهل رأيتَ إلى هذا الإبداع في تصوير هَوْلِ الموتِ وَوَحْشَةِ القبرِ وَصِفَةِ
سكَّانِهِ في قَوْلِهِ : « جيرانٌ لا يتَأَنُّون وأحِبَّاءٌ لا يتزاورون » . ثم هل

(١) ارتجال الصفة : وصف الحال بلا تأمل ، فالواصف لهم بأول النظر ينظّم صرعى من
السيات ، أي النوم .

(٢) الجديدان : الليل والنهار .

(٣) سَرْمَد : أبدي .

فطنت إلى هذه الصورة الرهيبة الأبدية للموت التي لا ترسها إلا عبقرية علي : « أيّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سَرْمدا ! » ومثل هذه الروائع في « النهج » كثير .

•

هذا الذكاء وهذا الخيال في « نهج البلاغة » يتحدان اتحاد الطبيعة بالطبيعة مع العاطفة الشديدة التي تمدّهما بوهج الحياة . فإذا الفكرة تتحرك وتجري في عروقها الدماء سخية حارة . وإذا بها تخاطب فيك الشعور بمقدار ما تخاطب العقل لانطلاقها من العقل الذي تمدّه العاطفة بالدفء . وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثر من آثار الفكر أو الخيال في ميادين الأدب وسائر الفنون ، إن لم تكن للعاطفة مشاركة فعالة في إنتاج هذا الأثر . ذلك أن المركّب الانساني لا يرضيه ، طبعياً ، إلا ما كان نتاجاً لهذا المركّب . وهذا الأثر الأدبي الكامل ، وهو ما نراه في نهج البلاغة . وإنك لتحسّ نفسك مندفعاً في تيّار جارٍ من حرارة العاطفة بسائر ألوانها وأنت تسير في نهج البلاغة من مكان إلى آخر .

أفلا يشيع في قلبك الحنانُ والعطفُ شيوعاً وأنت تصغي إلى عليّ يقول : « لو أحبّني جبلٌ لتهافتَ » أو : « لا رأي لمن لا يطاع ! » أو : « دعوني والتمسوا غيري » . أو : « يا دنيا ! يا دنيا ، غريّ غيري ! » أو في هذا القول الموجز الزاخر بالحنان : « فقدُ الأحبّة غربه » أو في قوله : « اللهمّ ! إني استعديك على قريش ، فإنّهم قد قطعوا رحمي واكفأوا إنائي ، وقالوا : ألاّ إنّ في الحقّ إنّا نأخذُه وفي الحقّ أن تمنعه ، فاصبر مغموماً أو متّ متأسفاً . فنظرتُ فإذا ليس لي رافدٌ ولا ذابٌ ولا مساعدٌ إلاّ أهل بيّتي ! »

وإليك هذا الجمال في العاطفة ، وهذه القوة ، في كلامٍ له عند دفن السيدة فاطمة ، ويخاطب به ابن عمته الرسول :

« السلام عليك يا رسول الله عنّي وعن ابتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك ! قلّ ، يا رسول الله ، عن صفيتك صبري ، ورقّ عنها تجلّدي ، إلّا أنّ لي في التأسيّ بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك ، موضع تعزّز ! » ومنه : « أمّا حزني فسرمد ، وأمّا ليلي فمسهّد ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ! » ثمّ إليك هذا الخبر :

روى أحدهم عن نوف البكالي بصدد إحدى خطب الإمام عليّ^ع قال :

خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو قائم على حجارة نصبها له جمدة بن هيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجله نعلان من ليف ، فقال عليه السلام ، في جملة ما قال :

« ألاّ إنّه أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً . وأزعم الرحال عباد الله الأخيار ؛ وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثيرٍ من الآخرة لا يقى ! ما ضرّ إخواننا الذين سُفكت دماؤهم وهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء يُسبغون الغصص ، وبشربون الرقيق ؟ ! قد ، والله ، لقوا الله فوقهم أجورهم وأحلّتهم دار الأمن بعد خوفهم ! أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق ؟ أين عمّار^(١) ؟ وأين ابن التيهان ؟ وأين ذو الشهادتين ؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاهدوا على النية ؟ »

قال : ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء !

(١) يقصد عمار بن ياسر .

وأخبر ضرار بن حمزة الضائي قال : فأشهد لقد رأيته - يقصد الإمام - في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائمٌ في ظلامه قابضٌ على لحيته يتململ ويبكي بكاء الحزين ويقول : « يا دنيا يا دنيا ، إلبك غني ! أبي تعرضت ؟ أم إليّ تشوّفت ؟ لا حان حينك ، هيهات ! غرتي غيري ، لا حاجة لي فيك ، قد طلقْتُك ثلاثاً لا رجعة فيها ! فعيشك قصير . وخطرك يسير ، وأملك حقير ! آه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد !

هذه العاطفة الحارة التي عرفها الإمام في حياته ، تُواكبه أنتى اتجه في « نهج البلاغة » وحيث سار . تُواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط ، كما تُواكبه في ما يثير العطف والحنان .

حتى إذا رأى تحاذُلَ أنصاره عن مساندة الحقّ فيما يناصر الآخرون الباطلَ ويحيطونه بالسلاح والأرواح . تألم وشكا . ووبخ وأنب ، وكان شديداً قاصفاً ، مزجراً . كالرعد في ليالي الويل ! ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله : « أيها الناس المجتمعةُ أبداً لهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي الصمّ الصلّاب الخ » . لتدرك أيةَ عاطفةٍ متوجّعةٍ نائرةٍ هي تلك التي تمدّ هذه الخطبةَ بنبض الحياة وجيَّسائها !

وإنه لمن المعيب أن نسوق الأمثلة على تدفّق العاطفة الحيّة التي تبثّ الدفء في مآثر الإمام . فهي في أعماله وفي خطبته وأقواله مقياسٌ من المقاييس الأسُس وما عليك إلّا أن تقرأ بعض آثاره في فصل « من روائع الإمام » من هذا الكتاب ، كي تقف على ألوانٍ من عاطفة ابن أبي طالب ، ذات القوّة الدافقة والعمق العميق !

• • •

الوحدة الوجودية

• وكان ما تباعد منها مضموماً في وحدةٍ طرفاها الأزل والأبد !

الأدب أصالةٌ في الفكر والحسّ والخيال والذوق ، تربط بين صاحبها وجملة الكائنات في وحدةٍ وجوديةٍ مطلقة . ثم تبتعد عن نفسها بحياةٍ تُحميها على أصولٍ من هذه الوحدة ، وبأسلوبٍ جماليٍّ هو تجسيمٌ حيٌّ للتفاعل بين الأديب والكون .

ولما كان العلم تجزئةً كان الفن توحيداً . ولما كان العلم ينظر إلى الأشياء من حيث هي كائناتٌ وجب فكُّها وتذليلُها ، كان الفن ينظر إلى الأشياء من حيث هي كائناتٌ مُجزأةٌ في خاطرها ، ممددةٌ موحدةٌ في أصولها وحقيقتها مما يؤول إلى فكرة الشمول والارتباط الكامل بين مختلف مظاهر الوجود !

وما كان الأدب إلا بهذا الشمول !

وإذا كان الفلاسفة قد فطنوا إلى وحدة الوجود في العصر المتأخرة ، فإن الأديب قد فطن لها منذ كان الإنسان وكانت في أعماقه بذورُ الفن وأحاسيس الأدب .

ذلك لأنّ دليل الفيلسوف عقله وقياسه وكلاهما محدود بالنسبة للمركّب
الإنساني الحيّ ؛ ودليل الأديب شعوره وإلهامه وهما اثباتيّ عاجلّ وامضّ
من جملة كيانه .

ثمّ إنّ نظرة الفيلسوف إلى الكون كوحدة متفاعلة متكاملة ، إنّ هي إلاّ
نظرة تطلّ سطحية إذا قيست بنظرة الأديب . فالفيلسوف يشاهد ويراقب
ويقيس ثمّ يسجّل ، وأداته في ذلك العقل وحده ، والعقل شيء من الإنسان
الحيّ بل قلّ هو جانب منه . والأديب يتفاعل مع الحياة والكون تفاعلاً
مباشراً مستمراً إذ يحسّ ويستلهم بعقله وشعوره وخياله ومزاجه وذوقه جميعاً
أي بجملة كيانه . وهو . إلى ذلك ، أسبق وأعمق . فالأديب أستاذ الفيلسوف :
أستاذه ودليله منذ كان . وأستاذه ودليله إلى الأبد !

وإذا كان هذا هو الأمر ، وهو كذلك ، فإنّ عليّ بن أبي طالب عظيم
من عظماء هذه الطائفة من حيث النظرة والأسلوب : طائفة الأدباء الخالدين
الذين اخترقوا حجب الحقائق ليدركوها كما هي . أولئك الذين يرون ما يرى
الناس جميعاً ولكنهم يدركون كنهه وحدّهم ، دون سائر الناس ! أولئك
الذين ينظرون إلى نجوم السماء ورمال الصحراء ومياه البحار وكساء الطبيعة
فإذا هي أشياء من نفوسهم . هذه النفوس التي تستشعر في الكون قوّة جماليّة
واحدة جامعة كانت منذ الأزل وتبقى إلى الأبد .

يقول ميخائيل نعيمة الذي يمثل نزوع الفنان إلى الاحساس العميق بوحدة
الوجود في أدبنا العربي المعاصر : « بل كيف يكون أديباً من لا يحسّ جذوره
في الأزل والأبد ، ولا يحسّ الصلة بين دقيقة هو فيها وبين كلّ ما مضى
وما سيأتي ؟ »

إنّ هذا الاحساس العميق بالجمال الأسمى الذي يلفّ الكائنات جميعاً ،
على تباينٍ مظاهرها ، بوشاحٍ واحد ، هو ما تراه في آثار عباقرة الأدب مهما
تنوّعت موضوعات هذه الآثار ، ومهما اختلفت الظروف . فإذا أنت سمعتَ
صوتَ الشاعر العظيم ينطق بلسان المسيح قائلاً : « تأملوا زنايق الحقل كيف
تنمو ، ولكنّ أقول لكم إنّهُ ولا سليمان في كلّ مجده كان يلبس كواحدةٍ
منها » :

سمعتَ صوتاً من أعظم ما سمعتَ الأكوان ، وأدركتَ أمتع نظرةٍ
تخترق أعماق الجمال . وتساءلتَ : أنتى للراب والصخر وسُحب السماء
أنّ تأتي بمثل هذه الروعة وهذا الجمال — جمال زنايق الحقل وهي تنمو — لو
لم تكن وحدةُ الوجود هذه . ولو لم يكن الجمالُ مدار وحدة الوجود ورابطة
أجزائه منذ البداية حتّى النهاية ؟ وهو ، إلى ذلك ، مدار الفكرة والشعور لدى
الفنان : الخالق الصغير !

ومن ذلك قوله الرائع ، وقد جاؤوه بزانية جعلتُ على نفسها سبيلاً بحكم
شرائعهم :

« من كان منكم بلا خطيئة فليبرجم هذه الزانية بحجر ! »

وإذا أنت سمعتَ قولَ الشاعر العظيم ينطق بلسان سليمان بن داود :

« جيلٌ يمضي وجيل يأتي والأرض قائمةٌ مدى الدهر . والشمس تشرق
والشمس تغرب ثم تسرع إلى موضعها الذي طلعتْ منه . تذهبُ الريحُ إلى
الجنوب وتدورُ إلى الشمال ، تدور وتطوفُ في مسيرها ثم إلى مداورها تعود
الريح . جميع الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن ثم إلى الموضع الذي
جرتْ منه الأنهار إلى هناك تعود لتجري أيضاً » .
وإذا سمعته أيضاً يقول :

« أنا ورثة الشارون وسوسة الأودية ، كالسوسة بين الشوك كذلك خلقتي بين النبات . كالتفاحة في أشجار الغابة كذلك حبيبي بين البنين ، قد اشتهيتُ فجلستُ في ظله وثمره حلواً في حلقي . قد ظهرت الزهور في الأرض ووافى أوانُ القصب وسُمِع صوتُ اليعامة في أرضنا .

« يا حمامتي التي في تخاريب الصخر وفي خفايا المعازل أُرِيتي بحبّك ، أسمعيني صوتك فإنّ صوتك لطيفٌ وحبّك جميل ، إلى أن ينسمَ النهارُ وتنهزم الظلال . عُدْ يا حبيبي وكنْ كالطّي أو كففر الأيلة على جبال بامر !

« جميلةٌ أنتِ يا خليلتي ! جميلةٌ أنتِ وعيناك كحمامتين من وراء نقابك ، وشعرُك كقطع معز يبدو من جبل جلعاد . شفتاك كسمطٍ من القرمز ونطقُك عذب ، خدّاك كفلقه رمّانة من وراء نقابك ، عنقك كبرج داود المنيّ للسلاح الذي علّقَ فيه ألفٌ مِجَنٍّ ، جميعُ تروس الجبابرة . إلى أن ينسمَ النهارُ وتنهزم الظلال انطلقِ إلى جبل المرّ وإلى تلّ اللبان . هلمّتي معي من لبنان أيتها العروس . معي من لبنان أنظري من رأس أمانة من رأس حرّمون من مرائب الأسود من جبال النمر . شفتاك تقطران شهداً أيتها العروس وتحت لسانك عسلٌ ولبنٌ وعرفُ ثيابك كعرف لبنان .

« عين جنات وبثر مياه حية وأنهارٌ من لبنان ، هبّي يا شمال وهلمّتي يا جنوب انسمي على جنّتي فتسكب أطيابها ! »

إذا أنتَ سمعتَ ذلك ، ووعبته وعباً صحيحاً ، أدركتَ أنّ سليمان ينهل شعره هذا من المنهل ذاته الذي ارتوى منه المسيح وإن اختلف الموضوع .

ومن ذلك قول فيكتور هيفو ، أحد عظماء الفنانين الذين نبغوا بعد الثورة الفرنسية ، وهو « حوار بين الكواكب يرينا الشاعرُ به الانسانَ وقد ضاع

وكاد يخنفي لضآلته على سطح الأرض ، تم يرينا زُحَل وهو يخاطب الأرض
الفخورة بما لها من شكل وجسامة ! :

« ما هذا الصوت التافه الضعيف الذي يهمس ؟

أيتها الأرض ، ما الغاية من دورائك ، في أفقك الضيق المحدود ؟

وهل أنتِ سوى حبةٍ من الرمل مصحوبة بذرةٍ من رماد ؟

أما أنا ففي السماء الزرقاء الشاسعة أرسم إطاراً هائلاً ؛

فترى المسافة المكانية ، وهي فَرْعةٌ مرعوبة ، جمالي مشوّهاً ؛

وهالتي ، التي تُحيل شحوبةَ الليالي إلى حمرةٍ قانية

ككُراتٍ من الذهب تعلو وتهبط متقاطعةً في يد الخاوي ،

تبعد ، وتجمع ، وتمسك سبعةً من الأقمار الضخمة الهائلة !

وها هي الشمس تجيب :

سكوتاً ، هناك في زاويةٍ من السماوات ، أيتها الكواكب ، أنتم رعاياي .

هدوءاً ! أنا الراعي وأنتم الرعية .

إنكما كعربتين تسيران جنباً إلى جنب للدخول من الباب ،

في أصغر بركان عندي ، المَرِيخ مع الأرض

يدخلان دون أن يلمسا جوانبَ المدخل

وها هي ذي نجومُ الدبِّ الأصغر تضيء مثل :

سبع أعينٍ حيةٍ لها بدل الحَبَّاتِ شمس

وها هو ذا طريق المجرة يصوّر :

غابةً ناضرةً جميلةً مليئةً بنجوم السماء !

أيتها الكواكب السفلى ، إذ من مكانكم في درجة من البعد
حتى أن نجومى المضبئة^١ يبهة بمجاميع الجزائر المتناثرة في الماء ،

وشموسى العديدة ليست بالنسبة لنظر كم الضعيف القاصر ،

في زاوية بعيدة من السماء شبيهة بصحراء حزينة بتلاشى الصوت فيها ،
سوى قليل من الرماد الأحمر قد انتثر في جوف الليل .

وها هي ذى نجوم مجرة أخرى تصوّر عوالم لا تقلّ عن تلك العوالم ،
متناثرة في الأثير ، ذلك المحيط الذي لا رمال ولا حصباء في جوانبه ، تذهب
أمواجه ولكن لا تعود أبداً إلى شواطئه .

وأخبراً ها هو الإله يتحدث :

ليس لديّ إلا أن أنفخ ، فيصبح كلّ شيء ظلاماً^(١) ،

والبلّك ما يقوله عليّ بن أبي طالب في صفة الطاووس :

« ومن أعجبها خلقاً الطووس^٢ الذي أقامه في أحكم تعديل ، وتضدّد
ألوانه في أحسن تنضيد . يحتاج أشراح قصبه^٣ ، وذنب أطال مسحبه^٤ ، إذا
درج الى الأنثى نشره^٥ من طبه^٦ ، وسما به مظللاً على رأسه ، تخال قصبه^٧
مداري من فضة . وما أنبت عليه من عجيب داراته وشموسه خالص العقبان
وفلند الزبرجد^٨ ، فإن شبهته بما أنبت الأرض قلت : جنى جنى من
زهرة كل ربيع^٩ ، وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشى الحلل أو موشى
عصب اليمن^{١٠} ، وإن شاكلته بالخلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت
باللّجين المكمل : بمشي مشي المريح المختال ، ويتصفح ذنبه^{١١} وجناحه
فيقهقه^{١٢} ضاحكاً لجمال سرباله وأصابعه وشاحه .

(١) نظرية الانواع الادبية تأليف فنان الفرنسي وترجمة الدكتور حسن عون ص ٢٨٦-٢٨٨ .

فلذا رمى ببصره إلى قوائمه زَقاً مُعولاً يكاد يُبينُ عن استغاثته ، ويشهد بصادق توجّعه ، لأنّ قوائمه حُمشٌ كقوائم الخلاسية . وله في موضع العُرف قُنزُعةٌ خضراءُ موشاةٌ ، ومخرج عُقه كالابريق ، ومغرُزُها إلى حيث بطنه كصِبْغِ الوسمة اليمانية ، أو كحريرة ملبّسة مرأة ذات صِقال . ومع فتق سمعه خَطٌّ كسندَقِ القلم في لون الأقحوان أبيضٌ بَقَقٌ ، فهو بياضه في سواد ما هنالك بألتق . وَقَلَّ صِبْغٌ إلّا وقد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صِقاله وبصيص ديباجه وروثقه فهو كالأزاهير المبتوثة لم تُربّها أقطار ربيعٍ ولا شمس قِظٍ ، وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسْقُطُ تَتَرى ، وينبتُ تِباعاً ، فينحتُّ من قصبه انحناتُ أوراق الأغصان ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه : لا يخالف سالف ألوانه ، ولا يقع لونٌ في غير مكانه . إذا تصفّحت شجرةً من شعرات قصبه أرنك حمرة وردية ، وتارة خضرة زبرجدية ، وأحياناً صُفرة عسجدية ، فكيف تصل إلى صفة هذا عمائق الفطن ، أو تبلغه قرائح العقول ، أو تستنظم وصفه أقوالُ الواصفين ! »

ثم إليك شيئاً من قوله في خلق السماء والارض .

« فَطَرَ الخلاق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدانَ أرضه . ثم أنشأ سبحانه فتقّ الأجواء ، وشقّ الأرجاء ، وسكّلك الهواء ، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تبارهُ ، متراكماً زخارُهُ ، حمّله على متن الرياح العاصفة ، والزعرع القاصفة .. ثم أنشأ سبحانه ريحاً أعتق مهبّتها ، وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرّها بتصفيق الماء الزخار - أي تحريكه وتقليبه - وإثارة موج البحار ، فَمَخَصَّتْهُ مَخَضُ السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء تردّ أوله إلى آخره ، وساجبه إلى ماثره ... »

وأوصيك خيراً بهذه الآيات الروائع التي تتحدث بها عبقرية الامام إلى العقل والحس فتصور كيف يستوي الجليل واللطيف من الكائنات، والشمس والقمر، والماء والحجر، والكبير والصغير، والمبين والصعب، في معنى الوجود، وتشترك جميعاً في صفة الكون فإذا هي متساوقة متعاونة في النشيد الأعظم: نشيد الوجود الواحد الذي لا يجوز فيه تعظيم الدوحة العاتية على حساب النبتة النامية، ولا يصح فيه تمجيد البحر الواسع واحتقار الساقية التي تضيغ مياهها بين العشب والحصى. يقول عليّ:

«لو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، وما الجليل واللطيف: والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف، في خلقه إلا سواء! وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال الخ.»

ثم استمع إليه يقول: «لا تنالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يُعمر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تُجدد له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزقه. ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر، ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد، ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصورة. وقد مضت أصول نحن فروعها!»

وفي خاطري هذه المشابهة بين مقطع من معلقة امرئ القيس ومقاطع كثيرة من أدب ابن أبي طالب، وهي تصب جميعاً في معنى الوحدة الوجودية الكاملة ثم تزيد عن ذلك بانطلاق فذة إلى قهر الظالم والمعتدي،

وللى نصره الضعيف في الثبت والأرض والبهيمة والأرض الواطئة حتى يستوي
الوجود قوياً بهياً . يقول امرؤ القيس أولاً ما خلاصته : لقد قدمتُ لذلك
البرق أرقب من أين يجميء بالمطر ، ويا لروعة ما رأيت ! لقد أقبل المطر من
جهات أربع سبولا سبولا ! رأيتُه من بعيد فكان يمينه في تقديرى على جبل
« قَطَن » ويساره على جبلي « الستار » و « يَدْبُل » . وراح الماء ينبجس
شديداً هنا وهناك فقلب سبوله الأشجار قلباً عتياً ، ومرّ على جبل « القنان »
برشاشه فأكره الوعول على النزول عنه . بعد ذلك يقول الشاعر :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أطماً إلا مَشِيداً يحنّ دل
كان ثبيراً في عرائن وبليسه	كبير أناس في بجاد مَزْمَل
كان ذرى رأس المجير غدوة	من السيل والغناء فلكة مغزل
والقى بصحراء الغيط بَعَاعَه	نزول اليماني ذي العياب المحمل
كان مكّاكي الجواء غُدِيّة	نشاوى سلاف من رحيق مفقل
كان السباع فيه غرقى عشيّة	بأرجائه القصوى ، أنابيش عُصْل

فأنت ترى إلى امرئ القيس كيف يلحظ أن المطر قد أسقط نخل تيماء
كله ، وكيف أنه جرف أبنيتها فلم يبق منها إلا المشيد بالحنادل والصخور .
أما جبل « ثبير » المعترّ بشموخه على ما حوله من الأرض الواطئة ، فقد غطاه
المطر إلا رأسه فبدا كشبح قوم ملتف بكساء مغطّط . وتتابع الأمطار طوفانها
حول الجبال ثم تلقى أثقالتها جميعاً في الصحارى التي ظلت زمناً قاحلة لا
نبت فيها ولا رواء ، فإذا بها تنبت عشباً وزهراً ملوناً يشبه الثياب الملونة
الحسنة التي ينشرها التاجر اليماني أمام أعين الناس . وقد أحسن المطر إلى هذه الصحارى
المجدبة فإذا هي رياض زاهية تغني بها الطير طرية سكرى ! أما الوحوش
الضارية التي كانت تستبيح لنفسها افتراس الضعيف من الحيوان والطير ، فقد

أذلتها المطرُ وأغرقها فطفئت على الماء كأنها جذور البصل البرّي .

وهكذا يبدو المطر في خاطر الشاعر الجاهلي ، الذي تابع رحلته حتى النهاية ، وكأنه يمثل قوةَ الوجود المدبرة ، فهو قويٌّ عادلٌ كريم ينصر الضعفاء المشكين بالأرض الواطئة وصغار الطير فيملاً الوادي بالنبت والزهر واللون ويدخلُ الفرحةَ على قلوب العصافير فتطرب وتغني ؛ ويداعب الأقوياء المشكين بالجبال فيضايقها من كلِّ جانبٍ ويضعفُ من شأنها ؛ ويفتك بذوي البطش المشكين بالسباع الضارية فيقهرها ويغرقها ويجعلها نافهة !

وهذا عليٌّ يحسّ أمام الغيث ما أحسّه امرؤ القيس من تمثيله القوةَ العادلةَ الكريمة ، فيقول في خاتمة حديثٍ طويل :

« فلما ألقيت السحاب بَعاعَ ما استقلتُ به ^(١) من العبء المحمول عليها ، أخرجَ به من هوامد الأرض النباتَ ^(٢) ومن زُعرُ الجبال الأعشابَ ^(٣) فهي تَبْهَجُ بزينة رياضها وتردهي بما ألبسته من رِيطٍ ^(٤) أزاهيرها ^(٥) وحليّة ما سُمطتُ به ^(٥) من ناضر أنوارها ، وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام .

ثم إنَّ عليّاً يوجز الفكرةَ البعيدة في ما شاهده امرؤ القيس من عمل المطر في الجبال والسباع بهذه الكلمة : « مَنْ تَعَظَّم على الزمان أهاته ! »

(١) البعاع : ثقل السحاب من الماء . وألقى السحاب ببعاءه . أمطر كل ما فيه .

(٢) الهوامد من الأرض : ما لم يكن بها نبات .

(٣) زعر ، جمع أزعر ، وهو : الموضع القليل النبات .

(٤) ريط ، جمع ربطة - بالفتح - وهي كل ثوب رقيق لين .

(٥) سمل الشيء : علقت عليه السوط وهي : الخيوط تنظم في القلادة .

وإنّ هذه الروائع من سليمان بن داود والمسيح وامرئ القيس وعليّ ابن أبي طالب وفيكتور هيجو ، لتتبع من معين واحد بالرغم من اختلاف موضوعاتها وتباين أغراضها وتباعد ظروفها . ففيها جميعاً هذه الأصالة في الفكر والحس والخيال والذوق ، التي تربط بين صاحبها وجملة الكائنات في وحدة وجودية مطلقة !

.

وأراك حيث رحت في أدب عليّ بن أبي طالب ، شاعراً بهذه الأصالة الفنية العميقة التي تحده أبدأ إلى اكتناه الروابط الخفية الكامنة وراء مظاهر الحياة والموت ، ووراء الأشكال التي تختلف على الحقيقة الواحدة الثابتة التي لا تختلف . وما نزعته التوحيدية الجامعة إلا نزع الفنان العظيم يريد أن يركز الوجود ، في عقله وقلبه على السواء ، على أصول لا يجوز فيها قديم ولا جديد !

وقد تبين معنا أنّ نظريات ابن أبي طالب الاجتماعية والأخلاقية ، تتبع بصورة مباشرة أو غير مباشرة من هذه النظرة الواحدة الشاملة إلى الوجود . فما أقرب الموت من الحياة في سنة الوجود . وما أقرب طرفي الخير والشر . وما أكثر ما يجتمع الحزن والسرور في قلب واحد ، والكسل والنشاط في جسد واحد . « فربّ بعيد هو أقرب من قريب - في أدب ابن أبي طالب - وربّ رجاؤي إلى الحرمان ، ونجاة تؤول إلى الحرمان » . وليس عجباً أن يجوز في الناس قول ابن أبي طالب : « من حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن تكبر على الناس ذلّ » ، فالدائرة الوجودية الواحدة تقضي على الناس والأشياء والكائنات

جميعاً بالخضوع لقاعدتها التعادلية الواحدة التي أدركها الإمام بحدسه وعقله وحسه على السواء ، إدراكاً عجبياً لشدة ما فيه من الوضوح ثم لكثرة ما يمدّ صاحبه بالقوة على الكشف ، فإذا به يعبر عن هذا الإدراك بكلمات تولّف قواعد رياضية تتناول المظاهر وتنفذ منها إلى ما وراءها من أصول وجودية عميقة ثابتة .

وهكذا يستوي ابنُ أبي طالبٍ وقممُ الوجود على صعيدٍ واحدٍ من النظرة إلى الحياة الواحدة ، والإحساس العميق بالكون الواحد ، فإذا بأدبِهِ صرخاتٌ متلاحقة تنطلق من قلبٍ عبقرٍ يريد أن ينفذ إلى الأشياء حتى يرى أغوارها فيطمئن إلى هذا الإدراك ، وحتى يعقل ما تبينَ منها ثابتاً على قاعدة ، وما اختلف منها نابعاً من أصل ، وما تباعدَ منها مضموماً في وحدةٍ طرفاها الأزلُ والأبد !

الأسلوب والعبرة الخطابية

• بيانٌ لو نطقَ بالتفريعِ لا تقصّرَ على لسان العاصفة
انقضاضاً ! ولو هددَ الفسادَ والمفسدينَ لتفجّرَ
براكينٌ لها أضواءٌ وأصوات ! ولو دعا إلى تأملٍ لرافقَ
فيك منشأُ الحسِّ وأصلُ التفكيرِ فساقك إلى ما يريدُه
سوقاً ووصلك بالكون وصلًا !

• ويندمجُ الشكلُ بالمعنى اندماجَ الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء
بالهواء ، فما أنتَ إزائه إلا ما يكونُ المرءُ قبالةَ السيلِ إذْ
ينحدرُ والبحرُ إذْ يتموجُ والريحُ إذْ تطوفُ !

• أمّا إذا تحدّثَ إليك عن بهاء الوجود وجمال الخلق ، فإنّما
يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء !

• ومن اللفظ ما له وميضُ البرق ، وابتسامةُ السماء في ليالي
الشتاء !

هذا من حيث المادة . أمّا من حيث الأسلوب ، فعليّ بن أبي طالب
ساحر الأداء . والأدب لا يكون إلا بأسلوب ، فالمنبى ملازمٌ فيه للمعنى ،

والصورة لا تقلّ في شيء عن المادّة . وأيّ فنّ كانت شروط الإخراج فيه أقلّ شأنًا من شروط المادّة !

وإنّ فسّط عليّ بن أبي طالب من الذوق الفنّي - أو الذوق الجمالي - لسميًا يندر وجوده . وذوقه هذا كان المقياس الطبيعيّ الضابط للطبع الأدبيّ عنده . أمّا طبعه هذا فهو طبعٌ ذوي الموهبة والأصالة الذين يرون فيشعرون ويُدركون فتنتطلق ألسنتهم بما تحيِّش به قلوبهم وتتكشف عنه مداركهم انطلاقاً عفويّاً . لذلك تميّز عليّ بالصدق كما تميّزت به حياته . وما الصدق إلاّ ميزة الفنّ الأولى ومقياس الأسلوب الذي لا يخادع .

وإنّ شروط البلاغة ، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال ، لم تجتمع لأديبٍ عربيّ كما اجتمعت لعليّ بن أبي طالب . فإنّشاؤه أعلى مثلاً لهذه البلاغة ، بعد القرآن . فهو موجزٌ على وضوح ، قويٌّ جيّاش ، تامّ الانسجام لما بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من اتّلاف ، حلّو الرنة في الأذن موسيقيّ الوقع . وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدّة . وبشدّة ويعنف في غيرها من المواقف ، ولا سيّما ساعة يكون القول في المنافقين والمراوغين وطلّاب الدنيا على حساب الفقراء والمسنّعين وأصحاب الحقوق المهدورة . فأسلوب عليّ صريحٌ كقلبه وذهنه . صادق كطويّته ، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة !

وقد بلغ أسلوبُ عليّ من الصدق حدّاً ترَفّع به حتى السجّع عن الصنعة والتكتّف . فإذا هو على كثرة ما فيه من الحمل المتقاطعة الموزونة المسجّعة ، أبعد ما يكون عن الصنعة وروحها ، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر .

فانظر إلى هذا الكلام المسجّع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع : • يعلم

عجيجَ الوحوش في الفلوات ، ومعاصي العباد في الخلوات ، واختلاف النينان في البحار العامرات . وتلاطمُ الماء بالرياح العاصفات ! « أو إلى هذا القول من إحدى خطبه : « وكذلك السماء والهواء . والرياح والماء . فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر . واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرق هذه اللغات . والألسن المختلفة الخ » . وأوصيك خيراً بهذا السجع البحاري مع الطبع : « ثم زينها بزينة الكواكب . وضياء الثواقب ^(١) وأجرى فيها سراجاً مستطيراً ^(٢) وقمرأ منيراً ، في فلك دائر ، وسقف سائر الخ » . فانك لو حاولت إبدال لفظ مسجوع في هذه البدائع جميعاً ، بآخر غير مسجوع ، لعرفت كيف يخبو إشراقها ، ويبهت جمالها ، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقته وهما الدليل والمقياس . فالسجع في هذه الأقوال العلوية ضرورة فنية يقتضيها الطبع الذي يمتزج بالصنعة امتزاجاً حتى لكأنهما من معدن واحد يبعث انثر شعراً له أوزان وأنغام ترفيق المعنى بصور لفظية لا أبهى منها ولا أشهى !

ومن سجع الإمام آيات نردّ النعم على النعم رداً جميلاً ، وتذيب الوقع في الوقع على قرارات لا أوزن منها على السمع ولا أحب ترجيعاً . ومثال ذلك ما ذكرناه من سجعاته منذ حين ، ثم هذه الكلمات الشبهات على الأذن والذوق جميعاً : « أنا يوم جديد ، وأنا عليك شهيد ، فاعمل في خير ، وقُلْ خيراً » .

وإذا قلنا إن أسلوب علي تنوّر فيه صراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة

(١) الثواقب : المنيرة المشرقة .

(٢) سراجاً مستطيراً : منتشر الضياء ، ويريد به الشمس .

الدوقُ الفني ، فإنما نشير إلى القارئ بالرجوع إلى نهج البلاغة ليرى كيف تنفجر كلماتُ عليٍّ من ينبع بعيدة القرار في مادتها ، وبأية حُلّة فنية رائعة الجمال تمورُ وتجري . وإليك هذه التعابير الحسان في قوله : « المرء محبوبٌ تحت لسانه » وفي قوله : « الحلم عشيّة » أو في قوله : « مَنْ لَان عوده كثفت أغصانه » أو في قوله : « كلّ وعاء يضيّق بما جعل فيه إلّا وعاء العلم فإنّه يتسع » أو في قوله أيضاً : « لو أحبّتي جبلٌ لنهاقت » . أو في هذه الأقوال الرائعة : « العلم يحرسك وأنت تحرس المال . رَبّ مفتونٌ بحسن القول فيه . إذا أقبلت الدنيا على أحدٍ أعارته محاسنٌ غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسنٌ نفسه . ليكن أمر الناس عندك في الحق سواء . افعلوا الخير ولا تحمقوا منه شيئاً فإنّ صغيره كبيرٌ وقليله كثير . هلك خزان المال وهم أحياء . ما مُنِع غنيٌ إلّا بما جاع به فقير ! » .

ثمّ استمع إلى هذا التعبير البالغ قمة الجمال الفني وقد أراد به أن يصف تمكّنه من التصرف بمدينة الكوفة كيف شاء . قال : « ما هي إلّا الكوفة أقبضُها وأبسطُها ... »

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير ، هذه الأصالة التي تلازم الأديب الحقّ بصورة مطلقة ولا تفوته إلّا إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها .

•
ويبلغ أسلوب عليٍّ قمة الجمال في المواقف الخطابية ، أي في المواقف التي ثور بها عاطفته الجياشة ، ويتقدّ خياله فتتلج فيه صورٌ حارة من أحداث الحياة التي تمرّس بها . فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفق على لسانه تدفق البحار . ويتميّز أسلوبه ، في مثل هذه المواقف ، بالثكرار بغية التقرير والتأثير ، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين

وقد تتعاقب فيه ضروب التعبير من إخبارٍ إلى إستفهامٍ إلى تعجّبٍ إلى استنكارٍ .
وتكون مواطن الوقف فيه قوّةً شافيةً للنفس . وفي ذلك ما فيه من معنى
البلاغة وروح الفن . وإليك مثلاً لهذا خطبة الجهاد المشهورة ، وقد خطب عليّ
بها الناسَ لما أغار سفيان بن عوف الأسدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل
عامله عليها :

« هذا أخو غامدٍ قد بلغتْ خيله الأنبار وقتل حسان بن حسان البكري
وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين .

وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى
المعاهدة ، فيترعُ حجلتها ، وقُلْبها ، ورِعاثها ، ثم انصرفوا وافرينَ ما
نال رجالاً منهم كلمٌ ، ولا أريق لهم دم ، فلو أنّ امرأة مسلماً مات من
بعد هذا أسفاً ، ما كان به مكلوماً ، بل كان به عندي جديراً .

فيا عجباً ، والله يمت القلب ويحبب الهمّ اجتماعُ هؤلاء على باطلهم
وتفرقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم
ولا تغيرون ، وتُغزّون ولا تُغزّون ، ويُعصى الله وترضون . »

فانظر إلى مقدرة الإمام الفنّية في هذه الكلمات الموجزة . فإنه تدرّج في
إثارة شعور سامعيه حتّى وصل بهم إلى ما يصبو إليه . وسلك إلى ذلك طريقاً توفّر
فيه بلاغةُ الأداء وقوّةُ التأثير . فإنه أخبر قومه بغزو سفيان بن عوف الأنبار
وفي ذلك ما فيه من عارٍ يلحق بهم . ثم أخبرهم بأنّ هذا المعتدي إنّما قتل
عامل أمير المؤمنين في جملة من قتل ، وبأنّ هذا المعتدي لم يكف بذلك
فأغمد سيوفه في نحور كثيرة من رجالهم وأهليهم .

وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجه الإمام إلى مكان الحمية من السامعين ، إلى مثار العزيمة والنخوة من نفس كلّ عربيّ ، وهو شرف المرأة . وعلى يعلم أنّ من العرب من لا يبذل نفسه إلاّ للحفاظ على سمعة امرأة وعلى شرف فتاة ؛ فإذا هو يعتف هؤلاء القوم على القعود دون نصرة المرأة التي استباح الغزاة حماها ثم انصرفوا آمنين ، ما نالت رجلاً منهم طعنة ولا أريق لهم دم !

ثم إنّه أبدى ما في نفسه من دهشٍ وحيرةٍ من أمرٍ غريب : فإنّ أعداءه يتمسكون بالباطل فيناصرونه ، ويدنيون بالشرّ فيغزون الأنبار في سبيله ، فيما يقعد أنصاره حتى عن مناصرة الحقّ فيخذلونه ويفشلون عنه !

ومن الطبيعيّ أن يغضب الإمام في مثل هذا الموقف ، فإذا بعبارته تحمل كلّ ما في نفسه من الغضب ، فتأتي حارةً شديدةً مسجّعةً مقطّعةً ناقمة : فقبّحاً لكم حين صرّتم غرضاً يرْمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزّون ولا تُغزّون ويُعصى الله وترضون !

وقد ثور عاطفته وتقطع فإذا بعضها يزحم بعضاً على مثل هذه الكلمات المتقطّعة المتلاحقة : « ما ضعُفْتُ ، ولا جِئْتُ ، ولا خُئْتُ ، ولا وهَنْتُ ! » وقد تصطلي هذه العاطفة بأنمٍ نائريٍّ يأتيه من قومٍ أرادَ لهم الخير وما أرادوه لأنفسهم لغفلةٍ في مداركهم ووَهْنٍ في عزائمهم ، فيخطبهم بهذا القول النائر الغاضب ، قائلاً : « مالي أراكم أبقاظاً نَوّما ، وشهوداً غُيَّبا ، وسامعةً صماء ، وناطقةً بكما الخ ... »

والخطباء في العرب كثيرون ؛ والخطابة من فنونهم الأدبية التي عرفوها

في الجاهلية والاسلام ولا سيما في عصر النبي والخلفاء الراشدين لما كان لهم بها من حاجة . أما خطيب العهد النبوي الأكبر فالنبي لا خلاف في ذلك . أما في العهد الراشدي ، وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبة ، فإنّ أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه عليّ بن أبي طالب في هذا النحو . فالنطق السهل لدى عليّ كان من عناصر شخصيته وكذلك البيان القوي بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعا . ثم إنّ الله يستر له العدة الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقومات أخرى على ما مرّ بنا . فقد ميّزه الله بالفطرة السليمة ، والذوق الرفيع ، والبلاغة الآسرة ، ثم بذخيرة من العلم انفرّد بها عن أقرانه . وبمحجة قائمة . وقوة إقناع دامغة ، وعبقريّة في الارتجال نادرة . أضف إلى ذلك صدقه الذي لا حدود له وهو ضرورة في كلّ خطبة ناجحة ، وتجاربته الكثيرة المرّة التي كشفت لعقله الجبّار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحركاته . ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها وذلك الألم العميق المزوج بالحنان العميق . وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية .

وإنّه لمن الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ من اجتمعت لديه كلّ هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذاً ، غير عليّ بن أبي طالب ونفّر من الخلق قليل ، وما عليك إلاّ استعراض هذه الشروط ، ثم استعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغربي ، لكي تدرك أنّ قولنا هذا صحيح لا غلو فيه .

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجأش شديد الثقة بنفسه وبعْدُ القول ، ثم إنه قويّ الفراسة سريع الإدراك يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب ، زاحراً جنائهُ بعواطف الحرّية والانسانية والفضيلة ، حتّى إذا انطلق لسانه الساحر بما يبيش به قلبه أدرك القوم بما يحرك فيهم الفضائل

الراقدة والعواطف الحامدة .

أما إنشاؤه الخطابي فلا يجوز وصفه إلا بأنه أساسٌ في البلاغة العربية .
يقول أبو الهلال العسكري صاحب «الصناعتين» : ليس الشأن في إيراد المعاني - وحدها - وإنما هو في جودة اللفظ ، أيضاً ، وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والحلو من أود النظم والتأليف .

من الألفاظ ما هو فخمٌ كأنه يجرّ ذبول الأرجوان أنفةً ونيتها . ومنها ما هو ذو قعقة كالجنود الراحنة في الصفيح . ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين . ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يُلقي على بعض العواطف لستر من محدّتها ويخفّف من شدّتها . ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء ! من الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد . ومنه ما يجري كالنبح الصافي وهو المعدّ للرضى والغفران . ومنه ما يضيء كالشهاب وهو كلام التعظيم . كذلك من الكلام ما ليس له طابع خاصّ فيؤتي به لتقوية الجملة ودعم المعنى فهو يلائم كلّ حال .

كل ذلك ينطبق على خطب عليّ في مفرداتها وتعابيرها . هذا بالإضافة إلى أن الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين ؛ فكيف بها إذا كانت . كخطب ابن أبي طالب ، تجمع روعة هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوّته وجلاله !

وإليك ما جاء في فصل سابق لنا من هذا الكتاب تحت عنوان «الضمير العملاق» بصدد بيان الإمام عليّ ، لا سيّما ما كان منه في خطبه :

نهجُ البلاغة آخذٌ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتصل بالنوق الفتي

الرفيع ما بقي الانسان وما بقي له خيالٌ وعاطفةٌ وفكرٌ ؛ مترابطٌ بآياته متساقٍ ؛ متفجّرٌ بالحسّ المشبوب والإدراك البعيد ، متدفّقٌ بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع ؛ متآلفٌ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول ، أو الشكل بالمعنى ، اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء : فما أنت ، إزاءه . إلاّ ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموّج والرياح إذ تطوف . أو قبالة الحدّث الطبيعي الذي لا بدّ له أن يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة لا تفرّق بين عناصرها إلاّ لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كَوْنٍ !

بيانٌ لو نطق بالتقريع لانقضَ على لسان العاصفة انقراضاً ! ولو هدّد للفساد والمفسدين لتفجّر براكينٌ لها أضواءٌ وأصواتٌ ! ولو انبسط في منطقٍ لخطابِ العقول والمشاعر فأقلّ كلّ بابٍ على كلّ حجةٍ غير ما ينبسط فيه ! ولو دعا إلى تأملٍ لرافقٍ فيك منشأ الحسّ وأصل التفكير ، فساقت إلى ما يريد سَوْقاً ، ووصلت بالكون وصلّاً . ووحد فيك القوى للاكتشاف توحيداً . وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوة وصدق الوفاء الانساني وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي ! أمّا إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجماليات الخلق وكمالات الكون ، فإنما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء !

بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة ، وتتريلٌ من التتريل . بيانٌ اتصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون ، حتى قال أحدهم في صاحبه ان كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق !

وَحُطِّبَ عَلِيٌّ جَمِيعاً تَضَعُ بَدَلَاتِلَ الشَّخْصِيَّةِ حَتَّى لَكَانَ مَعَانِيهَا وَنَعَايِرُهَا هِيَ خَوَالِجُ نَفْسِهِ بِالذَّاتِ ، وَأَحْدَاثُ زَمَانِهِ الَّتِي تَشْتَعِلُ فِي قَلْبِهِ كَمَا تَشْتَعِلُ النَّارُ فِي مَوْقِدِهَا تَحْتَ نَفْخِ الشَّمَالِ . فَإِذَا هُوَ يَرْتَجِلُ الْخُطْبَةَ حَسّاً دَافِقاً وَشَعُوراً زَاخِراً وَإِخْرَاجاً بِالْعَا غَايَةَ الْجَمَالَ .

وَكَذَلِكَ كَانَتْ كَلِمَاتُ عَلِيٍّ بَنِ أَبِي طَالِبِ الْمُرْتَجِلَةِ ، فَهِيَ أَقْوَى مَا يُمْكِنُ لِلْكَلِمَةِ الْمُرْتَجِلَةِ أَنْ تَكُونَ مِنْ حَيْثُ الصِّدْقِ ، وَعُمُقِ الْفِكْرَةِ ، وَفَنَاءَةِ التَّعْبِيرِ ، حَتَّى أَنَهَا مَا نَطَقَتْ بِهَا شَفَتَاهُ إِلَّا ذَهَبَتْ مِثْلًا سَائِراً .

فَمِنْ رَوَائِعِ الْمُرْتَجِلَةِ قَوْلُهُ لِرَجُلٍ أَفْرَطَ فِي مَدْحِهِ بِلِسَانِهِ وَأَفْرَطَ فِي اتِّهَامِهِ بِنَفْسِهِ : « أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ » .

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا اعْتَزَمَ أَنْ يَقُومَ وَحْدَهُ لِمَهْمَةٍ جَلِيلَةٍ تَرَدَّدَ فِيهَا أَنْصَارُهُ وَتَحَاذَلُوا ، جَاءَهُ هَؤُلَاءُ وَقَالُوا لَهُ . وَهُمْ يَشِيرُونَ إِلَى أَعْدَائِهِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ نَكْفِيكَهُمْ . فَقَالَ مِنْ فُورِهِ : « مَا تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ ؟ إِنْ كَانَتْ الرِّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَايَاهَا ، فَإِنِّي الْيَوْمَ لِأَشْكُو حَيْفَ رِعَايَتِي . كَأَنِّي الْمَقُودُ وَهُمْ الْقَادَةُ » .

وَلَمَّا قَتَلَ أَصْحَابُ مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَبَلَغَهُ خَبَرُ مَقْتَلِهِ قَالَ : « إِنْ حَزَنَّا عَلَيْهِ قَدَرُ سُرُورِهِمْ بِهِ ، أَلَا إِنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيباً » .

وَسُئِلَ : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ : الْعَدْلُ أَمْ الْجُودُ ؟ فَقَالَ : « الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا ، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا ، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ ، وَالْجُودُ عَارِضٌ نَخَاصٌ » ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا » .

وَقَالَ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِ ، مُرْتَجِلاً :

« الْمُؤْمِنُ بَشْرُهُ فِي وَجْهِهِ ، وَحَزْنُهُ فِي قَلْبِهِ ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْرًا ، وَأَذَلُّ

شيء نفساً . بكره الرفعة ، وبِشْنًا السمعة : طويلٌ غمّة . بعيدٌ همّة ، كثيرٌ صمته . مشغولٌ وقته ، شكورٌ صبور ، سهلٌ الخليفة ، لينٌ العريكة !

وسأله جاهلٌ متعنّتٌ عن معضلة ، فأجابه على الفور : « أسألُ تفقّهًا ولا تسألُ تعنّتًا فإنّ الجاهلَ المتعلمَ شبيهٌ بالعالم ، وإنّ العالمَ المتعسّفَ شبيهٌ بالجاهلِ المتعنّتِ ! »

والخلاصة أنّ عليّ بن أبي طالب أديبٌ عظيمٌ نشأ على التمرّس بالحياة وعلى المراتة بأساليب البلاغة فإذا هو مالكٌ ما يقتضيه الفنّ من أصالةٍ في شخصية الأديب . ومن ثقافة تنمو بها الشخصية وترتّكز الأصالة .

أمّا اللغة ، لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها مرشلوس في المجلد الأول من كتابه « رحلة إلى الشرق » هذا القول الذكيّ : « اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقماً بين سائر لغات الأرض . بتراكيب أفعالها تنبع طيران الفكر وتُصوِّره بدقّة . وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلّد صراخَ الحيوانات ورقرقة المياه الهاربة وعجيج الرياح وقصْفَ الرعد » : أمّا هذه اللغة : بما ذكر مرشلوس من صفاتها وبما لم يذكر ، فإنّك واجدٌ أصولها وفروعها ، وجمالَ ألوانها وسحرَ بيانها ، في أدب الامام عليّ !

وكان أدباً في خدمة الإنسان والحضارة !

سِرِّ رَوَافِعِ الْإِسْلَامِ

طائفةٌ من أقواله

في رسائل الإمام عليؑ وفي عهوده ووصاياه ، وفي خطبه وسائر أقواله ،
روائعٌ خالدةٌ تناوَلتها من الإنسان جوهرأً وغايةً ، ومن الكون معنىً وشكلاً .
ومن أحوال زمانه وأحداث عصره . ودفعها عقله الحكيم إلى خياله وقلبه
حقائقَ علميةٍ خالصة . فإذا بها لانمَتْ على خياله الحصب وعاطفته الحارة إلا
لتتحرك وتنمو وتنبعث وفيها امتداداتٌ ونبْضٌ وخفوقٌ ، فما هي إلا حياةٌ
من الحياة !

وإنها لثراثٌ عظيمٌ للإنسانية ، بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخاصة
والعامّة ، لا تسمو عليه دساتيرُ الأنبياء والمفكرين والحكماء في مختلف
العصور والأمكنة .

ونلفت أنظارَ القراء ، بصورةٍ خاصّة ، إلى ما يبدو في هذه الآثار العلوية
من دعوةٍ إلى السلم والمواخاة والتصافي في سبيل الانطلاق إلى الميادين الإنسانية
الرحبة ، وفي سبيل إكرام الحياة واحترام الأحياء . وإنه ليجدر بمثيري
الحروب ، اليوم ، ومُسبّي ويلات الشعوب والأفراد ، أن يسمعوا كلمات
جَبّار الفكر العربي ، وعِملاق الضمير الانساني ، عليّ بن أبي طالب، ويعوها ،
ويطأطئوا رؤوسهم لصاحبها العظيم !

وقد أثبتنا في هذا الفصل روائع اتخذناها شواهد هنا وهناك في هذا الكتاب .
وروائع أخرى كثيرة لم تذكر إلا بهذا الفصل من المختارات . وأهملتنا
إثبات روائع غير قليلة لورودها على صورة بارزة في أبحاث سابقات
ولاحقات ، وإليك الآن هذه الطائفة من آثار العقل والقلب والوجدان :

مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ .

لا تظنن بكلمة خرجت من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتملاً .
أسوأ الناس حالاً مَنْ لم يثق بأحدٍ لسوء ظنه ، ومَنْ لم يثق به أحدٌ
لسوء فعله .

ليس من العدل القضاء بالظن على الثقة .

سوء الظن يدوي ^(١) القلوب ، ويتهم المأمون . ويوحش المستأنس ،
ويغير مودة الإخوان .

ما المجاهد الشهيد في سبيل الله باعظم أجراً ممن قد رفعت : لكاد العفيف
أن يكون ملاكاً من الملائكة .

العفو زكاة الظفر .

ما كل مفتون يعاتب ^(٢) .

أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة .

أستر عورة أخيك واغفر زلة صديقك .

عليك بالصدق في جميع أمورك .

(١) يدوي : يصيبه بالداء .

(٢) أي : لا يتوجه العتاب والوم إلى كل داخل في تنة ، فقد يدخل فيها من لا يحصى له منها
لأمر اضطره فلا لوم عليه .

لا سواة أسوأ من الكذب .

الكذاب يخيف نفسه وهو آمن .

علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك .

جانبوا الكذب فإنّ الصادق على منجاةٍ وكرامة ، والكاذب على شقاء مهواةٍ وهلكة .

الكذاب والميت سواء . لأنّ فضيلة الحيّ على الميت الثقة به ، فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته .

إن كنت صادقاً كافيناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك .

لا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل ، ولا في أن يعيد أحدكم صبيته ثم لا يفي له . إنّ الكذب يهدي إلى الفجور .

خير المقال ما صدقته الفِعال .

إنّ من عدم الصدق في منطقته فقد فُجع بأكرم أخلاقه .

ما السيف الصارم في كفّ الشجاع بأعزّ له من الصدق .

أقبح الصدق ثناء المرء على نفسه .

ذمتي بما أقول رهينة .

اعتصموا بالذمم .

لا تغدرنّ بذمتك ولا تخيسنّ بعهدك ولا تختلنّ عدوك .

أوفوا إذا عاقدتم ، واعدلوا إذا حكمتم ، ولا تفاخروا بالأبواء .

لا تكن ممّن ينهي ولا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ، ويصف العبرة ولا

يعتبر ، فهو على الناس طاعنٌ ولنفسه مُداهن .

لا تصحب الماتق^(١) فإنّه يزّين لك فعله ويودّ أن تكون مثله .

(١) الماتق : الاحق .

إِيَّاكَ ومصادقةَ الأحقِّ فَإِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضِرَّكَ . وَإِيَّاكَ ومصاحبةَ
البخيلِ فَإِنَّهُ يَبْشُرُكَ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ . وَإِيَّاكَ ومصادقةَ الكذَّابِ فَإِنَّهُ
كالسرَّابِ : يَقْرَبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ وَيُبْعِدُ عَنْكَ الْقَرِيبَ .

لَا صَدِيقَ لِمُتْلَوْنٍ ، وَلَا وَفَاءَ لِكُذُوبٍ ، وَلَا رَاحَةَ لِحُسُودٍ . وَلَا مَرُوءَةً لِلدُّنْيَا .
إِيَّاكُمْ والخديعةَ فَإِنَّهَا مِنْ خُلُقِ النَّامِ .
وَاللَّهُ مَا مَعَاوِيَةَ بِأَدْهَى مِنِّي . وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ : وَلَوْلَا كِرَاهِيَةُ الْغَدْرِ
لَكُنْتُ أَدْهَى النَّاسِ .

انتهزوا فُرْصَةَ الْخَيْرِ .

إِفْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلُهُ كَثِيرٌ .

قُولُوا الْخَيْرَ تَعْرِفُوا بِهِ ، وَاعْمَلُوا الْخَيْرَ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ .

السَّاعِي بِالْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ ، أَمَّا السَّاعِي بِالشَّرِّ وَمُحَارَبَةُ الْخَيْرِ فَهُوَ عَدُوٌّ لِلَّهِ
وَالْبَشَرِ .

وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنَّ أَحَدًا أَوْلَى بِفَعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونُ وَاللَّهِ كَذَلِكَ .

إِذَا تَحَرَّكَتْ صُورَةُ الشَّرِّ وَلَمْ تَظْهَرْ وَلَدَّتِ الْفُرْجَ ، فَإِذَا ظَهَرَتْ وَلَدَتْ

الْأَلَمَ . وَإِذَا تَحَرَّكَتْ صُورَةُ الْخَيْرِ وَلَمْ تَظْهَرْ وَلَدَتْ الْفُرْجَ ، فَإِذَا ظَهَرَتْ
وَلَدَتْ اللَّذَّةَ .

الْكَيْسُ مَنْ كَانَ يَوْمُهُ خَيْرًا مِنْ أَمْسِهِ .

مَنْ اعْتَدَلَ يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُورٌ .

إِذَا رَأَيْتَ الشَّرَّ فَأَعْرِضْ عَنْهُ .

مَنْ مَعْرُوفُهُ أَفْسَدَهُ .

لَا يُزْهِدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُكَ .

أَهْلُ الْمَعْرُوفِ إِلَى اصْطِنَاعِهِ أَحْوَجُ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ .

لا تستصغر شيئاً من المعروف قدرت على اصطناعه إيثاراً لما هو أكثر منه ،
 فإنّ اليسير في حال الحاجة أنفع من الكثير في حال الغنى عنه .
 قارنْ أهلَ الخير تكنْ منهم .
 فاعلُ الخير خيرٌ منه ، وفاعلُ الشرِّ شرٌّ منه .
 لا تعمل الخير رياءً ولا تتركه حياةً .
 مَنْ لا يعرف الخير من الشرِّ فهو بمنزلة البهيمة .
 إسأل اللهَ أن يُقوِّبك على العمل بكلِّ خير .
 لن يُضيعَ اللهُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً .
 أطلبوا الخيرَ وأهله ، واعلموا أنّ خيراً من الخير معطيه ، وشرّاً من
 الشرِّ فاعله .

كنت أنا والعباس وعمر ننذاكر المعروف ، فقلت أنا: خيرُ المعروف سترُهُ.
 وقال العباس : خيرُهُ تصغيرُهُ . وقال عمر : خيرُهُ تعجيلُهُ . فخرج علينا
 رسول الله ، فقال : فيمَ أنتم ؟ فذكرنا له ، فقال : خيرُهُ أن يكون هذا كله فيه .
 ما مِن يومٍ يمرّ على ابن آدم إلّا قال له : أنا يومٌ جديدٌ ، وأنا عليك
 شهيدٌ ، فقلْ في خيرٍ وأعملْ خيراً فإنك لن ترائني بعد أبداً !

قال في صفة الانسان الشريف : ينوي كثيراً من الخير ، ويعمل بطائفةٍ
 منه ، ويتلهّف على ما فاتته كيف لم يعمل به .
 وقال فيه أيضاً : قد ألزمَ نفسه العدلَ ، يصف الحقَّ ويعمل به ، لا
 يدعُ للخير غايَةً إلّا أمّها ، ولا مَظَنَّةً إلّا قَصْدَها ^(١) .
 أحصد الشرَّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك .

(١) مظنة خير : موضع ظن لوجود خير .

مَنْ اسْتَحْسَنَ الْقَبِيحَ كَانَ شَرِيكًا فِيهِ .
إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشْرِه ، فإنك تقف في مشورته على
عدله وجوره ، وخيره وشره .

ليس في البرق الخاطف مستمتع^(١) لمن يخوض في الظلمة .
ما خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ^(٢) وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ .
إقبلْ عذراً من اعتذر إليك . وأخِرَ الشرِّ ما استطعت .
ليكنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً .
مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاعَ مَذْهَبُهُ .

مَنْ صَارَ الْحَقُّ صَرَعَةً .
لَا يُؤْنِسُكَ إِلَّا الْحَقُّ وَلَا يُوَحِّشُكَ إِلَّا الْبَاطِلُ .
أَلَا وَإِنَّ بِالْحَقِّ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ .
مَا شَكَّكَ فِي الْحَقِّ مَذْرَأَتُهُ .
اتبعوا الحقَّ وأهله حيث كانوا .
لا تريدني كثرةُ الناسِ حولي عِزَّةً ، ولا تفرِّقْهم عني وحشةً ، وما
أكره الموتَ على الحقِّ .

ليسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ .
مَنْ طَلَبَ عِزًّا بِبَاطِلٍ أَوْرَثَهُ اللَّهُ ذُلًّا بِحَقٍّ .
لَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْحَقِّ إِلَّا مَنْ وَزَعَهُمْ^(٣) عَنِ الْبَاطِلِ .
مَنْ اسْتَقْبَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ ، كَانَ الْعَمَلُ
بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ .

(١) مستمتع : مشقة .

(٢) يقول : أي خير في شيء ساء الناس غيراً وهو ما لا يتأله الإنسان الا بفعل الشر .

(٣) وزعهم : ردعهم .

لنا حقّ فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى .
لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة من يسلكه .
إعملوا في غير رياء .

للمرائي ثلاث علامات : ينشط إذا رأى الناس ، ويكسل إذا كان وحده ،
ويحبّ أن يُحمّد في جميع أحواله .

من أسعف أخاه مبتدئاً وبرّه راغباً فله الأجر .

ليكنْ دَنُوكَ من الناس ليناً ورحمة .

عائب أخاك بالإحسان إليه وارِدْهُ بالإِنعام عليه .

صِلْ مَنْ قَطَعَكَ ، وأعطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وأحسينْ إلى مَنْ أساء إليك ،
وقل الحقّ ولو على نفسك .

إن كنتَ من أخيك على ثقةٍ فابذلْ له مالك ويدك .
أزجرِ المسيء بثواب المحسن .

إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطلْ لِسَانُكَ بالشكر .
خذْ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين ^(١) .

إن لم تكن حليماً فتحلّمْ ، فإنه قلّ مَنْ تشبه بقومٍ إلاّ أوشك أن
يكون منهم .

ليس جزاء مَنْ سَرَكَ أن تسوّه .

ما ظفّرَ مَنْ ظفر الإثمِ به ، والغالب بالشرّ مغلوب .
من أساء خلُقَه عذّب نفسه .

كفى بحسن الخلق نعيماً .

(١) الظفرين : الذي يكون نتيجة القتال ، وذلك الذي يكون نتيجة الإحسان .

لا تَعِدَنَّ عِدَّةً تَحَقَّرَها قَلَّةُ الثِّقَةِ بِنَفْسِكَ ، ولا يَفْرَتَنَّ المَرْتَقَى السَّهْلَ
ذَا كَانَ المُنْتَحِدَرُ وَعَرًّا .

اوصيك بالخلم عند الجهل ، وحسن الحوار ، والأمر بالمعروف ، والنهي
عن المنكر ، واجتناب الفواحش .
إِرْحَمَ تَرْحَمَ . قل خيراً تُذَكِّرُ بخير ، اجتنب الغيبة فإنَّها إدام كِلاب
النار .

لِيرَأْفُ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ
مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ ، وَمَنْ وَعَظَهُ عِلَانِيَةً فَقَدْ شَانَهُ .
عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب ، وبالعدل على الصديق والعدو .
عليك لأخيك مثل الذي لك عليه .
الغيبة جهْدُ العاجز .
سامع الغيبة أحد المغتابين .

نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ يَغْتَابُ آخَرَ عِنْدَ ابْنِهِ الْحَسَنِ ، فَقَالَ : يَا بَنِي نَزَهْ سَمِعَكَ عَنْهُ ،
فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَى أَخِيكَ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ .
احمضْ أَخَاكَ النَّصِيحَ وساعده على كلِّ حال ، ولا تصرمْ أَخَاكَ على
ارتباب ولا تقاطعه دون استعتاب فلعلَّ له عذراً وأنت تلوم .
أَكْثَرُ البرِّ مَا اسْتَطَعْتَ لِلْحَيْسِكِ .

كفى أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك .
الويل كلَّ الويل لمن استحسن لنفسه ما يكرهه لغيره ، وأزرى على الناس
بمثل ما يأتي .

ليس بعاقِلٍ من انزعج من قول الزور فيه ، ولا بحكيمٍ من رضي بثناء
الجاهل عليه .

مَنْ نَجَرَ لَكَ نَجَرَ عَلَيْكَ .

من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راضٍ عنك ، ذمك بما ليس فيك
من القبح وهو ساخط عليك !

عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! وعجباً لمن قيل فيه الشر
وليس فيه كيف يغضب !

لتكن معرفتك بنفسك أوثقَ عندك من مدح المادحين لك .

من استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه فليس لنفسه عنده قدر !
رأس العلم الرفق .

ما كان الرفقُ في شيء إلا زانه .

وإن غائباً يحدوه الحديدان الليل والنهار لحريّ بسرعة الأوبة (١) .

طوبى لمن شغلته عيبه عن عيوب الناس .

مَنْ نظَرَ في عيوب الناس فأنكرها ثم رضى بها لنفسه فذاك الأحمق بعينه .

مَنْ نظَرَ في عيب نفسه شغل عن عيب غيره .

مَنْ نسيَ زلله استعظم زللَ غيره ، ومَنْ تكبرَ على الناس ذلّ .

وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره .

الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل .

مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه .

هلك امرؤ لم يعرف قدره .

أنظر وجهك كل وقت في المرأة ، فإن كان حسناً فاستقيح أن تضيف إليه

فعلاً قبيحاً وتشينه به . وإن كان قبيحاً فاستقيح أن تجمع بين قبحين !

الإنسان مرآة الإنسان ، يتأمله ويسدّ فاقته .

إذا كان في رجل خلة رائقة فانتظروا أخواتها (٢) .

(١) يحده : يسوقه . الأوبة : الرجوع . (٢) الخلة : الخصلة

شِراءُكم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، المبغنون للأبرياء
المعائب .

لا سؤدد مع انتقام ، ولا صواب مع ترك المشورة .

لا أقبل شهادة الفاسق إلاّ على نفسه .

إذا حُبِّبْتَ بنحبةٍ فحيّ بأحسنَ منها ، وإذا اسديتُ إليك يدُ فكافئها

بما يربى عليها . والفضل في ذلك للبادي .

إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره ، تنكّرتُ للناس أخلاقه .

إذا رفعتُ أحداً فوق قدره ، فتوقّعْ منه أن يحطّ منك بقدر ما رفعتُ منه .

لا تشمتْ بالمصائب ولا تدخل في الباطل ولا تخرج من الحقّ .

لا تفرح بسقطة غيرك . فإنك لا تدري ما تنصرف الأيام بك .

أكرم نفسك عن كلّ دنيّة .

لا يأبى الكرامة إلاّ حمار .

مَنْ حمل نفسه ما لا يطيق عجز .

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ .

مَنْ عَزَى الثَّكْلَى فَقَدْ أَظْلَمَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ .

أَدَبُ الْيَتِيمِ بِمَا تَوَدَّبَ بِهِ وَلَدَكَ .

ساووا ضعفاءكم في ما كلّكم .

لا يطمع قريبك في حيفك^(١) ولا يئأس عدوك من عدلك .

إني أكره لكم أن تكونوا سبّايين .

لا تصحبَنَّ في سفرٍ مَنْ لا يرى لك من الفضل عليه مثلَ ما يرى له من

الفضل عليك .

(١) حيفك : ظلمك .

إنّ مشيَّ الماشي مع الراكب مفسّدةٌ لِلراكب ومذلّةٌ لِلماشي .
لا تُسارَ أحداً في مجلسك . وإن غضبتَ فقمْ ، ولا تقضينَ وأنت غضبان .
ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة .
إذا طرقت إخوانك فلا تدخروا عنهم ما في البيت ، ولا تتكلف لهم ما وراء الباب .

شرّ الإخوان مَنْ تكلفَ له .
إيتاك وكلّ عملٍ إذا ذُكر لصاحبه أنكره .
مَنْ عمل في السرّ ما يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر .
مَنْ أصلح سريره أصلح علانيته .
ليترينَ أحدكم لأخيه كما يترينَ للغريب الذي يحبّ أن يراه في أحسن الهيئة .

صديقك من نهاك وعدوك من أغراك .
مَنْ حذرك كمن بشرك .
حسد الصديق من سقم المودة .
ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من الحاسد : نفسٌ دائمٌ وقلبٌ هائمٌ وحزنٌ لازمٌ ، مغتاظٌ على من لا ذنبَ له ، بخيلٌ بما لا يملك .
لا يرضى عنك الحاسدُ حتّى يموت أحدكما .
التواضع نعمة لا يفتن لها الحاسد .
قال لرجل أفرط في الثناء عليه ، وكان له متهماً : أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك !

الثناء بأكثر من الاستحقاق ملقٌ ، والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسدٌ .
خالطوا الناس مخالطةً إن متمّ معها بكوا عليكم وإن عشتم حنّوا إليكم .

لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكته وغيته ووفاته .

عدوٌ عاقل خيرٌ من صديق جاهل .
من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم (١) .
أكبر الأعداء أخفاهم مكيدة .
من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيه .
ما جفت الدموع إلا لقصة في القلوب ، وما قت القلوب إلا
لكثرة الذنوب .

إسأل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .
الكرم أعطف من الرحم .
تحتاج القرابة إلى مودة ، ولا تحتاج المودة إلى قرابة .
رب قريب أبعد من بعيد . ورب بعيد أقرب من قريب . والغريب من لم
يكن له حبيب .

المودة قرابة مستفادة .
فقد الأحبة غربة .
من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه ، وحنينه إلى أوطانه ،
وحفظه قديم إخوانه .
الطمع رق مؤبد .
أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .
كم من عقل أسير تحت هوى أمير .

(١) أي عدم التفاته إلى عيوب الناس وإشاعتها وإن علمها .

إن كنت جازعاً على ما تَقَلَّتْ من يدبك ، فاجزع على كلِّ ما لم يصل إليك .

المهوى مطيَّة الفتنة .

في تقلُّب الأحوال علمُ جواهر الرجال .

إذا أبسرت فكلَّ الرجال رجالك ، وإذا أعسرت أنكركَ أهْلِكَ .

إذا أقبلت الدنيا على أحدٍ أعارته محاسنٌ غيره ، وإذا أدبرت عنه سلْبته محاسنٌ نفسه .

فَوْتُ الحاجة أهونُ مِنْ طلبها إلى غير أهلها .

ثلاثةٌ يُرحَمون : عاقلٌ يجري عليه حُكْمُ جاهل ، وضعيفٌ في يد ظالم قوي . وكرِيمٌ يحتاج إلى لثيم .

إذا سألتَ كريماً حاجةً فدعهُ يفكِّر ، فإنه لا يفكِّر إلا في خير . وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاجلهُ ، فإنه إن فكَّر عاد إلى طبعه .

الرغبة إلى الكريم تُحرِّكُهُ على البذل ، وإلى الخسيس تُغريه بالمنع .

الكريم لا يلين على قسر ، ولا يقسو على يُسر .

وجهوا آمالكم إلى مَنْ تحبُّه قلوبكم .

البخل جامعٌ لساوئ العيوب ، وهو زمامٌ يُقاد به إلى كلِّ سوء .

البخل جلاباب المسكنة .

البخلاء من الناس يكون تغافلُهم عن عظيم الجرم أسهلَّ عليهم من المكافأة على يسر الإحسان .

السخاء ما كان ابتداءً ، فأما ما كان عن مسألة فحياءٌ وتذمُّمٌ ^(١) .

يا ابن آدم ، ما كسبتَ فوق قوَّتِكَ فأنت فيه خازنٌ لغيرك .

يا ابن آدم ، كنْ وصيَّ نفسك في مالك ، واعملْ فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك .

(١) التذمُّم : الفرار من الذم ، كالتأثم والتحرج .

مَنْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ فَلْيَفِئْ بِهِ الْعَانِي وَالْأَسِيرَ .
 لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظْتَكَ .
 مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَ عَلَيْهِ مَالُهُ .
 الْحَرَصُ وَالْكِبَرُ وَالْحَمْدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَهُمِ فِي الذُّنُوبِ .
 لَا تَهْضَمَنَّ مَحَاسِنَكَ بِالْفَخْرِ وَالْكِبَرِ .
 يَكُونُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمَصِيبَةِ .
 الْمَصِيبَةُ وَاحِدَةٌ فَإِنْ جَزَعَتْ كَانَتْ اثْنَتَيْنِ .
 إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُحَمِّدَ فَلَا يَظْهَرُ مِنْكَ حَرَصٌ عَلَى الْحَمْدِ .
 أَكْبَرُ الْفَخْرِ إِلَّا تَفَخَّرَ .
 عَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ .
 لَا يُعْدِمُ الصَّبْرُ الظُّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ .
 لَا تَجْزَعُوا مِنْ ضُرَاءِ الدُّنْيَا وَبُؤْسِهَا .
 عِنْدَ تَنَاهِي الشَّدَةِ تَكُونُ الْفَرَجَةُ .
 الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو .
 الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عَلَى مَا نَكَرَهُ وَصَبْرٌ عَمَّا نَجِبَ .
 الدَّهْرُ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ . فَإِنْ كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرْ وَإِنْ كَانَ
 عَلَيْكَ فَاصْبِرْ .
 مَنْ صَبَرَ صَبَرَ الْأَحْرَارَ ، وَإِلَّا سَلَا سُلُوءَ الْأَعْمَارِ (١) .
 لَا تَكُنْ عِنْدَ النِّعَمَاءِ بَطِيراً وَلَا عِنْدَ الْبِئْسَاءِ فَشِلاً .
 التَّكَبُّرُ عَلَى الْمُتَكَبِّرِينَ هُوَ التَّوَاضُّعُ بَعِيْنُهُ !
 مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نَالَهُ أَوْ بَعْضُهُ .

(١) الْأَعْمَارُ ، جَمْعُ غَمْرٍ ، وَهُوَ : الْجَاهِلُ الَّذِي لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ .

المرء مخبوءٌ تحت لسانه .
هانت عليه نفسه من أمر عليه لسانه .
لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .
لا خير في الصمت عن الحكم ، كما أنه لا خير في القول بالجهل .
أمسك عليك لسانك فإنّ تلافيك ما فرط من صمتك أيسرُ عليك ميسر
إدراك ما فات من منطقك .

إذا فعلتَ كلَّ شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً .
لا تسأل عما لا يكون ، ففي الذي قد كان لك شغل .
الوفاء لأهل الغدر غدرٌ عند الله .
إنّ الأمور إذا اشتبهت اعتبر أولّها بآخرها .
أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد !
ما أكثر العيبرَ وأقلّ الاعتبار .
العاقل من وعظته التجارب .
رأي الشيخ أحبّ إليّ من جلد الغلام (١) .
قيل له : صف لنا العاقل . فقال : هو الذي يضع الأشياء مواضعها . فقيل :
فصف لنا الجاهل : فقال : قد فعلتُ !

من اشتبه عليكم أمره فانظروا إلى خلطائه .
إذا كنت في إدبار ، والموت في إقبال ، فما أسرع الملتقى .
من تذكّر بعد السفر استعدّ .
نفسُ المرء خطاه إلى أجله .
كم من أكلةٍ منعت أكالات .

(١) جلد الغلام : صبره على القتل .

الخلاف يهدم الرأي .

لا رأي لمن لا يُطاع .

قال لما سمع قول الخوارج « لا حُكْمَ إِلَّا لله » : كلمةٌ حقٌّ يرادُ بها

باطل !

من جهل شيئاً عابته .

الناس أعداء ما جهلوا .

مَنْ لَانَ عُدُوهُ كَثَفَتْ أَغْصَانُهُ .

العفة مع الحرقة خيرٌ من السرور مع الفجور .

نومٌ على يقين خيرٌ من صلاةٍ على شكٍّ .

فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على إبليس من ألف عابد .

أفضل الزهد إخفاء الزهد .

ليست الصلاة قيامك وعودك إنما الصلاة إخلاصك .

كم من صائمٍ ليس من صيامه إِلَّا الظمأ ، وكم من قائمٍ ^(١) ليس له من

قيامه إِلَّا السهر والعناء . حبذا نوم الأكياس ^(٢) وإفطارهم .

أشدُّ الذنوب ما استهان به صاحبه .

لا تَحْتَقِرَنَّ صَغِيرًا يُمْكِنُ أَنْ يَكْبُرَ ، وَلَا قَلِيلًا يُمْكِنُ أَنْ يَكْثُرَ .

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاحِلُ ^(٣) وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا

الْفَاجِرُ ^(٤) وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ ^(٥) .

(١) أي قائم للصلاة .

(٢) أكياس : جمع كيس وهو العاقل .

(٣) الماحل : الساعي في الناس بالوشاية عند السلطان .

(٤) لا يظرف : لا يعد ظريفاً .

(٥) لا يضعف : لا يعد ضعيفاً .

الدنيا حمقاء لا تميل إلاّ إلى اشباهها !

أنا كابُ الدنيا لوجهها . وقادرُها بقدرها ، وناظرُها بعينها .

أيها الناس . إني والله ما احثُكم على طاعة إلاّ اسبقكم إليها . ولا أتهاكم عن معصية إلاّ اتهاى قبلكم عنها .

مَنْ نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره . وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم .

ينبغي لمن وليّ أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته، وإلا كان بمزلة من رام استقامة ظيلّ العُود قبل أن يستقيم ذلك العود ! واعتجبهاه ! أنكون الخلافة بالصحابة والقرابة .

أشقى الرُعاة مَنْ شقيتْ به رعيته .

ما أقبح الغدر من السلطان .

لا زعامة لسيء الخلق .

إذا كان الراعي ذنباً ، فالشاة مَنْ يحفظها ؟

الراعي بلا عملٍ كالرامي بلا وتر .

لا تقبلنّ في استعمال عمالك وأمرائك شفاعاً إلاّ شفاعاً الكفاية والأمانة مَنْ فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء ، فإنه لو غصّ بغيره لأساغ الماءُ غصّته .

العدل صورة واحدة ، والجور صور كثيرة . ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرّي العدل ، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها . وإن الإصابة تحتاج إلى إرتياض (١) وتعهّد ، والخطأ لا يحتاج إلى شيء من ذلك .

(١) إرتياض : مران .

قدّم العدل على البطش ولا تستعمل الفعل حيث ينبع^(١) القول .

شرّ الناس إماماً جائراً ضلّ وضلّ به .

البنّي آخر مدة الملوك .

عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان .

المسؤول حرٌّ حتى يتعد .

قلوب الرعيّة خزائن راعيها ، فما أودّعها من عدلٍ أو جور وجدّه

فيها .

ولا تلتفتوا إلى ناعق نَعَقَ إن أُجيب ضلّ وإن تُرك ذلّ .

ألا وإني أقاتلُ رجلين : رجلاً ادّعى أن لانسب له ، وآخر منع الذي

عليه .

وأعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة !

يد الله فوق رأس الحاكم ترفرف بالرحمة فإذا حاف^(٢) وكلّه الله

إلى نفسه .

قال في الله تعالى : وقلّع جبالها وتسقّفها ودكّ بعضُها بعضاً من هيبة

جلالته .

الحمد لله الذي لا توارى عنه سماءٌ سماءٌ ولا أرضٌ أرضاً .

على أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بالعامّة .

بنى رجل من عمّاله بناء فخماً ، فقال : أطلعتِ الورقُ^(٣) رؤوسها !

إن البناء يصف لك الغنى !

ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم : تاجر البحر ، وصاحب السلطان ،

والمرتشي في الحكم !

إذا غضب الله على أمة غلّت أسعارُها وغلبتْها أشرارُها .

(١) ينبع : ينفع .

(٢) حاف : ظلم .

(٣) الورق : القفّة .

اللهم اغفر لي ما أنت أعلم به مني . فإن عدتُ فعدْ عليّ بالمغفرة . اللهم اغفر لي رمزاتِ الألفاظ (١) وسقطاتِ الألفاظ وشهواتِ الجنان وهفواتِ اللسان .

اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون ، واغفر لنا ما لا يعلمون .
عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت ، فقال : مالك لا تقول ؟ قال : إن قلتُ لم أقل إلا ما تكره . وليس لك عندي إلا ما تحب .
لا تدعون إلى مبارزة .

أيّاكم والمراءاة والخصومة فإتّهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق .
من أمنت من أذيته فارغب في أخوته .
إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم .
أعينوا الضعيف وانصروا المظلوم وتعاونوا .
تعاطوا الحق بينكم وتعاونوا به ، وخذوا على يد الظالم السفيه .
أعينوا الضعيف وانصروا المظلوم وأحسنوا إلى نساككم واصدقوا الحديث وأدوا الأمانة وأوفوا بالعهد وكونوا قوامين بالقسط .

اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك .
يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم .
شيعتنا الذين إن غضبوا لم يظلموا ، بركة على من جاوروا سلم لمن خالطوا .

رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فردّه ، وكان عوناً بالحق على صاحبه .

البغي والزور يُزريان بالمرء .

(١) رمزات الألفاظ : الإشارات والإيماءات .

وقد خابَ مَنْ حملَ ظلماً .
استعملِ العدلَ واحذرِ السيفَ والحَيِّفَ ، فإنَّ العسفَ يعودُ بالجللاء ^(١)
والحيِّفَ يدعُو إلى السيفِ .
ما أقبحَ القسوةَ على الجارِ .
هَلَكَ مَنْ ادَّعى وخابَ مَنْ افترى .
مَنْ امتشقَ سيفَ البغي قُتِلَ به ، وَمَنْ حفرَ بُرّاً لأخيه وقعَ فيها .
مَنْ زرعَ العدوانَ حصدَ الخسرانَ .
بشِ العدوانَ على العبادِ .
الظالمَ يدعُو إلى السيفِ !
إنَّ السباعَ هَمَّتْهُا العدْيُ ، وإنَّ البهائمَ هَمَّتْهُا بطونها .
إصبروا على البلاءِ ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم ^(٢)
لا تقوينَ سلطانك بسفكِ دمٍ حرامٍ .
إخترَ أن تكونَ مغلوباً وأنتَ منصفٌ ، ولا تختَر أن تكونَ غالباً وأنتَ ظالمٌ
وإيمُ اللهُ لأنصفنَ المظلومَ من ظالمه ولآخذنَ الظالمَ بنِزَامته حتى أوردَه منهلَ
الحقِّ وإن كان له كارها .
أَلَامُ النَّاسِ مَنْ سعى بإنسانٍ ضعيفٍ إلى سلطانٍ جائرٍ .
ظلمَ الضعيفَ أفحشَ الظلمِ .
وأما الذنبَ الذي لا يُغفَرُ ، فظلمَ العبادَ بعضهم لبعضٍ .
لا تكنَ للظالمِ معيناً .

(١) العسف : الشدة في غير حق . والجلاء : التفرق والتشتت . والحيِّف : الميل عن العدل إلى الظلم . بهذا القول يترع علي بالمظلومين إلى القتال رفماً للظلم .

(٢) ينهى المعاربين عن التمعُّل في حمل السلاح تلبية لقول يقوله أحدهم في غير وقته .

للظالم ثلاث علامات : يظلم من فوقه بالمتعصية ، ومن دونه بالغلبة .
ويظاهر القوم الظلمة (١) .

العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به : شركاء ثلاثة .
الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم . وعلى كل داخل في باطل إثمَان :
إثم العمل به . وإثم الرضا به .

قيل له : أي الأمور أعجل عقوبة وأسرع لصاحبها صرعة ؟ فقال :
ظلم من لا ناصر له إلا الله ، واستطالة الغني على الفقير .
أذكر عند الظلم عدل الله فيك . وعند القدرة قدرة الله عليك .

مازلت مظلوماً منذ قبض الله نبيته حتى يوم الناس هذا . ولقد كنت أظلم
قبل ظهور الإسلام . ولقد كان أخي عقيل ، يُذنبُ أخي جعفر فيضربني !
الفجور دارُ حصنٍ ذليل : لا يمنع أهله ولا يُحرزُ من بلأ إليه (٢) .
لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها .

إنما يجمع الناس الرضا والسخط : فمن رضي أمراً فقد دخل فيه ، ومن
سخطه فقد خرج منه .

لكل امرئ ما اكتسب .
قيمة كل امرئ ما يُحسن .
واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون .
لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال .
لا حسبَ كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا قرين كحسن الخلق .
أشرف الأشياء العلم ، والله تعالى عالمٌ يحب كل عالم .

(١) الثلبة : القهر . يظاهر : يماون . الظلمة : جمع ظالم .

(٢) يحفظ .

من أبطأ به عمله لم يُسرِع به حسَبه .
 اعملْ لدنياك كأنك تعيش أبداً .
 مَنْ قَصَرَ في العمل ابتلي بالهم .
 لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل .
 الشرف بالهمم العالية لا بالرَّمم البالية .
 الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب .
 تعلّموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً ، فلأنّ يُدَمَّ الزمانُ لكم أحسنُ مِن
 أن يُدَمَّ بكم !

ما من حركة إلّا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة .
 العاملُ بغير علمٍ كسائرٍ في غير طريق ، فلا يزيده بُعدُه عن الطريق إلّا
 بُعداً عن حاجته . والعامل بالعلم كسائرٍ على الطريق الواضح ، فليَنظُرْ ناظرٌ
 أسائرٌ هو أم راجع .

الفكرة تورث نوراً والغفلة تورث ظلمة .
 سل تفقّها ولا تسأل تعتّاً !
 أعلم الناس مَنْ جمعَ علمَ الناس إلى علمه .
 مَنْ استبدّ برأيه هلكَ ومن شاورَ الرجال شاركها في عقولها ، .
 من استقبلَ وجوهَ الآراء عرفَ مواقعَ الخطأ .
 لا كثر أنفع من العلم ، ولا عزّ أرفع من الحلم .
 قَطَعَ العلمُ عذَرَ المتعلّين .
 العلم يحرسك وأنت تحرس المال .
 ليس الخير أنْ يكثرَ مالك ووُلْدُكَ ، ولكنّ الخير أنْ يكثرَ علمك .
 هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .

الملوكُ حكامٌ على الناس ، والعلماءُ حكامٌ على الملوك !
العالم حيٌّ وإن كان ميتاً ، والجاهل ميت وإن كان حياً .
العلم إحدى الحياتين ، والمودة إحدى القرابتين ، والذكر الجميل أحدُ
العمرين .

قال لأبناء زمانه : جاهلُكم مُزداد ، وعالمُكم مُسَوِّفٌ (١) .
ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور .
في السنة ، وأسرع السنين في العمر !
لا يَسْتَحِينُ أحدٌ إذا سئِلَ عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ! ولا
يَسْتَحِينُ أحدٌ إذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه .
ما أكثر ما تجهلُ من الأمر وبِتَحِيرُ فيه رأيك ، ويضِلُّ فيه بصرك ، ثم
تُبصره بعد ذلك .

لا فقر أشدَّ من الجهل .
لا يؤمنك من شرِّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ ، فإن أخوفاً ما تكونُ لحريقِ
النار أقربُ ما تكونُ إليها .

إذا أرذل الله عبداً حظّر عليه العلم .
كلّ وعاءٍ يضيّق بما جُعِلَ فيه إلّا وعاء العلم فإنه يتسع .
إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .
لهبُ الشوق أخفّ محملاً من مقاساة الملاة .
كفى العلم شرفاً أن يدّعيه من لا يُحسنه ، ويفرح إذا نُسب إليه من ليس
من أهله . وكفى بالجهل خملاً أن يتبرأ منه من هو فيه ، ويفضّض إذا
نُسب إليه .
أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً .

(١) اي : جاهلكم يغالي ويزداد في العمل على غير بصيرة ، وعالمكم يسوف بعمله ، أي يؤخره

العلم دينٌ يُدَانُ به .

العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه .

من أقى بغير علمٍ لعنته الأرضُ والسماء .

العلماء غرباء لكثرة الجهال .

ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا

شكراً العالم على علمه أن يبذله لمن يستحقه .

ذو الهمة وإن حطَّ نفسه يأبى إلا علواً ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها

وتأبى إلا ارتفاعاً .

إذا جلستَ إلى عالمٍ فكنْ إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تقول .

العلم مقرونٌ بالعمل : فمن علمَ عملَ . والعلم يهتف بالعمل : فإن أجابه

وإلا ارتحل .

يا حَمَلَةَ العلم أتحملونه ؟ فإنما العلم لمن علمَ ثم عمل بما عليم ووافق

عمله علمه .

إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الخائر الذي لا يستفيق من جهله ، بل

الحجة عليه أعظم .

لا تجعلوا علمكم جهلاً ، وبقينكم شكاً . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقنتم

فأقدموا .

ما أحسن العمل يزيه الرفق .

قلتم : إن فلاناً أفاد مالاً عظيماً ! فهل أفاد أياماً ينفعه فيها (١) ؟

ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن

شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعما عمل فيم علم !

(١) أفاد : استفاد .

مجاوزتك ما يكفيك فقرٌ لا منتهى له .
ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً !
مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ (١) .

منهومان لا يشبعان : طالبُ علم وطالبُ مال !
التاجر فاجر ، والفاجر في النار ، إلا مَنْ أخذ الحقَّ وأعطى الحقَّ .
قال في جامع المال : لعلّه من باطلٍ جمعه ، ومن حقٍّ منعه .
الفقر الموت الأكبر .

الفقر يخرس الفطن والفقير غريبٌ في بلده .
الفقر في الوطن غربه .
ليس بلدٌ بأحقَّ بك من بلد : خير البلاد ما حملك (٢) .
لو تمثّل لي الفقيرُ رجلاً لقتلته .
اللهمّ إني أعوذ بك أن أفقر في غناك .
ألا وإن من البلاء الفاقة !

ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غني .
ما رأيت نعمةً موفورة إلا وإلى جانبها حقٌّ مضيع .
لا تُنال نعمةٌ إلا بفراق أخرى
لا تُنال نعمةٌ إلا بعد أذى
الخطأ في إعطاء مَنْ لا يبتغي ، ومنع مَنْ يبتغي : واحد !
إذا استغنيت عن شيء فدعه ، وخذ ما أنت محتاج إليه .
إنما يعاب مَنْ أخذ ما ليس له .
ما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا تُترك سُدى فيلغو (٣) .

(١) استأثر : استبد وخس نفسه بكل منعم .
(٢) يقول : كل البلاد تصلح سكناً ، وإنما أفضلها ما حملك ، أي : أعزك وأراحك وأطمعك وآواك .
(٣) يلهو : يتلهى بلذته . يلغو : يأتي باللفو ، وهو ما لا فائدة فيه .

إِيَّاكُمْ وَالَّذِينَ .

الَّذِينَ مَذَلَّةٌ

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلثات لسوء أفعالهم . فتذكروا في الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم .

لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم قلوب الرجال وحشية ، فمن تألفها أقبلت عليه .

لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً

كل ما حملت عليه الحرُّ احتَمَلَهُ ورآه زيادة في شرفه ، إلا ما حَطَّه جزءاً من حرّيته فإنه بآباه ولا يجيب إليه .

وليس لي أن أحملك على ما تكرهون قد أذنتُ لك أن تكون على ما بدا لك .

الهم نصف الهرم

لا أعاقب على الظنة

لا يجوز القصاص قبل الجنابة

من تعاضم على الزمان أهانت

أنهاك عن التسرع في القول والعمل

اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم .

والله لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نعمة أسلبها لبَّ شعيرةٍ ما فعلتُ . وإنّ دنياكم عندي أهونُ من ورقةٍ في فم جرادة .

• • •

طَائِفَةٌ مِنْ رَسَائِلِهِ وَعُهُودِهِ وَوَصَايَاهُ

حقوق الانسان :

راجع رسالة عليّ إلى الأشتر النجفي عامله على مصر ، وقد أثبتناها في باب « عليّ وحقوق الانسان » تحت عنوان « دستور الامام في الولاية » . وهي من جلائل وصاياه وأجمعها لقوانين المعاملات المدنية والحقوق العامة والتصرفات الخاصة .

•

من وصية له إلى عسكره قبل لقاء العدو في صفين :

لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم ، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا معوّراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهبجوا النساء بأذى وإن شتمنَ أعراضكم وسببنَ أمراءكم !

•

من كتاب له إلى زياد بن أبيه وهو على البصرة :

وإني أقسم بالله صادقاً، لئن بلغتني أنك خُنتَ من فتيء المسلمين شيئاً صغيراً

أو كبيراً ، لأشدّ نّ عليك شدة تدعُك قليل الوفر ، ثقيل الظهر ، ضئيل
الأمر !

من عهد له إلى محمد بن أبي بكر حين قلّده مصر :
فأخفّض لهم جناحك ، وأبسط لهم وجهك ، وآسر بينهم في اللحظة
والنظرة حتّى لا يطمع العظماء في حيفك لهم ، ولا يئأس الضعفاء من عدلك
عليهم !

من وصية له كتبها لابنه الحسن من صفّين :
يا بنيّ ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين الناس ، فأحبّ لغيرك ما
تُحب لنفسك ، واکره له ما تكره لما . ولا تنظّم كما لا تحبّ أن تُنظّم
وأحسن كما تُحبّ أن يُحسن إليك . واستقبح من نفسك ما تستقبح من
غيرك . وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقلّ ما لا تعلم وإن
قلّ ما تعلم . ولا تقلّ ما لا تحبّ أن يقال لك .

ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنه ، ولا تُضيعن حقّ أخيك اتّكالا على
ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخٍ من أضعت حقه ، ولا يكنّ أهلك أشقى
الخلق بك ، ولا يكوننّ أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا
يكوننّ على الاساءة أقوى منك على الاحسان .

من كتاب له إلى بعض عمّاله :
بلغني أنّك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت
يديك ، فارفع إليّ حسابك !

من كتاب له إلى المنذر بن الحارود العبدى ، وقد خان الأمانات العامة في بعض ما ولاه من أعماله :

أما بعد . فإنّ صلاح أهلك غرتني منك . وظننتُ أنك تتبع هديّه ، وتسلك سبيله . فإذا أنت فيما رُقّيّ إليّ عنك ، لاتدعُ هواك انقيادا . ولئن كان ما بلغتني عنك حقاً ، لتجملُ أهلك وشيئُ نعليك خيرٌ منك ! ومن كان بصفتك فليس بأهلٍ أن يُسدَّ به ثغرٌ ، أو ينفذَ به أمرٌ ، أو يُعلَى له قدرٌ ، أو يُشرك في أمانة ، أو يؤمّن على خيانه ، فأقبلُ إليّ حين يصل إليك كتابي هذا إن شاء الله .

•

من كتاب له إلى العامل السابق نفسه :

كيف تُسبغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنّك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟ وتبتاع الإمام من مال اليتامى والمساكين . فاتقِ الله وارددْ إلى هؤلاء القوم أموالهم . فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرنّ إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلاّ دخل النار !

•

من كتاب له إلى ميخنف بن سليم عامله على أصبهان وهمدان :
وإنّا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين استأثروا بالفيء وأماتوا الحقّ وأظهروا في الأرض الفساد واتخذوا القاسطين وليجةً ، فإذا ظالمٌ ساعدهم على ظلمهم أحبّوه ، وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين .

•

من كتاب له إلى عامله على اردشير : وقد بلغه أنه يقسم الأموال في بني قومه :

بَلَّغْتِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ وَأَغَضِبْتَ إِمَامَكَ ،
فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لَشَنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ بَكَ عَلِيٌّ
هَوَانًا ، وَلَتَخِيفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا !

من كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على البصرة وقد
بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها :
وأما بعد . يا ابن حنيف ، فقد بلغني أَنَّ رجلاً من فِتْنَةِ أَهْلِ البصرة
دعاكَ إلى مأدبة فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجَفَانُ ،
وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ بِمَجْفُوٍّ ^(١) وَغَنِيَّتُهُمْ مَدْعَوْ . أَلَا
وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرِيهِ ^(٢) وَمِنْ طَعْمِهِ بِقَرْضِيهِ ، أَلَا
وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ . وَلَكِنْ أَعْيُنِي بَوْرِعُ وَاجْتِهَادُ ، وَعَقَّةٌ وَسَدَادُ .
فَوَاللَّهِ مَا كَثُرَتْ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبَرُّاً ، وَلَا ادْتَحَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرّاً ، وَلَا
أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا . وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مَصْفَى هَذَا
الْعَسَلِ وَلِبَابِ هَذَا الْقَمَحِ وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَرِّ ، وَلَكِنْ هِيَاهُنَا أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ،
وَيَقُودَنِي جَشْعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعَمَةِ ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مِنْ لَا طَمَعٍ
لَهُ فِي الْقُرْصِ . وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّعْ . أَوْ أَيْتُ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَرْنِي
وَأَكْبَادٌ حَرَّتِي ؟ أَتُنْفَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ مَكَارِهِ
الدَّهْرِ ؟ وَكَأَنِّي بِقَائِلِهِمْ يَقُولُ : « إِذَا كَانَ هَذَا قَوْتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ
بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ وَمَنَازِلَةِ الشُّجْعَانِ ! » أَلَا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ
أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَاثِعَ الْخَضِيرَةَ أَرْقَى جُلُودًا ، وَالنَّبَاتَاتُ الْبَلْوِيَّةَ أَقْوَى

(١) عَائِلُهُمْ : مُحْتَاجُهُمْ . بِمَجْفُوٍّ : مَطْرُودٌ .

(٢) الطِمْرُ : الثَّوْبُ الْمَتَّقُ الْخَلْقُ .

وقوداً ، وأبطأ خموداً ! والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليتُ عنها !

•

من كتاب له إلى عماله على الخراج :

فأنصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوادثهم ، ولا تحسبوا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته ، ولا تبيعنَّ للناس في الخراج كسوة شتاءٍ ولا صيفٍ ولا دابةً يعملون عليها ، ولا تضربنَّ أحداً سوطاً لكان درهم !

•

من كتاب له إلى سهل بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على المدينة :
أما بعد . فقد بلغني أن رجالاً ممَّن قبيليكَ يتسلَّلون إلى معاوية ، فلا تأييد على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم . فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومسرعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا أنَّ الناس عندنا في الحقِّ أسوةٌ فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقاً !
إنهم : والله ، لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل !

•

من كتاب له إلى أمراء الأجناد ، لما استخلف :

أما بعد ، فإنما أهلكَ مَنْ كان قبلك أنهم متَّعُوا الناسَ الحقَّ فاشتروه ^(١) وأخذوهم بالباطل فاقتدوه ^(٢) .

•

(١) أي حجبوا عن الناس حقهم ، فاضطر الناس لشراء الحق بالرشوة .
(٢) أي : كلّفوهم باتيان الباطل فأتوه ، فصار الباطل قنوةً يتبعها الابتاء بعد الآباء .

من كتاب له إلى أحد عمّاله :
 أمّا بعد . فلا يكن حظك في ولايتك مالا تستفيده ، ولا غيظاً تشفيه ،
 ولكن إمانته باطلر وإحياء حق !

ومن كلام له قاله قبل موته على سبيل الوصية ، بعد أن ضربه ابن ملجم ،
 وفيه يأمر أهله وأتباعه بالعفو عن قاتله :
 أنا بالأمس صاحبكم ، واليوم عيرة لكم ، وغداً مفارقكم ! إن أبتق
 فأنا وليّ دمي ، وإن أفنّ فالقضاء ميعادي ، وإن أعفّ فالفؤاد قربى ، وهو
 لكم حسنة ، فاعفوا !

من كتاب له إلى قثم بن العباس . وهو عامله على مكة :
 أمّا بعد ، فعلم الجاهل . وذاكر العالم . ولا يكن لك إلى الناس سفير
 إلا لسانك ، ولا حاجب إلا وجهك . ولا تحجبّن ذا حاجة عن لقائك بها
 فإنها إن زيدت عن أبوابك في أول وردها لم تحمد ، فيما بعد ، على قضائها .
 وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال
 مُصيّاً به مواضع الفاقة والحالات . وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه
 في من قبلنا .

من كتاب له إلى أمرائه على الجيوش :
 أمّا بعد ، فإن حقاً على الوالي أن لا يغيره على رعيته ففضلّ قاله ، ولا
 طولٌ خصّ به ، وإن يزيد ما قسّم الله له من نعيمه دنوّاً من عباده

وعطفاً على إخوانه . ألا وإنّ لكم عندي أن لا أحتجزَ دونكم سيراً إلا في حرب . ولا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم ، ولا أؤخرَ لكم حقاً عن محله . وأن تكونوا عندي في الحق سواء . وإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحدٌ أهونَ عليّ ممن اعوجَّ منكم . ثم أعظمُ له العقوبة ولا يجد عندي فيها رخصةً .

• • •

طائفة من خطبه

يا اشباه الرجال

من خطبة له بعد أن غزا سفيان بن عوف من بني غامد ، بلدة الأنبار الواقعة على الشاطئ الشرقي للفرات . وقد بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق نهويلاً على أهله :

وهذا أخو غامد قد وردت خيلُه الأنبار ، وقد قتل حسّان بن حسّان البكريّ وأزال خيلكم عن مسالحها ^(١) . وقتل منكم رجالاً صالحين . ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ^(٢) فينتزع حجلها ^(٣) وقُلْبها ^(٤) وقلائدَها ورِعاثها ^(٥) ما تُمنعُ منه إلا بالاسترجاع والاسترحام ^(٦) . ثم انصرفوا واقرين ما نال رجالاً منهم كلّم ولا أريق لهم دم . فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان

(١) مسالحها : جميع سلحة ، وهي الثغر والمقرب حيث يخشى طروق الاعداء .

(٢) المعاهدة : الذمية ، أي الداخلة في ذمة المسلمين وفي حمايتهم ، وأهل الذمة هم أهل الكتاب

من غير المسلمين .

(٣) الحجل : الخللخال .

(٤) القلب ، بالضم ، كفعل : السوار .

(٥) الرعاث جمع رعة : القرط .

(٦) الاسترجاع : ترديد الصوت بالبكاء ، والاسترحام : أن تناشد الرحم .

به ملوماً . بل كان به عندي جديراً ! فيا عجبا . والله يمت القلب ويحب
 الهم اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقهم عن حقكم ! فقبحاً لكم
 وترحاً^(١) حين صرتم غرضاً يرمى : يغار عليكم ولا تغيرون . وتغزون
 ولا تغزون . وبعضى الله وترضون ! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام
 الصيف قلتم : هذه حمارة القيظ^(٢) أمهلنا يسبح عنا الحر^(٣) ! وإذا
 أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم : هذه صبارة القر^(٤) أمهلنا ينسلخ
 عنا البرد ! كل هذا فراراً من الحر والقر . فأنتم والله من السيف أقر . يا
 أشباه الرجال ولا رجال ! حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال^(٥) .
 لوددت أني إلم أركم ولم أعرفكم ! معرفة . والله جرت نداماً وأعقت
 سداماً^(٦) قاتلكم الله !

لقد شحنتم صدري غيظاً وجرعتموني نغيب التهام أنفاساً^(٧) وأفسدت
 علي رأيي بالعصيان والخذلان . حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل
 شجاع . ولكن لا علم له بالحرب !

لله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراساً^(٨) وأقدم فيها مقاماً مني ؟
 لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أناذا قد ذرفت على الستين^(٩) :

(١) ترحاً : هماً وحزناً .

(٢) حمارة القيظ ، بتشديد الراء : شدة الحر .

(٣) يسبح : يخفف ويسكن .

(٤) القر : برد الشتاء . صبارة القر : بتشديد الراء : شدة القر .

(٥) حجال : جمع حجلة وهي القبة ، وموضع يزين بالستور ، والياب للمروس . وربات
 الحجال : النساء .

(٦) السدم : الهم مع الأسف والقيظ .

(٧) النغب : جمع نغبة وهي الجرعة . التهام : الهم الكثير . أنفاساً : أي جرعة بعد جرعة .

(٨) مراساً : مصدر مارس ، أي عالج وزاول وعانى .

(٩) ذرفت على الستين : زدت عليها .

ولكن لا رأي لمن لا يطاع !

غيبة الناس !

من كلام له في النهي عن غيبة الناس ورحمة أهل الذنوب :

وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة ، أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ويكون الشكر هو الغالب عليهم ، وإلى جزلهم عنهم ، فكيف بالغائب الذي غاب أخاه وعيتره ببلواه ؟ أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي غاب به ؟ وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله ؟ ! يا عبدالله ، لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعن الله مغفوره له !

أقولاً بغير علم ؟

من خطبة له :

أيها الناس المجتمعة أبداً بهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء ! ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ! أي دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أي إمام بعدي تقاثلون ؟ المفرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب . أصبحت والله لا اصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبيكم ؟ القوم رجال أمثالكم أقولاً بغير علم ؟ وغفلة من غير ورع ؟ وطمعاً في غير حق ؟ !

ويزداد الظالم عتوًّا !

ومن خطبة له :

أيُّها الناس ! إنا قد أصبحنا في دهرٍ عَتودٍ وزمنٍ كَثُودٍ يُعَدِّ في المحسنِ مِسْبًا . ويزداد الظالم عَتوًّا ! لا ننتفع بما علمنا ولا نَسأل عما جهلنا . ولا نتخوَّف قارعةً حتَّى نَحُلَّ بنا . مِن الناس مَنْ لا يَمْنَعُ القِصادَ إلَّا مَهانةً نَفْسَهُ ، وكَلالةً حَدَّةً ونَضِيبُ وقره . ومنهم المَصْلِيْتُ لِسيفه والمعلنُ بِشرِّه ، والمُجْلِبُ بِخَيْله ورَجَله ، قد أَشْرَطَ نَفْسَهُ لِحُطامِ يَنْتَهزُهُ أو منبرٍ يَقْرَعُهُ . وَلَكَيْشَ المتجرُ أن تَرى الدُّنيا لِنَفْسِكَ ثَمنا !

حُبِّ السِّلَمِ

من كلام له وقد استبطأ أصحابه إذَنَّهُ لَهُم في القِتالِ بِصَفَتَيْنِ !
أَمَّا قولُكم : أَكَلَّ ذلكَ كِراهيةُ الموتِ ؟ فواللهِ ما أبالي أَدخلْتُ على الموتِ أو خَرَجْتُ الموتِ إليَّ ! وأَمَّا قولُكم : أَشْكَأ في أَهلِ الشَّامِ ؟ فواللهِ ما دَفَعْتُ الحَرْبَ يَوْمًا إلَّا وأنا أَطْمَعُ أن تَلْحَقَ بي طائِفَةٌ فَتَهْتَدِي بي وتَعِشُوْا إلى ضَوْئِي ، وذلكَ أَحَبُّ إليَّ من أن أَقَاتِلَها على ضَلالِها . وإنْ كانَتْ نَبْوءُ بآثامِها !

أَسْفلُكم أَعْلَاكم

من كلام له يَجرِي بِجرى الخُطْبَةِ ، لَمَّا بُويعَ بِالْمَدِينَةِ :
والَّذي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ ، لَتَغْرِبَنَّ غَرْبَةً وَلَتُسَاطِنَنَّ سَوَاطِنُ الْقِيَدِ حَتَّى

يُعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم ! والله ما كنتُ وشمةً ، ولا
كذبتُ كذبة !

زجر النفس

ومن خطبة له :

زِنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا ، وتنفسوا
قبل ضيق الحناق ، وانقادوا قبل عُنْف السَّيَاق ، واعلموا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعِينَ
على نفسه حتَّى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ لم يكن له من غيرها زاجرٌ ولا
واعظ !

عتب العاتب

من خطبة له لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان :

دعوني والتمسوا غيري فَإِنَّا مستقبلون أمراً له وجهٌ وألوان ، لا تقوم
له القلوب ولا تثبت عليه العقول . وإنَّ الآفاق قد أغامت والمحجَّة قد
تنكَّرت ، واعلموا إِنَّ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بكم ما أعلم ، ولم أصْغِ إلى قول
القاتل وعتب العاتب . وإنَّ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا سَأَحْدِيكُمْ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ
وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ . وَأَنَا لَكُمْ وَزيراً خيراً لكم مني أميراً !

يا أهل الكوفة

من خطبة له في أهل الكوفة :

يا أهل الكوفة ، مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَيْنِ : صَمٌّ ذُو أَسْمَاعٍ ، وَبُكْمٌ

ذوو كلام ، وعمي ذوو أبصار . لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا إخوان
ثقة عند البلاء ! يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتُها : كلما جُمعت من جانب
تفرقت من جانب !

العدالة في القسمة

من كلام له يجري مجرى الخطبة لما عوتب على التسوية في العطاء :
أنا مروني أن أطلب النصرَ بالخور في مَنْ وَلَّيتُ عليه ؟ والله ما أطور^(١)
به ما سمرَ سَمِيرٍ وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً ! ألا وإن إعطاء المال في غير
حقّه تبذيرٌ وإسراف .

الظالم والمرثي

وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الدماء والمغانم والأحكام وإمامة
المسلمين البخيلُ فتكون في أموالهم نهْمَتُهُ ، ولا الجاهلُ فيُضِلُّهم بجهله .
ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ، ولا الخائف^(٢) للدُّول فيتخذَ قوماً دون
قوم ، ولا المرثي في الحكم فيذهب بالحقوق !

إنصاف المظلوم من الظالم

من كلام له في غابة البيعة والخلافة والحكم السليم :

(١) أطور به : أمر به .

(٢) الخائف : الجائر . الدول : جمع دولة ، بالضم ، وهي المال ، لانه يتداول به ، أي
ينتقل من يد ليد .

لم تكن بيبعتكم آياتي فلتة ، وليس أمري وأمركم واحداً : إني أريدكم
الله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم ! أيها الناس ، أعينوني على أنفسكم ! وإيمُ
الله لأنصفن المظلوم من ظالمة ولأقودن الظالم بخزائمه حتى أوردته منهل الحق
وإن كان له كارهاً !

•

الكفّ عن البغي وإنصاف الخلق

من خطبة له تسمى « القاصعة » :

لقد نظرتُ فما وجدتُ أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا
عن علةٍ تحتملُ تمويهَ الجهلاء ، أو حجةٍ تُليطُ بعقول السّفهاء ، غيركم ؛
فإنكم تتعصّبون لأمرٍ لا يُعرف له سبب ولا علة . فإن كان لا بدّ من العصبية
فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور والأخلاق
الرغبة والأحلام العظيمة والآثار المحمودّة ! فتعصّبوا لخالل الحمد : من
الحفظ للجوار والوفاء بالذمام والطاعة للبرّ والمعصية للكبر والأخذ بالفضل
والكفّ عن البغي والإنصاف للخلق واجتناب الفساد في الأرض !

ألاً وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث ^(١) والفساد في الأرض :
فأما الناكثون فقد قاتلتُ ، وأما القاسطون ^(٢) فقد جاهدتُ ، وأما المارقة
فقد دوتُ ، وأما شيطان الردّة ^(٣) فقد كفيته بصعقةٍ سُمعت لها وجبةٌ
قلبه ورجّة صدره . وبقيتُ بقيةً من أهل البغي ، ولئن أذن الله في الكرة عليهم

(١) النكث : نفق المهد .

(٢) القاسطون : الجاثرون عن الحق .

(٣) الردّة : النقرة في الجبل . وشيطان الردّة : يعني به أحد رؤساء الخوارج وقد وجد

مقتولا في ردّة .

لأدبيلنّ منهم إلّا ما يشذّر في أطراف البلاد تشذّرا .

الحقّ والناس

من خطبة له بصفتين :

أمّا بعد . فقد جعل الله لي عليكم حقّا بولاية أمركم ، ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم . فالحقّ أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيقها في التناصف ، لا يجري لأحدٍ إلّا جرى عليه . ولا يجري عليه إلّا جرى له .

وإنّ من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس أن يُظنّ بهم حبّ الفخر ويوضع أمرهم على الكبر . وقد كرهتُ أن يكون جالّ في ظنكم أنّي أحبّ الإطراء واستماع الثناء . فلا تكلّموني بما تُكلّمُ به الجبايرة . وإنه من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يُعرّض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه ، فلا تكتفوا عن مقالة بحقّ . أو مشورة بعدل ، فإنّي لستُ في نفسي بفوقٍ أن أخطيء !

الحقّ لا يبطله شيء

من خطبة له عقب البيعة :

أيها الناس . إنّما أنا رجلٌ منكم ، لي ما لكم وعليّ ما عليكم . الا إنّ كلّ قطيعةٍ أقطعها عثمان ، وكلّ مالٍ أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال . فإنّ الحقّ لا يبطله شيء . ولو وجدته قد تزوّج به النساء وفرّق في البلدان لرددته . فإنّ في العدل سعةً ، ومن جار عليه الحقّ فالجور عليه أضيّق .

أيتها الناس ، ألا يقولنّ رجالٌ منكم غداً قد غمّرتهم الدنيا فامتلكوا
العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة ،
إذا ما منعّتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون :
حرّمنا ابنُ أبي طالب حقوقنا ! ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار
من أصحاب رسول الله يرى أنّ الفضل له على سواه بصحبته ، فإنّ الفضل
غداً عند الله . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يُقسّم بينكم بالسوية ، ولا
فضلَ فيه لأحدٍ على أحد !

وخادمه يداه

من خطبة له يدعو الناس إلى قرّض الدنيا على منهاج موسى وداود والمسيح
ومحمد :

وإن شئتُ قلتُ في عيسى بن مريم عليه السلام ، فلقد كان يتوسّد الحجر
ويلبس الحشن ويأكل الجشيب ، وكان إدامه الجوع وسراجُه بالليل القمر ،
وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغارها ، وفاكهته وربحانه ما تُنبِت الأرضُ
للبهائم . ولم تكن له زوجةٌ تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مال يلفته ، ولا طمعٌ
يُذّله ، دابّته رجلاه وخادمه يداه !

في الانسان الخير

من خطبة له جلييلة يصف بها الانسان الصادق الخير ، أو الانسان كما يجب
أن يكون . ونلفت نظر القارئ إليها بصورة خاصة ، لِمَا فيها من صفات
عليّ بن أبي طالب نفسه :

يَمُزِجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ ؛ الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ؛
يَعْفُو عَنْ ظِلْمَتِهِ وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ؛ بَعِيدٌ فَحْشُهُ لَيْتَنَ قَوْلُهُ غَائِبٌ مِنْكَرُهُ
حَاضِرٌ مَعْرُوفُهُ ، مَقْبَلٌ خَيْرُهُ مَدْبُرٌ شَرُّهُ ؛ لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ وَلَا
يَأْتُمُ فِي مَنْ يَحِبُّ ؛ يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ ؛ لَا يَنْابِزُ بِالْأَلْقَابِ وَلَا
يُضَارُّ بِالْجَارِ وَلَا يَشْتُمُ بِالْمَصَائِبِ وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ ؛
نَفْسُهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ ؛ بُعْدُهُ مِمَّا تَبَاعَدَ عَنْهُ زَهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، وَدُنُوهُ
مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لَيْنٌ وَرَحْمَةٌ . لَيْسَ تَبَاعَدُهُ بِكَبِيرٍ وَعَظَمَةُ وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٌ .

• في صفة المنافقين

من خطبة له يصف بها المنافقين :

يَتْلَوْنَ أَلْوَانًا وَيَفْتَنُونَ ^(١) اِفْتِنَانًا ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ وَيُرْصِدُونَكُمْ
بِكُلِّ مَرْصَادٍ . يَمْشُونَ الْخَفَاءَ وَيَدْبُونَ الضَّرَاءَ . مُؤَكِّدُوا الْبَلَاءَ وَمَقْنَطُوا الرَّجَاءَ
لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ وَلِكُلِّ شَجْوٍ دَمُوعٌ ^(٢) .
يَنْفَارُ ضَوْنُ التَّنَاءِ وَيَتَرَاقِبُونَ الْخِزَاءَ . إِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا .
قَدْ أَعَدَّوْا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا وَلِكُلِّ قَانِمٍ مَائِلًا ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا ، وَلِكُلِّ
بَابٍ مُفْتَحًا . وَلِكُلِّ لَيْلٍ مُصْبَحًا ! يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيَقِيمُوا بِهِ
أَسْوَاقَهُمْ وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاقَهُمْ . يَقُولُونَ فَيَشْبَهُونَ وَيَصِفُونَ فَيُوهَمُونَ . قَدْ
هَوَّنُوا الطَّرِيقَ وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ فَهَمُّ لُئِمَةِ الشَّيْطَانِ !

(١) يفتنون : يأخذون في فتون من القول لا يذهبون فيه مذهباً واحداً .

(٢) الشجو : الحزن ، أي يكون تصنعاً ونفاقاً متى أرادوا .

اللهم جنب المنتصر البغي

من خطبة له لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اللهم رب هذه الارض التي جعلتها قراراً للانام ومدّجاً للهوام والأنعام
وما لا يُحصى مما يُرى وما لا يُرى : وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها
للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً ، إنّ اظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي ،
وسدّدنا بالحق . وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من
الفتنة !

•

اللهم أصلح ذات بيننا وبينهم

من خطبة له بصفين وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام ردّاً على
سب أهل الشام إياه :

إني أكره لكم أن تكونوا سبّايين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ،
وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبكم
إيّاهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدِهم
من ضلالتهم ، حتّى يعرف الحق من جهلته ويرعوي عن الغي والعدوان من
لهج به !

•

خلقة الجرادة

من خطبة له في وصف خلقة الجرادة :

وإن شئت قلتُ في الجرادة إذ خلق الله لها عينين حمراوين ، وأسرج لها

حدقتين قمرابين ^(١) ، وجعل لها السمع الخفي ، وفتح لها الفم السوي ، وجعل لها الحس القوي ، ونابتين بهما تقرض ومنجلين بهما تقيض ^(٢) . يربها الزراع في زرعهم ولا يستطيعون ذبها ^(٣) ولو أجلبوا بجمعهم ، حتى ترد الحرث في نزواتها ^(٤) وتقضي منه شهواتها . وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقة !

خلقة النملة

ومنها في وصف النملة :

أنظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمسندق الفكر ، وكيف دبّت على أرضها وصبت على رزقها ! تنقل الحبة إلى حُجرتها وتعدّها في مستقرّها . وتجمع في حرّها لبردها ، وفي ورودها لصدرّها . مكفولة برزقها مرزوقة بوفقها ^(٥) لا يُغفلها المتأن ولا يحرمها الديان ولو في الصفا والحجر الخامس ^(٦) . ولو فكّرت في مجاري أكلها ، وفي علوها وسفلها وما في الخوف من شراسيف بطنها ^(٧) وما في الرأس من عينها وأذنّها . لقضيت من خلقها عجباً ولقيت من وصفها نعباً . ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلاّ على أن قاطر

(١) أي مضيتين كأن كلا منهما ليلة أضاعها القمر .

(٢) أراد بالمنجلين هنا : رجلها ، لاعوجاجهما وخشونتهما .

(٣) ذبها : دفعها وإبعادها .

(٤) نزوات ، جمع نزوة وهي : الوثبة .

(٥) الصدر : الرجوع بعد الورود . بوفقها ، أي : بما يوافقها من الرزق ويلئم طبعها .

(٦) الخامس : الخامد .

(٧) الشراسيف : اطراف الاصلع التي تشرف على البطن والواحد شرسوف .

النملة هو فاطر النحلة ، لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حي !

خلقة الحفّاش

من خطبة له يذكر فيها بديع خلقة الحفّاش :

ومن لطائف صنعته ، وعجائب حكمته ، ما أَرانا من غوامض الحكمة في هذه الحفّافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكل حي ؛ وكيف عشيّت أعينها عن أن تستمدّ من الشمس المضيئة نوراً تهدي به في مذهبها ، وتصل بعلانية برهان الشمس الى معارفها ، ورَدّعها تلاًّؤ ضيائها عن المضيّ في سبحات إشراقها ^(١) وأكّنها في مكانها عن الذهاب في بلج اثلاقها ^(٢) فهي مسدلة الجفون في النهار عن أحداقها ، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فلا يردّ أبصارها إسداف ظلمته ^(٣) ولا تمتنع من المضيّ فيه لفسق دُجّته ؛ فإذا ألقت الشمس قناعها وبدت أوضحُ نهارها ، ودخل من إشراق نورها على الضباب ^(٤) في وجارها ، أطبقت الأجفان على مآقيها وتبلّغت ^(٥) بما اكتسبت من نّيء ظلم لياليها فسيحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً ، والنهار سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب ؛ إلاّ أنك ترى مواضع العروق بيّنة أعلاماً لها جناحان لما يرققاً فينشقّ ولم يغلظاً فينقلا ؛ وولدها لاصقٌ بها

(١) سبحات النور : درجاته وأطواره .

(٢) البلج ؛ الضوء ووضوحه . الاثلاق : اللعنان الشديد .

(٣) اسداف الليل : الظلم .

(٤) الضباب : جمع غيب وهو الحيوان المعروف .

(٥) تبلّغت : اكتسبت أو اقتاتت .

لاجئ إليها : يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتد
أركانها ، ويحميها للنهوض جناحه . ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ،
فسبحان الباري لكل شيء على غير مثالٍ خلا من غيره .

اللهم قد انصاحت جبالنا

من خطبة له في الاستسقاء ، وهي التي تزخر بالعاطفة والحنان . وبالتواضع
لخالق الكون وهية الوجود :

اللهم قد انصاحت ^(١) جبالنا : واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا
ونجبرت في مرائبها ، وعجت عجاج الشكالى على أولادها ، وملت الردد
في مراتعها والحنين الى مواردها . اللهم فارحم أنين الآتة ، وحنين الحاتة !
اللهم فارحم حبيرتها في مذاهبها . وأنينها في موالجها ^(٢) ! اللهم خرجنا
إليك حين اعتكرت علينا حداير السنين وأخلفتنا مخايل الجود ^(٣) ؛ فكنت
الرجاء للمبتسئس والبلاغ للمتمسئس : ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ،
وهلك السوام ، أن تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ؛ وانشر علينا رحمتك
بالسحاب المنيع والريع المغدق والنبات الموقئ سحاً وابلاً ^(٤) تحيي به ما
قد مات وترد به ما قد فات . اللهم سقنا منك . بحية مروية ، تامة عامة ،
طيبة مباركة . هنيئة مربية ^(٥) ، زاكياً نبتها . ثامراً فرعها ، ناضراً ورقها ،

(١) انصاحت : جفت اعالي بقولها ويبت من الجذب .

(٢) موالجها : مداخلها في المرائب .

(٣) مخايل : جمع مخيلة ، كصيبة ، وهي السحابة تظهر كأنها ماطرة ثم لا تمطر . والجود :
المصر .

(٤) سحاً : صبا . الوابل : الشديد من المطر الضخم القطر .

(٥) مربية : خصبة .

تُنعش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك ! اللهم سقيا منك
تُعشبُ بها نجادنا ^(١) ونجري بها وهادنا ونخصب بها جنابنا ^(٢) وتقبل بها
ثمارنا . وتعيش بها مواشينا ، وتندى بها أفاصينا . وتستعين بها ضواحيننا ،
من بركاتك الواسعة !

التضامن والقوة

ومن أمثال عليّ :

أثوارُ ثلاثةٍ كنّ في أجمة ، أبيضُ وأحمرُ وأسود ، ومعهنّ فيها أسد ، فكان
لا يقدر منهنّ على شيءٍ لاجتماعهنّ عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر :
لا يدلّ علينا في أجمتنا إلاّ الثور الأبيض ، فإن لونه مشهور ، ولوني على
لونكما ، فلو تركتماني آكله صفّت لنا الأجمة ! فقالا له : دونك فكله .
فأكله . فلما مضت أيامٌ : قال للأحمر : لوني على لونك فدعني آكل الأسود
لنصفو لنا الأجمة ! فقال : دونك فكله . ثم قال للأحمر إني آكلك لا محالة !
فقال دعني أنادي ثلاثاً . فقال افعل . فنادى ألا إني أكملتُ يوم أكمل الثور
الابيض ^(٣) .

• • •

(١) نجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الارض .

(٢) الجناب : الناحية .

(٣) رأينا ان ثبت هذا المثل هنا ، لأنه من أجمل الامثال العربية التي جاءت حكاية عن الحيوان
ثم لانه اول هذه الامثال ، وفيه دعوة إلى الاتحاد وتنفير من الفتنة . ومن الغريب ان يكون هذا المثل
الذي ثبتت نسبته لعلي بن أبي طالب ، غير مذكورة في نهج البلاغة على اختلاف طبعاته وكثرة
شارحيه والمعتنين به .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
وثيقة إعلان حقوق الانسان الدولية	٥
ما وراء الوثيقتين	١١
العدالة الكونية وما يمثلها عليّ منها	٢٣
تكافؤ الوجود	٢٥
الحنان العميق	٤٩
صدق الحياة	٥٧
خير الوجود وثورية الحياة	٦٧
عليّ وسقراط	٨٣
عظيم أثينا وعظيم الكوفة	٨٥
على رؤوس الطغاة	٩٣
صلابة وشموخ	١٠٧
خذ نفسك بالحقّ	١٢٩
أمانة الحكماء	١٤٥
من روائع سقراط	١٥٧

الصفحة

الموضوع

١٨١

بلاغه عليّ في خدمة الإنسان

١٨٣

حدود العقل والقلب

١٩٥

الوحدة الوجودية

٢٠٧

الأسلوب والعقريّة الخطابية

٢١٩

من روائع الإمام

٢٢١

طائفة من أقواله

٢٤٧

طائفة من رسائله وعُهوده ووصاياه

٢٥٥

طائفة من خطبه

